مصطفى النجار

الضالُّـــون

رواية

obeikan.com

الكتـــــــاب: الصالون

المـــؤلـــــف: مصطفى النجار

تصميم الغـــلاف: إسلام مجاهد

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 2016 / 27080

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 145 - 8

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

openkan.com

مصطفى النجار

الضالُّـــون

رواية

obeikan.com

obeikan.com

الإهداء

إليكِ ريم . .

دائما وأبدا كنتِ لي سندًا . . خير السند . .

obeikan.com

obeikan.com

(١)

تعجب العاملون بالمستشفى الجامعي ومرضاهم وهم يشاهدون الطبيب النائب بالعناية المركزة بقامته القصيرة يهرول لاهثا دافعا كرشه الضخم أمامه خارجا من بوابة الطواريء محاولا اللحاق بالدكتور ماهر بركات رئيس قسم المخ والأعصاب بالمستشفى الجامعي قبل أن ينصرف بسيارته.

-طالعلي بالجاون بره يا دكتور.

تحسس بدر الدين نبيل رأسه في إحراج نازعا غطاء شعره الذي أنساه تعجله أن يخلعه بعد خروجه من العناية المركزة.

-أنا آسف يا دكتور والله، أنا بدر النايب الـ..

أشار له ماهر بركات بنفاذ صبر أن يركب إلى جواره في السيارة، فأسرع بدر الدين نبيل بتنفيذ الأمر وقبل أن يواصل حديثه وسط لهاثه قاطعه ماهر بركات قائلا في تعجل.

-بقولك إيه يا ابني، خد نفسك واحكيلي بسرعة الكارثة اللي أنت قولت عليها في التليفون، قدامك دقيقتين ومش عايز لت وعجن.

في دقيقتين لم يزد عليهما ثانية واحدة سكب بدر الدين نبيل في أذني ماهر بركات ما يعرفه عن الحالة التي كانت لديهم في العناية المركزة حتى وقت

قريب، وعما أثير عن أفعالها على صفحات الجرائد ومواقع الإنترنت بعد ذلك، والتي اعتبرها بدر الدين نبيل ممارسات تؤدي إلى الإصابة بمرض نادر يسبب العدوى لكل من تعامل مع المريض من داخل المستشفى وخارجها وما تسببه تلك العدوى من الوفاة الحتمية في النهاية.

-ده وباء يا دكتور ماهر هيدمر البلد و..

-أنت عرفت المرض ده منين؟

قاطعه ماهر بركات سائلا في صرامة فابتسم بدر الدين نبيل ابتسامة فخر وزهو منتظرا إطراء من أستاذه قائلا:

-من قرائاتي يا دكتور ماهر، أنا أول ما عرفت الموضوع قولت أول واحد لازم أقوله هو حضـ..

-هي الحالة ظهر عليها أي عرض من أعراض المرض قبل ما تموت؟

قاطعه ماهر بركات سائلا في حزم.

-لا يا دكتور.. دي..

-أمال أنت مضخم الموضوع ليه يا بيه.. أقرأ كويس عن المرض يا دكتور.. دي ولا أعراض ظهرت ولا المرض عمره ظهر بره بابوا غينيا الجديدة يا دكتور.. نروح احنا عاملين إيه؟

-نعمل إيه يا دكتور ماهر؟

سأله بدر الدين نبيل في غباء واضح.

obeikan.com

-نروح عاملين إشاعات والدنيا تتقلب..

-أصل يا دكتور..

-أصل إيه وفصل إيه.. هتقولي أصل الـ(Incubation Period) كبيرة ووارد مش عارف إيه؟!.. روح أقرأ كويس يا دكتور.. البلد مش ناقصة بلبلة.

قالها ماهر بركات في غضب زاجرا بدر الدين نبيل الذي شعر بأنهار من العرق تفيض من جبهته بفعل الإحراج البالغ فاستأذن ماهر بركات ونزل من السيارة يكيل له السباب في سره.

* * *

على الرغم من أن باقة الإنترنت الخاصة بهاتف بدر الدين نبيل كانت توشك على النفاذ إلا إنه لم يبخل بما تبقى منها من أجل بحث سريع عن ذلك المرض الذي يثير شكوكه، لم يستغرق الأمر منه وقتا طويلا حتى تأكدت داخله تلك الشكوك، هذا المرض الذي يمتاز بفترة الحضانة الطويلة التي قد تصل إلى عشرين عاما لهو مرض خطير إن لم يتم احتواءه وتم تجاهله، انتشاره يعد كارثة مؤكدة، لا يمكن ترك الأمر لإفتراضات أنه لن تنتشر العدوى حتى يفاجأ به الجميع وباءا يجتاح البلاد ويحصد أرواح العباد.

"اللعنة على هؤلاء الكبار الذين يقللون من كل اكتشاف يقوم به تلامذتهم غرورا!".. هكذا كان يحدث نفسه مقتنعا أن ماهر بركات يتعمد منعه من صعود أولى درجات سلم المجد والشهرة.

- ألـووو.. أحمد باشا على الديب، الصحفي الكبير.. مسحت رقمي

ولا إيه؟!.. أنا يا عم بدر نبيل بتاع اتحاد طب.. أيوة يا حاج.. بقولك إيه.. أنا جايبلك سبق صحفي هيقلب الدنيا.. مرض ظهر هنا والكل مكتم عليه..

حكي بدر الدين نبيل التفاصيل الكاملة لشكوكه التي صاغها كحقائق مؤكدة لصديقه منذ أيام الجامعة أحمد الديب والذي يعمل محررا بأحد المواقع الإخبارية المشهورة وكذلك بإحدى الجرائد الصغيرة، حماسة بدر الدين نبيل في حديثه دفعت أحمد الديب لتسجيل التفاصيل الخاصة بهذا المرض والذي يزعم أنه لم يظهر في مصر من قبل على الإطلاق وإنما أنفردت به بابوا غينيا الجديدة فقط في منتصف القرن الماضي وكذلك سوريا في القرن الحالي بعدما أدعت بعض التقارير إصابة بعض أفراد الجيش السوري الحر به وتم التكتم على الأمر مثلما يحاولون فعل ذلك في مصر الآن!

* * *

(٢)

أهلا بك وسط المقابر وصخبها الصامت..

أهلا بك وسط المقابر وسط آلاف الأبدان منزوعة الروح تحت الثرى..

أهلا بك وسط المقابر حيث يتساوى الغني والفقير والقوي والضعيف..

أهلا بك وسط المقابر حيث الأتربة والغبار المعلق في الهواء مشبعا برائحة العفن والموت..

أهلا بك وسط المقابر حيث يرقد تحت الأرض الصالحين المسعدين بنعيم القبر والطالحين المعذبين بجحيمه وغير المؤمنين بنعيمه ولا جحيمه ينتظرون قيام الساعة..

أهلا بك فوق العظام والأبدان المتحللة والأبدان التي لم يصبها دور التحلل بعد..

أهلا بك وسط اللحود والقبور والقصور المشيدة لأغنياء الدنيا الفانية منتظرة أن تسكنها جثثهم..

أهلا بك وسط ضوضاء الأحياء صباحا ونباح كلاب القبور ليلا وصمت الديدان التي تلتهم ولائمها في جشع صباح مساء..

أهلا بك وسط الهواء المتزاحم بمشاعر الشماتة وكئابة الحزن وفرح الظفر

obeikan.com

بإرث عظيم..

أهلا بك وسط ديار قوم مؤمنين وكافرين ومن لم يبلغوا الحلم بعد، هم السابقون وجميعنا بهم لاحقون فقط إن سمحت لنا الأقدار بميتة طبيعية ودفنة طبيعية..

أهلا بك وسط المقابر حيث يجلس سعيد عبد الجليل القرفصاء مفترشا الأرض دافنا وجهه بين كفيه باكيا منتحبا مبللا بدموعه التربة الهشة فتحيلها لغزارتها عجينا.

لكل منا أحزان وآلام حفرتها أيدي الأقدار في أرواحنا وعمقتها، ولكن الأمر مع سعيد عبد الجليل يختلف تمام الاختلاف، آمن دائما أن ما كان له من حظ في اسمه، بل كان يوقن بشدة أن اسمه هذا من دلائل سخرية القدر منه وإحدى مشاهد الكوميديا السوداء في حياته البائسة.

الليلة لو أفرغ سعيد عبد الجليل حزنه وبؤسه وهمه وغمه في طبقات الأرض السبع لتشبعت وفاضت، لو وزعت أحزانه وآلامه على أهل الأرض والسماء لوسعتهم، عاش حياته التعسة وحيدا مع ابيه بلا أم يسعى لنعيم الجنة تحت قدميها ولا أخ يستند إليه وقت ضعفٍ ولا أخت تعوضه عن حنان الأم ولا أقارب يكونون له السند متى اشتدت عليه نكبات الدهر.. اليوم اكتملت مأساته بعدما أمسى وحيدا جدا بعد أن فقد أبيه عبد الجليل وهدان، الأب الذي كان بمثابة الأب والأم والأخ والأخت والصاحب لثلاثة عقود هي عمر سعيد عبد الجليل..

آن لسعيد عبد الجليل أن يفك القيد عن عينيه بعد أن حبس دموعه خلف جدران صلابته ورجولته المشيدة فوق جذوره الصعيدية أمام الجميع حتى انفض

الجميع من حوله وتركوه قائما غير عابئين بسرعة انهياره بعد رحيلهم..

فليبك سعيد عبد الجليل وليفرغ ضعفه كيفما شاء الآن، فهذه الدنيا لا تعترف بضعيف، فليحفر قبرا صغيرا وليدفن فيه حزنه وليهل عليه التراب فما قد كان قد كان، وما دام لا يمتلك رفاهية أن يغير واقعه الأليم فعليه أن يعافر لكي يتعايش معه وتلك سنة الحياة وهذا هو حال الدنيا مثلما ردد المعزين والمشيعين لجنازة ابيه!

* * *

لم يتمكن سعيد عبد الجليل من الاختلاء بنفسه لفترة كافية بعد وفاة ابيه، فاليوم التالي مباشرة استقبلت المقابر عدة جثامين آتية مباشرة من مشرحة زينهم، ظل طوال النهار وحتى منتصف الليل يجهز المقابر لاستقبال الجثث، يوم حار في منتصف اغسطس اختلط فيه عرق سعيد عبد الجليل بالأتربة الهشة المعلقة في الهواء وسط المقابر حتى تكونت طبقة واضحة من الطين اللازب فوق جلده، يوم شاق ومجهود بالغ شغله عن التفكير في ابيه عبد الجليل وهدان الذي واراه الثري في اليوم الماضي.

يوم كامل لم يضع في جوفه كسرة خبز أو شربة ماء أو لقيمات يقمن صلبه، مكتفيا بعدة كيلوجرامات من التراب وجدت طريقها بسهولة لحلقه وسط أنفاثه اللاهثة فسدت جوعه ووأدت شهيته.

جاء الليل فخلت المقابر من زائريها وتركوا سعيد عبد الجليل وسط المقابر بساكنيها الجدد الذين اعتادت أبدانهم نومة الأرض في الأيام الماضية وعانت

من حر الصيف القائظ في أيامها الأخيرة قبل أن تعاني من برودة ثلاجات الموتى بمشرحة زينهم بعد وفاتها، دخل إلى بيته المبني على أطراف المقابر، ذلك البيت الصغير المبني من الطوب الجيري الأبيض والذي ما يتكون إلا من غرفة واحدة ودورة للمياه حيث سكن مع ابيه منذ سنين مضت مع صاحب البيت الأصلي الشيخ هاشم اللحاد الذي كان يحرس المقابر قبلهما، مساعدات فاعلي الخير هي من حولت مسكن الشيخ هاشم اللحاد من أعواد الخوص إلى جدران من الطوب اللبن ثم أخيرا لجدران من الطوب الجيري الأبيض والذي أعرشته أموال الصدقات من بضعة سنوات بسقف اختلط فيه الاسمنت بحديد التسليح فلم تعد تتخلله مياه الأمطار مثل اعتادت من قبل، لم يعش الشيخ هاشم اللحاد لينعم بمثل هذا السقف.

وقف سعيد عبد الجليل تحت المياه الباردة عاريا يغسل عنه الطين الذي ارتداه طوال النهار محاولا أن يخمد ببرودة المياه النيران الملتهبة التي تتأجج بداخله مفكرا فيما حدث له في الثلاث سنوات الأخيرة حتى وصل إلى ما وصل إليه حاله!

يؤمن سعيد عبد الجليل منذ طفولته بأن هناك نوع من النحس أو سوء الحظ يلازمه، يستحيل أن يتعامل القدر مع إنسان بهذه القسوة المفرطة!.. لم يعتقد يوما أن ما يحدث معه يمت لأي عدل بصلة.. أي عدل في أن يكتب عليه أن يفقد أمه في سنوات طفولته؟!

أي عدل في أن يكتب عليه أن يترك وابيه بيتهما وزرعهما وماشيتهما القليلة في قريتهما ليأتيا ليعيشا وسط المقابر والأموات منتظرين أموال الصدقات أن تأتي

obeikan.com

إليهما من كل حدب وصوب؟!

أي عدل في أن يرضى بهذا كله فيقرر القدر أن يعمق جراح روحه ويسلبه أباه؟!.. أي عدل في هذا كله!؟

فكر كثيرا وهو تحت المياه التي أفقدها الصيف برودتها بحرارته أن الآوان قد حان لينهي حياته بنفسه.. ليصبح لمرة أولى وأخيرة هو صاحب القرار في تحديد مستقبله.. يمكنه أن يقطع شرايين معصميه ويحاول أن يظل رجلا أمام نفسه ولا يجري صارخا مولولا في الشوارع باحثا عن نجده، يمكنه أن يشنق نفسه بحبل في السقف الخرساني وتصعد روحه إلى بارئها مشاهدة في سعادة جسده المتأرجح ووجهه المحتقن اختناقا ولسانه المتدلي خارج فمه ككلب أجرب أرهقه اللهاث، يمكنه أن يخرج عاريا في الشارع ويلقي بجسده أمام إحدى الشاحنات المسرعة موقنا من أن الوقت لن يسعفه ليدرك حجم الألم الذي سينال من جسده المسحوق أسفل إطارات تلك الشاحنة، يمكنه أن يتخذ القرار بسهولة ولكن يظل جزء من عقله يرفض كل ذلك خائفا من عذاب آخرته وقد استكفى من عذاب دنياه القاسية.

عندما انتزع روحه من دوامات التفكير اكتشف أن عيناه قد استسلمت لضعف روحه وانكسارها وتفتتها فاضت دموعه.. دموع رجل صعيدي يستشعر الضعف وانعدام الحيلة!

* * *

(٣)

- تصدقي العضم ده شبه الحقيقي بالظبط!

قالتها الفتاة غير المحجبة لصديقتها المحجبة في دهشة وهي تتأمل عظمة العضد الأيمن بين يديها في مشرحة الكلية.

-الله يرحمه ما كانش يتوقع أن العضم بتاعه هيلعب بيه الطلبة.

قالها كريم الشرقاوي في جدية واضحة وعيناه معلقتان بالعظمة التي تحملها الفتاة غير المحجبة.

-قصدك إيه يا دكتور؟!

سألته الفتاة في خوف وقد بدأ الارتباك يتملكها وهي تنقل نظرها بين العظمة التي تمسكها في ذعر وبين كريم الشرقاوي الذي لم يتخل عن جديته قائلا:

-إنتي عايزة تقنعيني إنك مش عارفة أن العضمة دي تخص جثة حقيقية لبني آدم تعيس ما اتكتبش ليه ياخد حقه ويندفن زي بقية البني آدمين؟!

لم تمتلك الفتاة بعد كلماته التي تخلو من الهذل القدرة على التعليق أو اتخاذ رد فعل مناسب تجاهه أو تجاه العظمة بين يديها، فقط زاغت عيناها وسقطت وسط المشرحة فاقدة الوعي وكأنها دمية نزع أحدهم بطاريتها فجأة!

هرع جميع الطلاب الجدد لمحاولة نجدة زميلتهم ما بين زميلات خائفات

obeikan.com

أفزعهن ما حدث لزميلتهن، وزميلات حاقدات مستنكرات أو ساخرات من كون فتاة بهذه الرقة والهشاشة، وزملاء هرعوا للمساعدة والقيام بدور العالمين ببواطن الأمور وقد اعتبروا أنفسهم أطباء لمجرد سماح مكتب التنسيق لهم بدخول تلك الكلية، وزمـلاء هرعوا لمحاولة تعمد الاحتكاك وسط الزحام بزميلاتهم والوصول إلى أي لحم بض ولو خلسة بعد سنوات من الحرمان خلال مراهقتهم عبر سنوات التعليم السابقة، أما كريم الشرقاوي فقد التقط العظمة التي سقطت من الفتاة أرضا ووضعها على المنضدة التي تتراس عليها العينات ثم ذهب إلى أحد المقاعد الخشبية المرتفعة واتخذ مكانه حتى بداية هذا الدرس العملي الأول في مادة التشريح الذي يحضره للعام الثاني على التوالي دون أن يشغل باله بهذا الهرج والمرج الذي تسبب به!

لم يهتم كريم الشرقاوي خلال أجازة آخر العام السابقة بالسفر لأهله في الكويت، كما لم يهتم أهله بالعودة إلى مصر أو حتى يضغطوا عليه للسفر إليهم، كان متأكدا تماما من رسوبه في عامه الجامعي الأول بغير انتظار لنتيجة وهو ما حدث بالضبط.

خلال أشهر الأجازة كان قد قرر أن يبدأ حياة جديدة مع نفسه، قرر أن يضع نقطة في نهاية سطر ويبدأ سطرا جديدا لا يسعى خلاله أن يكون تابعا لأحد أو ساعيا لصداقة أحد، أن يعتبر أن الزمن قد عاد للوراء عاما كاملا وعليه أن يبدأ من الصفر مستعينا بالخبرات التي قد تحصل عليها من عامه الفائت، لن يكون الأحمق الذي يلدغ من جحر مر عليه مرتين.

المعيدة دخلت المشرحة وقامت بتعريف نفسها للطلاب، كان كريم الشرقاوي

يعرفها منذ العام الماضي أو كان يعرفها لمزيد من الدقة قبل أن تصبح مثلما صارت الآن!

هو كان يعرف الدكتورة صفاء رمزي المعيدة الشابة والمتزوجة حديثا صاحبة الغمازتين بارعتي الجمال اللتان تزينان وجنتيها، أما التي تقف أمامه الآن فهي مدام صفاء رمزي التي تقف بالكاد أمامهم واضعة يديها في وسطها من الخلف دافعة جنينها إلى الأمام قليلا لتخفيف ضغطه على الظهر، بطنها يبرز أمامها كبالون يوشك على الإنفجار في وجوه الطلاب ليغرقهم بسائله الأمنيوزي، تتحدث دائما بنفاذ صبر وأنفاث لاهثة تخرج بالكاد من شفتين دفنتا دفنا بين وجنتيها لوجه ينتفخ بالسوائل أسفله أما الغمازتين بارعتا الجمال فقد استحالتا بئرين عميقين لا قرار لهما، كان عليها التدريس في تلك الفترة لمادة الولادة بدلا من دروس التشريح من باب التفائل بالخير!

كانت الفتاة التي فقدت وعيها قد استعادته مرة ثانية بتأثير العطور الباريسية الفخمة والعطور المصنعة يدويا والتي تعد كحولا ايثيليا خالصا لا عطر فيه، من حسن حظ تلك الفتاة أن استفاقت قبل أن تموت اختناقا بسبب هذه العطور، كان كريم الشرقاوي ينقل بصره بينها وبين المعيدة الموشكة على الإنجاب صفاء رمزي التي بدئت تسترسل في شرح طبيعة الدراسة بالقسم.

لم يستطع كريم الشرقاوي السيطرة على عصبه البصري وشبكيتيه وبؤبئا عينيه ولا عضلات عنقه المصرة على الالتفات تجاه الفتاة كما لم يستطع أن يمتنع عن متابعة المعيدة التي تتقلص عضلات وجهها في ألم واضح مع كل ركلة من جنينها الوقح الذي لا يلقي بالا لهيبة ووقار قاعات العلم، أخرج كريم

الشرقاوي هاتفه المحمول في الخفاء وكتب على صفحته الشخصية على الفيس بوك "القرن طاشش".. ولم تمر ثانيتان حتى أبدى أحد أصدقاءه إعجابه وعلق قائلا "ربنا ينتعك بالسلامة ويتم نفاسك على خير يا أختي"!

ابتسم كريم الشرقاوي حين رأي التعليق فلمحته حينها المعيدة قائلة في نفاذ صبر امرأة على وشك وضع حملها:

-أنت يا بيه يا اللي بتلعب في الموبايل.

رفع كريم الشرقاوي رأسه متعجبا من هذا الصوت الذي فقد رقته وأنوثته خلال عام، ليجد صفاء رمزي تحدق فيه مليا ثم استطردت:

-مش أنت كنت هنا السنة اللي فاتت؟!.. أنت مدبلر؟!

-آه يا دكتور.

قالها كريم الشرقاوي في هدوء منتظر موجات السخرية أو التأنيب التي ستنهال على رأسه في الدقائق القادمة.

-يعني مدبلر وشكلك كده عايز تدبلر تاني.. مش كده؟!

أيقن حينها كريم الشرقاوي أن المعيدة صفاء رمزي تخلت عن ذكائها مع أنوثتها ورقتها بسبب الحمل فصارت تسأل أسئلة غبية لا يمكن الإجابة عليها إلا بإجابات أكثر غباء، لم يكن كريم الشرقاوي في حالة نفسية تسمح بتكبد معاناة البحث عن تلك الإجابات الأكثر غباء فنهض من موضعه وسحب أوراقه وقال لها أمام الجميع في عتاب لا طائل منه:

-ربنا ما يكتب عليكي اللي حصل معايا.

قال كلماته السابقة وانصرف دون أن ينتظر تعقيبا من المعيدة أو إهانة تستلزم الرد، كلماته جعلت الصمت يسيطر على الحاضرين جميعهم بما فيهم المعيدة الشابة وجنينها متعجبين من الرد الغامض.

كان كريم الشرقاوي يوقن بينه وبين نفسه أن ما حدث معه العام الماضي من تضارب واضطراب في هويته الفكرية وكينونته هو ابتلاء من الله واختبار شديد الصعوبة له، ليس هناك أسوأ من أن تُلقى في دوامة لا نهاية لها لا تملك القدرة على تمييز الصواب من الخطأ، كلماته التي ألجم بها المعيدة خرجت صادقة من اعماقه داعيا الله لها ألا يكتب عليها التيه والضياع وسط مياه محيط مضطرب هائج الأمواج لا شاطيء له ولا قاع..!

العام الماضي مر جحيما على كريم الشرقاوي حتى وصل إلى تلك الحالة من الاستقرار النفسي، لم يكن ليتخيل حجم المعاناة التي سيلاقيها إبان رجوعه من الكويت بعد أن عاش هناك جل عمره، عاد مجبرا ليبدأ دراسته الجامعية بمصر بعد أن تحصل على مجموع يكفيه لدخول كلية الطب البشري بعقل ما كان ليؤهله لاستكمال تعليمه المهنى إن نشأ في مصر، عام دراسي كامل عانى فيه من التيه ومن التخبط والشعور بالضياع، الشاب المراهق المرفه القادم من الكويت ليدرس في جامعة إقليمية بحافظة نقود لا تنضب يأتى مدادها من مخرات والديه العاملين بالكويت والمدخرين لأموال تكفيهم لحياة مرفهة في مصر لقرون بلا عمل تحصلا عليها من الدولة التي تمتلك نقودا مثل الأرز لا حصر لها ولا عدد.

بدأ عامه الدراسي الأول في الجامعة محاولا باستماتة أن يبدو مواكبا للعصر كاشفا عن صدره العريض بشعيراته الكثيفة التي تختفي أسفلها السلسلة التي يرتديها، كانت شعيرات صدره تملئه فخرا وزهوا بفحولته المبكرة.. نظارة شمسية أصلية ماركة (بوليس) تخفى أغلب وجهه.. سروال يتسع من أعلى ويضيق من أسفل مصرا على الهبوط كاشفا عن ملابسه الداخلية.. شعر أسود كثيف لا يكاد يستقر على حال في اليوم الواحد محاولا نزع أي صفة للرجولة عن صاحبه.. هكذا كان كريم الشرقاوي وهكذا قضى الشهور الأولى في عامه الجامعي الأول بالجامعة يتظاهر بأنه خليجي الهوية كويتي اللهجة مصري الأصل عن طريق الخطأ الذي يحاول تصحيحه، شاب عابث حاول أن يكتسب أصدقاء عن طريق أحاديثه وزكرياته في الكويت ناظما قصائد الغزل في مدح البلد الذي نشأ به، وقادحا بقصائد الهجاء في وطنه الأم حتى مل رفاقه من حديثه وانفضوا من حوله رويدا رويدا وتركوه قائما وحيدا منبوذا، سعى لأن يتواصل مع رفاق آخرين من ميسوري الحال وسرعان ما اكتشف أنهم يفوقونه في بذخ الإنفاق ولم يعد يناسبونه ولا يناسبهم وبخاصة بسيارة ابيه الشاهين صناعة التسعينات التي يسرقها خلسة دون علم ابيه الغافل عن كل أموره في دولة أخرى.

في ذلك الوقت بدأ كريم الشرقاوي يدرك أبعاد مأساته، الرفاق الأولون يرونه شابا عابثا مدللا لا يصلح أن يشاركهم معاناتهم المادية والمعنوية وأرغفة الفول والطعمية التي يدفنونها ببطونهم على عربة الشارع، لا يصلح أن يشاركهم أحلام التفوق العلمي والدراسي وأحلام الانضمام لهيئة التدريس بالجامعة، بينما كان يشعر هو بأنه ما له من قيمة تذكر مع الرفاق الآخرين ميسوري الحال والذين لا

يفرق معهم وجوده ولا يؤثر فيهم غيابه كما لا يأنس هو بصحبتهم.

وأعتزل كريم الشرقاوي الجميع!

قرر أن يستسلم بإرادته لأشد حالات الاكتئاب.. أطلق العنان للحيته تنمو كما يحلو لها، أهمل الاعتناء بملابسه، حاول أن يبدو صموتا حزينا خلال ساعات المحاضرات التي كان يصر على أن يجلس خلالها وحيدا في وسط المدرج بعيدا عن زمام الطلبة الحريصين على العلم في أوله أو زمام المجبرين على الحضور في آخره.. في أوقات الراحة يحث الخطى إلى مسجد الكلية ليصلي فرائضه في وقتها ثم يجلس في أحد الأركان يقرأ القرآن محاولا أن يبدو في هيئة التقي الورع، فكر في ارتداء جلباب ممزق متسخ يهيم به على وجهه في الطرقات أشعث الشعر كالمجذوب ثم عدل عن الآمر في النهاية قبل التنفيذ، لم يكد يمضى أكثر من أسبوع على تلك الحالة حتى وجد نفسه في بؤرة اهتمام زملاءه من المنتمين للتيار الإسلامي بالكلية، كان بالنسبة إليهم صيدا ثمينا سهلا، ورقة بيضاء لم تلوث بنقطة حبر، عقل خاو أجوف لم يسيطر عليه بعد إعلام الفلول ولم يزدحم بالأفكار الثورية والشعارات الليبرالية والعلمانية واليسارية المعبقة برائحة الكفر البين والأضل سبيلا من وجهة نظرهم، هذا عقل فارغ يسهل أن يسطروا على صفحاته البيضاء أوهام الخلافة الإسلامية القادمة وأحلام ما بعد التمكين في الأرض وشعارات جوفاء تحثه على إدراك اللحظة الفارقة، كما يمثل لهم مصدر تمويل إضافي ووسيلة لنقل أدواتهم من وإلى الجامعة بسيارته.

ولم يمض شهر حتى اعتزلهم هم أيضا كريم الشرقاوي!

هذا الود الزائد منهم لم يجد ما يبرره، هذه الأفكار والقناعات لا تصلح له، هذا التعالي الذي يتعاملون به مع الأخرين لا يجد ما يفسره.

أخذ قراره واعتزلهم قبل أن يتطبع بطبعهم، وعاد كريم الشرقاوي إلى دوامة التيه التي بدى له ألا مفر منها حتى سقط في فخ الرسوب الحتمي في عامه الجامعي الأول الذي كان بمثابة صدمة دفعته لأن يستفيق من غفلته!

في يوم الثالث من يوليو بينما كانت القوى السياسية قد اجتمعت لتعلن عزل رئيس البلاد وقتها من منصبه، كان كريم الشرقاوي يمسك بيسراه (اللي) الخاص بالشيشة وبيمناه قلمه يخط به على ورقة بيضاء وسط دخان المعسل القرارات التي اتخذها بشأن مستقبله وكان أولها الإلتزام في الدراسة، هذه الكلية التي تشعره بأنه قد صار طبيبا مع إيقاف التنفيذ لا تستحق منه هذه المعاملة الجافة، ولذلك رأيناه في الدرس العملي الأول بالمشرحة وسط زملاءه الذين يصغرونه بعام كامل محاولا الانتظام في الدراسة ما دام ذلك ممكنا ولكن صفاء رمزي لم تمهله الفرصة.

* * *

(٤)

مختار البهنساوي واحد من آلاف المصريين من ذوي الصنعات السبع أو الثمانية أو العشرين.. ما من أحد اهتم بالتفكير في إحصاء عددهم.. منذ ترك الدراسة في المرحلة الإعدادية ولم يترك مهنة يمكنه أن يعمل بها إلا وامتهنها وسمح لها مجبرا تارة وبرضاه تارة أخرى أن تمتهن كرامته، لا شيء منعه من الحصول على المال إلا أن يصبح جثة هامدة، عمل صبيا لدى الأسطى صابر الميكانيكي، عمل في مقهى المشربية، عمل في البناء مع الحاج متولي الباز المقاول الأشهر في المدينة، عمل في النجارة... إلخ، حتى استقر به الحال ليعمل بأحد المحال الصغيرة التي تقدم أرغفة الكفتة والكبدة والكباب بأسعارهم الشعبية المتدنية التي تناسب محدودي ومعدومي الدخل من الراغبين في تناول القليل من البروتين الذي يجدد الدماء في عروقهم ويعيد الحياة لبعض من أعضائهم الميتة، كان في الثلاثين من عمره وإن بدا في الأربعين بقوامه الهزيل الناحل وعينيه الغائرتين بعدما امتصت السجائر والحشيش والبانجو وأقراص الترامادول المغشوشة من جسده رحيق الحياة وتركته بضع عظام يكسوها قليل اللحم على استحياء فيحملن بمشقة وجه ذابل بارز الوجنتين غائر العينين يغم الناظرين!

مكث في تلك المهنة عامين كاملين صابرا يتولى فيها مشقة تقطيع الخضراوات

الذابلة بعد إزالة الأجزاء المتعفنة منها والتي يشتريها الأسطى صالح مرزوق من الوكالة بأبخث الأثمان ثم انتقل لتقطيع الخبز وتحضير الطحينة التي لا يختلف قوامها عن قوام الماء، تعلم حينها كيف يصنع سلطة الماء براحة ومذاق الطحينة.. ثم وصلت ثقة الأسطى صالح مرزوق به إلى مستويات رفيعة فبدأ يرسله إلى مصادره السرية التي كان يحضر من عندها اللحوم وما اشتملت عليه بطون الماشية، خلال عامين تعلم كل فنون وأسرار وتفاصيل هذه المهنة التي توفر له إفطاره وغدائه وعشائه وما بينهما وبعضا من المال يجزئه إلى ثلاث، ثلث يدخره من أجل مشروع صغير يؤسسه في أقرب وقت ممكن بعدما مل العمل لدى الغير، وثلث لضبط مزاجه المتعكر دائما وثلث أخير لأمه المريضة وأدويتها وقد كُتِبَ عليه منذ صغره الإنفاق على أسرته الصغيرة مما يتبقى من البندين الأول والثاني، تلك الأسرة البائسة التي فقدت عائلها منذ عشر سنوات ولم يترك لهم سوى معاش شهري لا يسمن ولا يغني من جوع من عمله كعامل للنظافة بمجلس المدينة.

لم تكن أمه تكف عن طلباتها منه، ومنه هو فقط لمزيد من الدقة ناهرة إياه في غضب إن أشار إلى راتب أخته سهير الذي تستأثر به وحدها من عملها بأحد محال الملابس الجاهزة في شارع القيسارية ولا تنفق منه مليما على متطلبات المنزل!

-كفاية إنها بتجهز نفسها بنفسها يا موكوس مش مستنياك تساعدها.

تقولها الأم في غضب زاجرة ابنها مختار البهنساوي فيشيح بوجهه ملوحا بزراعه في استهجان قائلا:

-خليها تتوكس.. لما تلاقي حد يعبرها.

كان يدرك جيدا أن أخته تفتقد عن جدارة كل عناصر الجذب للذكور الراغبين في الزواج أو المجبرين عليه، تفتقر إلى الجمال بوجه في رأيه دائما "يقطع الخميرة من البيت" وإن قصصنا شعره وأنمينا لحيته وشاربه فلن يختلف عن وجهه البتة، يخشى خراط البنات الاقتراب منها بسبب لسانها السليط وأنفاسها الكريهة المعبئة دائما برائحة البصل، لن يقترب منها في النهاية سوى عجوز أرمل يبحث عن خادمة إن لم يبادر شعبان الدسوقي صديقه باتخاذ خطوات جدية لخطبتها، شعبان الدسوقي صديق طفولته وصباه وشبابه ورفيقه الدائم والوحيد في جلسات وسهرات العبث في كيمياء المخ وسهرات العهر.

يوقن مختار البهنساوي تمام اليقين بأن صديقه متيم بأخته وإن كان تفسير ذلك الأمر يرجع للأقراص المخدرة التي سلبته وعيه وإدراكه لحقيقة الأمور.. سيتزوجها شعبان الدسوقي وسيسلبها راتبها كل شهر عن طيب خاطر امتنانا منها لـ(ذكر) الذي انتشلها من جحيم العنوسة.

سهير البهنساوي، كسرة خبز يابسة ليس بها أي رطوبة تنبت العفن!

البائسة التي ليس لديها مال غير الملاليم التي تتحصل عليها من عملها ولا إرث لها، وبالطبع أقاربها لا يمثلون على الإطلاق نسبا مشرفا، أما دينها وتدينها فلا يجاوز قطعة القماش التي تضعها فوق رأسها والتي ما تضعها إلا لتخفى سوئة شعرها المجعد، كان مختار البهنساوي يدرك جيدا أن آمال سهير أخته معلقة بالكامل على شعبان الدسوقي منذ الطفولة وكان يخشى فقط من أن يوصلها فقدان الأمل لأن تسلم جسدها له في لحظة ضعف لولا ثقته في الإخوة التي

تربطه بشعبان الدسوقي أكثر من ثقته في أخته!

لكل ذلك لم يكن مختار البهنساوي يرغب في المكوث في المنزل لأكثر من بضعة دقائق خلاف ساعات النوم مطالبا بأن يسيطر خلال تلك الأوقات على أعصابه قدر جهده كي لا يخنق أمه في لحظة شجار من تلك اللحظات المعتادة أو يضطر لشطر رأس أخته المستفزة لنصفين.

* * *

- أزيك يا صعيدي.

صاح بها في حماسة مختار البهنساوي مناديا على سعيد عبد الجليل الذي تنبه لنداءه فلوّح له من بعيد بيديه.

-تعالى يا أبو عمه.

أشار له مختار البهنساوي في حماسة أن يقترب فاقترب منه سعيد عبد الجليل يقدم قدما ويؤخر الأخرى حتى وصل إليه عند محله حيث يبيع الأول أرغفة الكبدة والكفتة والحواوشي والسمين، وضع مختار البهنساوي رغيفين من الكبدة مع بعض المخلل في طبق وناوله إياه.

-خد يا صعيدي بل ريقك.

قالها مختار البهنساوي في ود وعلى وجهه ابتسامة عريضة يبرز منها أسنانه التي استحال ما بقي منها للون البني من أثر السجائر، ولكن سعيد عبد الجليل في عزة نفس رده قائلا في استحياء مع قليل الاعتذار والانكسار:

obeikan.com

-تسلم يا ميخا ربنا يخليك.. سبقتك.

نفرت عروق مختار البهنساوي وبرزت من رقبته الناحلة قائلا في غضب:

-علي الحرام من ديني لتاكل.. وعهد الله عيب ترد أيد أخوك.

ابتسم سعيد عبد الجليل والذي اعتاد على شهامة مختار البهنساوي المبالغ بها معه منذ أن عرفه وهم بإخراج النقود من جيبه ليزجره الأخير بنظرة غاضبة لائمة ملوحا بالسكين في تهديد قائلا:

-ما تبقاش صعيدي بضمير كده واعقل علشان أنا خلقي ضيق.

اتسعت ابتسامة سعيد عبد الجليل وانقض على أرغفة الكبدة يفترسها في جوع واضح وكأنه لم يذق طعاما منذ أسبوع كامل!

نظر له مختار البهنساوي في رضا وسأله عن الشاي فشكره سعيد عبد الجليل معتذرا كي لا يتأخر عن عمله، ثم أسرع الخطى نحو ورشة الشيخ حسن عبد التواب الميكانيكي الذي يعمل لديه منذ ترك دراسته.

الجميع يعرفون أن الشيخ حسن عبد التواب هو أحد أهم كوادر جماعة الإخوان المسلمين في المدينة الصغيرة والذي كان قد اختفى تماما منذ فض اعتصام رابعة العدوية والنهضة لتتكفل زوجته وابنه المراهق ذو الخمسة عشر عاما بإدارة ورشته.

حتى يوم فض الاعتصام كان سعيد عبد الجليل يعد الشيخ حسن عبد التواب بمثابة ابيه الثاني، هذا الرجل الذي سمح له بالعمل لديه منذ صباه بتوصية من الشيخ هاشم اللحاد رحمه الله، منذ ذلك الحين وهو يعمل لديه أغلب اليوم ولا

يتركه إلى مرات معدودات مع مقدم أي جنازة لدفن فقيدهم بالمقابر، حينها يأذن له الشيخ حسن عبد التواب أن يتركه ليذهب لمساعدة ابيه عبد الجليل وهدان والشيخ هاشم اللحاد في فتح القبر وتجهيزه لاستقبال الميت ثم الدفن وغلق القبر ثم يعود أدراجه إلى الورشة لاستكمال عمله.

كان الشيخ حسن عبد التواب يصحبه معه في مسيرات دعم مرشحي الجماعة في الانتخابات البرلمانية وخلال لصق ملصقاتهم الدعائية في جنح الليل ليري سعيد عبد الجليل الطبيب والمهندس والصيدلي وكل أصحاب المؤهلات العليا يتشاركون معه العمل ولكن بهمة ونشاط وحماس أكبر، كانوا يبدون في ناظره أصحاب قضية يؤمنون بها وعلى استعداد تام لأن يضحوا بأرواحهم وأجسادهم وأصحابهم وبنيهم وذويهم من أجل تلك القضية، لا سبيل متاح لأن يتسلل ملل أو إحباط إليهم أو أن تفت حملات الاعتقال من عضدهم أو تكسر شوكتهم أو تضعف عزيمتهم وكأن الضربات الأمنية المتلاحقة لجسد جماعتهم تزيدهم قوة.

ولكن كان هناك شيء ما سلبي قد وقع في نفس سعيد عبد الجليل، فهو على الرغم من قربه منهم إلا أنهم لم يعتبرونه يوما واحدا منهم، هو وسيلة مساعدة متاحة بالمجان، يمكنه أن يحضر إفطارهم اليومي بالتبادل في مساجد المدينة، يمكنه أن يقف إلى جوارهم في الأعياد لتجهيز أماكن الصلاة في الخلاء.. لكن كان يرى نفسه في نظرهم غير مؤهل لحضور اجتماعاتهم التنظيمية، لن يصبح في أحد الأيام الكادر الذي يعتمدون عليه ويحرك الجموع، يعتبرونه محب من المحبين الكثّر الذين يجب أن يظلوا على مقربة منهم لحين الحاجة إليهم،

اختلفت نظرته إليهم كثيرا بعد الاعتصام الأخير الذي طال في رابعة العدوية، أيام الاعتصام كاملة قضاها هناك، أيام ثورة الخامس والعشرين من يناير لم يكونوا بهذا الغرور، كانوا يبسطون للجميع جناح الذل خداعا حتى لا يُظهِروا اختلافهم.

لو كانت ثورة الخامس والعشرين من يناير ثورة إخوانية معلنة ما نجحت، كانوا أثناءها يتظاهرون وسط بقية المتظاهرين متظاهرين أنهم مثلهم مضطهدون بلا سبب، لا هتافات يغلب عليها الطابع الإسلامي، كانوا في حاجة ماسة أيامها لإثبات أن هناك دائما نقاط محل اتفاق مشترك، فليتوحد الجميع من أجل هدف واحد هو الخلاص من النظام الحاكم حينها، لتتحالف الذئاب مع بقية ساكني الغابة من أجل الإطاحة بالأسد ثم ليتفرغوا للقضاء على البقية، كان عليهم أن يثبتوا أنه لا فرق بينهم وبين اليساريين والعلمانيين والمسيحيين وحتى الملحدين والمثليين، كان عليهم أن يعصروا ليمونة ضخمة على أنفسهم كي لا تجزع أنفسهم ويتكاثر حمض الهيدروكلوريك في جوفهم في كل مرة يباركون فيها أي شيء يختلف مع عقيدتهم، أدركوا منذ البداية أنهم ليسوا إلا ضيوف قد أتوا متأخرين للغاية على الحفل الذي دعوا إليه منذ البداية ولم يلبوا النداء، فكان عليهم أن يلتزموا بقواعد أصحاب الحفل الأصليين حتى ينفض هذا الحفل على خير محاولين قدر الإمكان الاستيلاء والاستحواذ على أكبر قدر من الهدايا والجوائز، وهو ما تم لهم بالفعل.

نجحوا ببراعة في سرقة الثورة من أصحابها ونجحوا في تصدر المشهد، ولكن خلال أشهر تمكينهم المعدودة تحولوا تماما للنقيض ورأى سعيد عبد الجليل

بأم عينيه تبدل نظرة الشيخ حسن عبد التواب لمن حوله من عامة الشعب من النقيض للنقيض، من نظرة استعطاف لنظرات استعلاء، من أراد أن يدعمنا فأهلا ومرحبا به، ومن أبى فلا حاجة لنا اليوم به بل لا مرحبا به من البداية وليبحث لنفسه عن وطن بديل وليذق وبال أمره بما اقترفت يداه ومن لا يعجبه أحوالنا فليغترف غرفة من أقرب بحر ويشربها أو ليخبط رأسه في أقرب حائط إن لم يجد بحرا في محيطه.

لم يكن سعيد عبد الجليل يفهم شيئا من أقوال الشيخ حسن عبد التواب عن التمكين في الأرض ودولة الخلافة، كل ما كان يدركه أن الشيخ حسن عبد التواب مواظب على صلاته ويتق الله فيمن حوله، قد يقوم ببعض الأعمال اللاأخلاقية في ورشته ويغش قطع الغيار ولكنه كان يخبرهم أن أصحاب هذه السيارات من عبدة الطاغوت الذين يستحقون أكثر من ذلك، ولم يكن سعيد عبد الجليل صراحة يدرك معنى "عبدة الطاغوت" ولكنه كان يثق في الشيخ حسن عبد التواب وفي أخلاقه وأمانته!

لا يفهم فقط سعيد عبد الجليل حتى الآن أين اختفى الشيخ حسن عبد التواب؟!

هل مات؟!

هل اعتقل؟!

هل رفعته الملائكة حيا فوق سبع سماوات طباقا؟!

لقد كان بينهم أغلب أيام الاعتصام بميدان رابعة العدوية، كان يلتف حوله أهالي المدينة من الوافدين للاعتصام يستمدون قوتهم من حماسته الجياشة.

قد كانت أياما رائعة لسعيد عبد الجليل، فبغض الطرف عن توفير المأكل والمشرب لهم طوال أيام الاعتصام، إلا أنه كان يبهره تلك الغيرة والحمية تجاه الدين، هؤلاء الرجال الذين أتوا بزوجاتهم وابنائهم ليعتصموا في الميدان لحماية دين الله وحماية المشروع الإسلامي والدولة الدينية التي أراد الله لها أن تدين بدين الإسلام، تلك الدولة يريدها العلمانيون والنصارى دولة كفر وفسق وإلحاد كما أخبره الشيخ حسن عبد التواب.

كم كانت أياما رائعة وهو يرى شيوخ الإسلام العظام على منصة الاعتصام يدعمونهم ويشدون من أزرهم، بل أن سعيد عبد الجليل فاضت عيناه بالدمع حين أخبروهم عن رؤيا سيدنا جبريل الذي يبلغهم السلام ويؤكد دعمهم من فوق سبع سماوات طباقا، وحين أخبروهم عن السيدة مريم العذراء التي أتت بنفسها لدعم الاعتصام، كان يطرب فرحا للأخبار التي يتناقلونها عن انقلاب الجيش دعما للشرعية وعن عودة الرئيس مرة أخرى إلى سدة الحكم بعد وصول الأسطول الأمريكي إلى سواحل الاسكندرية ليعيد الحق لأصحابه وينصر دولة الإسلام، أخبروه أن أمريكا اليوم غير أمريكا الأمس الملعونة، فارس الإسلام وحامي حماه باراك حسين أوباما لا يقارن بجورج بوش السفاح.

كاد يطير من شدة الفرح حين أخبره الشيخ حسن عبد التواب في أيام الاعتصام الأخيرة أن أحد الإخوة طلب زواج سعيد عبد الجليل هذا الشاب المسلم القوي من ابنته ولكنه رفض أن يخبره أي تفاصيل سوى بعد عودة الرئيس لكرسي الحكم الذي هو الأجدر به منذ عهد سيدنا يوسف الصديق عليه السلام، كم كان الأمر رائعا أن يرى نفسه وقد أصبح ذا قيمة وهناك من يقدره بل ويطلبه

للزواج من ابنته!

وتشاء الأقدار أن يختفى الشيخ حسن عبد التواب فجأة قبل فض الاعتصام بيومين ودون سابق إعلان خلاف ما كان يفعل كل مرة، ولم يكن الشيخ حسن عبد التواب وحده هو المختفي بل كل قيادات الجماعة التي تصدرت المشهد منذ البداية اختفت هي الأخرى وعندما تواترت الأنباء عن أن الشرطة والجيش قررا فض الاعتصام بالقوة انسحب سعيد عبد الجليل عائدا إلى ابيه الذي تركه وحيدا لأكثر من شهر ونصف الشهر، عاد ليجد شعبا لن يتردد لأن يمزقه إربا لو عرفوا أنه على الأقل قد صافح إخوانيا في يوم من الأيام، وعندما ابتعد عنه الجميع باعتباره في نظرهم موصوما بعار مناصرة هؤلاء المفسدين في الأرض، لم يجد أحدا يعامله برفق ولين متجاوزا عن خطيئته غافرا لذلته سوى مختار البهنساوي الذي ظل يعامله معامله حسنة للغاية ولم تتغير منذ فتح الأخير محله بالقرب من ورشة الحاج حسن عبد التواب منذ أكثر من عام مضى.

أما مختار البهنساوي والذي عجنت شخصيته من كل خطايا البشر وآثامهم والذي لم يترك منكرا أو حراما إلا وكان سباقا إليه ليرتكبه فلم يكن ينظر لسعيد عبد الجليل مثلما ينظر إليه بقية الناس، فمنذ عرف سعيد عبد الجليل في سنوات دراستهما الأولى بمدرسة التحرير الإبتدائية قبل الانقطاع عن التعليم وهو يراه بهيئة الصعيدي المسكين المضطهد الذي عاني ويلات الاضطهاد من الجميع منذ كان طفلا بسبب مهنة ابيه اللحاد فاضطر إلى ترك الدراسة في المرحلة الابتدائية.

كان الجميع منذ طفولة سعيد عبد الجليل يعتبرونه الحائط المائل الذي يفرغون

فيه كبتهم وعقدهم النفسية باعتباره غير قادر على الرد أو الدفاع عن نفسه لكونه وحيدا لا أهل له ولا عشيرة ولم يتخذ في حياته رفقاء ينصرونه، ليس له كبائس في حياته البائسة سوى ابيه اللحاد الأشد بؤسا الذي لن يرهب به أقرانه أو يرهب بسلطته مدرسيه، عندما اشتد عوده أصبح شابا يافعا لا تنقصه القوة أو العنفوان فتراجع من حوله عن إلحاق الأزي النفسي أو البدني به بعدما اكتشفوا أنه الآن قادر على الرد لايقافهم عند حدودهم، ولكن لم يكن سعيد عبد الجليل ليفعل أو أن يستغل ذلك بطشا بالعالمين، اختار سعيد عبد الجليل أن يكمل حياته صموتا في ركن قصي من الحياة لا يشغل باله سوى صيانة السيارات في ورشة الحاج حسن عبد التواب ودفن الموتى مع ابيه عبد الجليل وهدان حتى كان استغلال الشيخ حسن عبد التواب لسلطته كصاحب للعمل، فجعله ينخرط معه في أنشطة الجماعة وصولا لاعتصامهم الأخير في رابعة العدوية ليعود سعيد عبد الجليل حيا إلى الحياة الدنيا ليجد أبا فارق الحياة واضطهاد من الجميع باعتباره إخوانيا وإن لم يكن يوما كذلك.

هذا الشاب الصعيدي في نظر مختار البهنساوي واحد من القلائل الذين دهسهم قطار الحياة ولم تنل أشلائهم الفرصة لتتحصل على حقوقها المشروعة في تلك الحياة البائسة بعدما قتلت روحه مرارة الأيام، إن كان مختار البهنساوي لم يفعل خيرا في حياته قط، فليكن عطفه وإحسانه على هذا الشاب الصعيدي هي الصلة الوحيدة بينه وبين الخير عل رأفته به تكون المنجية من عذاب النار وجحيمها الذي ينتظره!

* * *

-أنا متأسف جدا على اللي حصل في السكشن..

لم يدر كريم الشرقاوي كيف ساقته قدماه إلى الفتاة التي فقدت وعيها خوفا، ولا كيف قال كلماته المعدودات ولا كيف انصرف دون انتظار تعقيب أو زجر أو ترحيب، لم يكن كريم الشرقاوي من المغرمين بالوقوع في علاقات نسائية أو تستهويه الصداقات مع الفتيات خلال عامه الماضي، لم تكن تحمل روحه أي رغبات رومانسية من التي تؤرق نوم الآخرين ليسهر يفكر فيها حتى مطلع الفجر، فقط كان عقله الباطن يعتقد أنه مدين ببعض كلمات الاعتذار لهذه الفتاة التي يبدو من هيئتها أنها حسنة التربية وبخاصة بعدما احمرت وجنتيها خجلا من كلماته!

* * *

obeikan.com

(٥)

"بتعامل زوجتك وحش وفاكر إنك كده راجل، سيدنا النبي عليه أفضل الصلاة والسلام كان بكل المقاييس أرجل راجل في الكون ولكنه عمره ما عامل زوجة من زوجاته أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن معاملة وحشة، وكذلك فعل سيدنا أبو بكر وعمر.. نسمع بقى الأمثلة علشان تستحي من نفسك.. "

الأستاذ علي عسكر له حضور يأسر الجميع من أهالي القرية.. طوله الفارع وجسمانه القويم يشعرانك بأنه في مقام أعلى منك وإن كان تواضعه المصحوب دائما وأبدا بابتسامة عريضة تكشف لك صفا علويا من الأسنان ناصعة البياض يزيلان معا أي حاجز نفسي بينك وبينه، هو طاقة نفسية وروحية تسير على قدمين، طاقة خلقت لتقود لا لتقاد.

"طلب مني أحد الأخوة قبل خطبة اليوم أن أدعوكم للتبرع لإعادة تجديد المسجد، ولكني أقول لكم وأنا مسئول عما أقول، زينة المساجد تكمن في المصلين، مش في بياض جديد و أشي سيراميك ونجف... بيت الله يكفيه أربعة جدران وسقف يحميكم من المية.. البهرجة سيدنا النبي ما أمرناش بيها، اللي معاه قرش زيادة يصرفه على طفل يتيم ولا أرمله هما أولى بالفلوس دي يا أخواني ورب الكعبة"

يدعونه بالأستاذ علي لوظيفته الحكومية، ولكن الأغلبية عادة ما تلقبه بالشيخ

علي، فهو الشيخ علي عسكر أستاذ اللغة العربية وخريج الأزهر الشريف زينة شباب هذه القرية الكبيرة مترامية الأطراف، هو صاحب الشعر واللحية الحالكي السواد والممشطين في كل وقت وفي كل مكان وكأنه قد ثبتهما في موضعهما بصمغ أبدي، شاربه المحفوف لا يعطي انطباعا لديك بأنه يميني شديد التطرف من كثرة إصراره على البشاشة والتلطف، خطيب مفوه هو وإمام تقي ورع.

"ورب الكعبة لا أجد حرجا في أن نجعل خطبتنا اليوم عن أهمية نظافتنا الشخصية، وأفتيكم فتوى أسأل الله فيها الصواب، أن من اضطر ليقتطع من مال صدقته مالا يشتري بيه مزيلا للعرق يستخدمه خير له من أن يتصدق بماله ويؤذي من حوله برائحته الكريهة المنفرة.. استحموا يرحمكم الله"

مدرس هو بالمدرسة الإعدادية بالقرية، اكتسب احترام كل الأهالي عبر السنين، عرفوه رافضا لأن يعطي مجموعات الدروس الخصوصية لأي طالب في فصل هو بالفعل يدرس به، ما حاجة الطالب للمجيء إليه إذا خارج المدرسة ما دام سيقول فقط كل ما قاله في الفصل دون زيادة أو نقصان!.. يعد ذلك إضاعة لوقت الطالب ومضاعفة لمجهوده بلا طائل، أما الفصول التي لا يدرِّس لها فيقبل حينها أعطاء دروس لطلابها بمقابل مادي لا يذكر مقارنة ببقية المعلمين من زملاءه في المدرسة.

"أني أري في أعينكم رغبة في أن أحدثكم عن السياسة ونفسر مع بعض اللي بيحصل اليومين دول، ولكني ورب الكعبة أرى أن الأصلح للأمة أن نجعل خطبتنا اليوم عن "إتقان العمل".. فلو اتقن كل واحد فيكم عمله من أول الحاكم لحد لا مؤخذة الزبال جزاه الله كل خير فلن نحتاج حينها أن نتحدث في سياسة

ولا اقتصاد ولن نجد فيهما ما يحتاج لتقويم، تقويم الأمة هو الأساس، اتقان العمل ورب الكعبة هو الأساس، ثم أما بعد،... "

كان بقية المدرسين يكرهونه لهذا السبب، وكان هو ينظر لهم باحتقار واضح، هؤلاء الأفاقين الذين يستحلون مرتباتهم من الحكومة دون عناء من أجله أو مجهود!

-أنا بفضل الله عمري ما أدخل بيتي قرش واحد حرام.

يقولها كل واحد منهم في زهو بطريقته عابثا بأصابع قدميه التي تفوح منها رائحة العفن أو وهو يحك فروة رأسه باحثا عن قطعان القمل أو حافرا نفقا في أنفه أو أذنه بأصبعه أو عابثا بسرواله محاولا في يأس ضبط ملابسه الداخلية أملا في بعض الراحة، يقولها كل واحد منهم مخادعين الله وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون متظاهرين بأن المال الحرام لا يأتي إلا عن طريق سرقة أو نصب أو ربا، متغافلين عن قصد وتعمد عن أن المال الذي يأتي من عمل لا يُتقَن هو مال حرام فيصبح مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام!

على عسكر لا يحب أن يخدع نفسه!

على عسكر في آخر كل يوم يقف أمام المرأة محاسبا نفسه ولا يخجل من ذلك، كل ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون.. ولكل ما سبق طلبت زوجته منال ابنة عمه الطلاق منه منذ خمسة أعوام!

إخلاصه في عمله وتحري رزقه الحلال وأخلاقه الحميدة وتدينه كلها خصال

رائعة لا شك بل تزداد روعة باجتماعها في شخص رجل واحد، ولكن لم تكن كل تلك الروائع لتكفي لسد متطلبات زوجته من مأكل وملبس ومأوى.. لن يطعم علي عسكر زوجته منال تدينا محشيا بالفريك أو إخلاصا في العمل مشويا على الفحم مع الكثير من سلطة الطحينة.. لن يلبسها في العيد أخلاقا حميدة جديدة.. لابد له من أن يفعل كأقرانه ويتفنن في نسج شباكه ليصطاد أكبر قدر من الطلاب في دروسه الخصوصية وعليه أن يزيد من أجره في دروس تحفيظ القرآن الكريم!

فليتمسك بكل خصاله الحميدة بعد أن يشتري قيراطا من الأرض يبني علي أغلبها ويترك الباقي كحديقة صغيرة بدلا من هذه العمارة الضيقة، ليتمسك بخصاله النبيلة لا مانع لديها بعد أن يشتري سيارة تليق بهم، ليتمسك بخصاله النبيلة بعدما يضمن مستقبل ابناءه الذين لم يأتوا بعد بتعليم متميز ومبلغ مالي ضخم متضخم بذاته يؤمن زواج ابناءه قبل مولدهم.. ليتمسك بخصاله النبيلة لا مانع لديها بعد سن الستين!

تأخر الحمل عامين كاملين، المال والبنون زينة الحياة الدنيا وهو لا يسحر عينيها بمال يعميها عن البنون، أزداد التوتر بينهما فصار التنائي بديلا عن تدانيهما وناب عن طيب لقياهما على فراش الزوجية تجافيهما وازدادت طباع زوجته حدة وغلظة فأوجدت بينهما شجار متواصل كخلية سرطانية لعينة ما لبثت أن تكاثرت وتضخمت وانقسمت ميتوزيا حتى صارت العشرة بينهما مستحيلة ووجد علي عسكر في نفسه صعوبة إمساك بمعروف ورغبة في تسريح بإحسان، الشيخ محمد الخطيب رحمه الله والذي كان علي عسكر قد أتم علي يديه حفظ القرآن

الكريم جاءه في منامه وربط على كتفه متبسما قائلا: "تسريح بإحسان يا علي يا ابني".. وكان علي عسكر يثق تمام الثقة في أي رؤيا يزوره فيها شيخه الجليل رحمه الله، كما منعه تدينه من إطاعه أمه بإجبار زوجته على طلاق بالإبراء بأن تتنازل عن كل حقوقها الشرعية.

"ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما اتيتموهن" صدق الله العظيم.. مش تذلها وتكسر رقبتها علشان تبريك من كل حاجة وتاكل عليها بالباطل حقوقها الشرعية منك له، أنت لامؤخذة كده بتاكل حقوقها بالحرام.. تسريح بإحسان منك ليه لو فيه في دمك شوية من الإسلام"

فرق بينهما أبغض الحلال الذي أحيانا لابد منه ولا مفر!

لم يكن في الطلاق راحة لباله بشكل تام، وجد علي عسكر نفسه محاصرا تحت ضغوط أمه العجوز لإيجاد زوجة أخرى له عوضا عن طليقته، مثل أمه كمثل أي أم مصرية من المتمتعات بكيد النساء ترغب في انتزاع عيني طليقة ابنها من محجريهما، مثل أمه كمثل أي أم مصرية تسعى ألا تترك ابنها بعد أن يبلغ الحلم ويُخَط شاربه دون زواج حتى تفيض روحه إلى بارئها!

لم يكن على عسكر قد تألم كثيرا من تجربته الأولى، استفاد فقط من هذه التجربة أن طبائعه لا تصلح لأن يتشاركها مع أنثى، ربما لسنوات قادمة، وكان ذلك يغضب أمه أيما غضب، هو يفعل المستحيل ليبقى في المنطقة الآمنة الواقعة في منتصف المسافة ما بين عقوق أمه وأن يظلم معه زوجة جديدة لا ذنب لها في طبائعه.

-روح يا علي يا ابني إلهي ما يريح قلبك زي ما أنت مش مريح قلبي.

قالتها أمه في أيام مرضها الأخيرة في يأس ورجاء عسى الله أن يلين قلب ابنها ويقبل الزواج شراء لخاطرها ولكنه لم يفعل وهي قررت أن تستسلم لمرضها ليحمل ملك الموت روحها إلى بارئها ويحمل أهلها جسدها إلى القبر في قريتها الأصلية المجاورة.

* * *

تواترت الأنباء عن اتخاذ الدولة قرارا بفض اعتصام جماعة الإخوان المسلمين وانصارهم بميدان رابعة العدوية والنهضة، فأخذ الخوف بحماسة يقرض في نهم أجزاء متتالية من روح عبد الجليل وهدان وبخاصة بعدما فقد اتصاله بابنه سعيد منذ يومين، كان الخوف يعصف به خوفا على ابنه الوحيد وصلته الوحيدة والأخيرة التي تربطه بهذه الحياة، لم يكن يملك خيار الموافقة أو الرفض على ذهاب ابنه الصالح إلى الاعتصام الذي بدا منذ بدايته أنه الطرف الأضعف في أي معركة إن وجدت، الشيخ حسن عبد التواب سامحه الله هو الرجل الذي تولى ابنه بالرعاية والإنفاق منذ صباه ولا يملك هو أو ابنه شجاعة لرفض نداءه خوفا على رزقهما من عمل ابنه بالورشة، لذا عندما فقد أي أمل في الاتصال بابنه أو عودة الأخير إليه اتخذ قرارا بالسفر إليه مغادرا المدينة لأول مرة منذ سنوات طويلة مضت قاصدا الاعتصام باحثا عن ابنه حيا أو ميتة بجواره، الإعلام جميعه يتناقل أن ما من شيء سيثني الدولة عن فض الاعتصام بالقوة مهما كانت الخسائر، وإن كان الاعتصام مؤمنا بالذخائر والقذائف والأسلحة الثقيلة مثلما يقول الإعلام فالجيش والشرطة يمتلكان ترسانة الأسلحة القادرة على نسف الاعتصام بالكامل وتحويله إلى ذرات غبار في عدة دقائق!

عندما وصل عبد الجليل وهدان للاعتصام عصر ذلك اليوم الذي سبق الفض، أدرك منذ الدقائق الأولى أن الموت في انتظار الكثيرين، لقد قضى عمرا مديدا بين الموتى وأصبح قادرا على الإحساس برائحة الموت وكآبته، المتواجدين حوله أرواحهم مذعورة خائفة من فكرة الموت وإن بدا على وجوههم عكس ذلك، هؤلاء أقوام سلموا بالخسارة في تلك الجولة وينتظرون فقط قرارا من حاشديهم أن كفوا أيديكم وانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله.. ظل عبد الجليل وهدان يطوف بأرجاء الاعتصام ومحيطه باحثا عن ابنه أو شخص يدله عليه، لم ينم ليلتها حتى الصباح ولم يكن يعلم أن سعيد عبد الجليل بانتظاره في البيت متعجبا من اختفاء ابيه ولا يستطيع أن يصل إليه بعدما فقد هاتفه المحمول في الاعتصام!

قضى عبد الجليل وهدان ليلته بحثا بلا كلل عن ابنه وكأنه يبحث عن سمكة وحيدة في محيط كامل، بعد صلاة الفجر غفت عيناه إرهاقا حين جلس لإراحة قدميه من إرهاقهما مشيا ولم يستيقظ إلا على صوت مكبرات الصوت من سيارات قوات الأمن التي حاصرت الاعتصام معلنة توفير ممرات آمنة للراغبين في الخروج باتجاه شارعي النصر وصلاح سالم ثم ما لبثت أن جاءت إشارة بدء فض الاعتصام عن طريق قنابل الغاز المسيلة للدموع التي ألقتها قوات الأمن على المعتصمين، اقتحم دخان الغاز صدر عبد الجليل وهدان بغير استئذان وهو الذي لم يكن يقوى على تحمل رائحة السجائر فراحت عيناه تبكي بغزارة ويسعل بشدة حتى كاد أن يتمزق صدره، سقط على الأرض وداسته أقدام المعتصمين بغير قصد، تنبه له البعض فحاولوا أن ينهضوه ولكن كانت ساعة الأجل قد حانت

فلم يستطع عبد الجليل وهدان أن يستأخرها ساعة أو بضع دقائق حتى يمهل مسعفيه الفرصة لإنقاذه لتفيض روحه إلى بارئها ويصبح الضحية الأولى لفض الاعتصام!

* * *

-بيتهيألي المكان ده فاضي.

قالتها مداعبة فتاة المشرحة وحملت كتب كريم الشرقاوي التي كان يضعها إلى جواره لتجلس مكانها في المدرج ويرد ابتسامتها بمثلها بعدما غلفها بالكثير من الود.

* * *

الشيخ علي عسكر كان إماما وخطيبا مفوها لأكبر مساجد القرية، إن تحدث صمت الجميع واشرئبت آذانهم تجاهه في إنصات لما يقول، وإن صمت تزاحم الجميع حوله يسألونه في أمر دينهم ودنياهم، كان أكثر ما يميزه هو كتمانه الأسرار، إن حدثه أحد في أي أمر حفر بئرا عميقا لا قرار له وألقى بالسر داخله.. لم ينصب نفسه يوما حكما على أفعال ونوايا البشر، كان يدرك جيدا أن كل ابن آدم خطاء وما من أحد من أهل قريته معصوم فقرر ألا يحتكرن أحدا مهما عظم ذنبه، الله غفور رحيم بقادر على أن يقوّم المخطيء ويهدِ العاصي ويرده إلى صوابه.. كان كقس للاعتراف بلا كنيسة، يراه المذنبون وجها لوجه لا من وراء حجاب، يستمع إليهم بانصات وينصحهم بإخلاص ويودعهم بوجه هاش باش، عبد الكريم صالح الذي سمم بهائم جاره عماد الشناوي اعترف له

بجريمته وجعله الله سببا في دفعه تعويضا لجاره والصلح بينهما فالصلح خير، زكي رجب الذي يخون زوجته مع زوجة جاره الذي لم يسمِّه اعترف له بخيانته وزناه فنصحه، حتى جابر الحلواتي الذي قارب على الأربعين من عمره وصاحب ورشة النجارة الضخمة اعترف له بأنه يمارس الشذوذ وأفعال قوم لوط مع اثنين من نفس سنه بالورشة منذ عقود مضت لم يجد عبوسا بوجه علي عسكر من ذلك بل أخلص له النصيحة ودعا الله له بالهداية كاتما سره!

حتى كان اليوم الذي جاءه فيه الحاج أحمد المصيلحي بعد صلاة المغرب عابسا مغموما فاختلى به على عسكر في أحد أركان المسجد ولم يمهله الحاج أحمد المصيلحي الفرصة ليسأله عن أي شيء حتى تحدث في حزن مفرغا همه الذي يثقله قائلا:

-الواد بقاله ليلتين زي خيبتها يا علي يا ابني، مش عارف يعمل حاجة!

لم يفهم علي عسكر القصد من كلمات الحاج أحمد المصيلحي فبدت على وجهه بلاهة وقورة.

-أول يوم بعد الدخلة عرفت أنه ما عرفش يلمسها.. قولت تلاقيه تعبان ولا حاجة من تنطيت العيال زملاته ليه.. تاني يوم خدني على جنب وحكالي.. طلع مربوط..

فهم علي عسكر المشكلة بتفاصيلها، لم تفلح مع العريس الجديد أقراص الفياجرا ولا أزواج الحمام ولا ذكور البط البلدي المشبع بالدسم، ما إن يقترب من زوجته حتى يفر الدم من عروقه ولا يقدر على مواقعتها، أزمة ليست بنفسية

ولا جسدية تجعل من هذا الزوج منكس الرأس لا يقوى على النظر في أعين الناس وأولهم زوجته!

* * *

اعتاد كريم الشرقاوي منذ بضعة شهور الجلوس على مقهى الشرق، هو مقهى يحتل الطابق الأرضي في أحد الأبنية الحديثة يرتاده العجائز من سكان تلك المنطقة القريبة من المقابر، وقع أسيرا للمكان منذ اللحظة الأولى التي دخل بها المقهى قبل آخر امتحانات العام الماضي طامعا في فنجان من القهوة.

-كوباية ولا فنجان يستاذ؟

سأله حجازي العجوز الذي يعمل بالمقهي، مقهى الشرق هو مقهى ينتمي لفئة المقاهي (البلدية) تماما إن جاز التعبير على عكس المقاهي الحديثة أو ما يعرف بـ(الكافيهات)، هنا طلباته أوامر، الجميع من رواد المقهي يجلسون على سجيتهم بغير تصنع أو تكلف، أنواع المشروبات الساخنة تنحصر في الشاي والقهوة والينسون والقرفة والجنزبيل والسحلب مع إمكانية إضافة اللبن حسب الطلب، أما الباردة فتقتصر على زجاجات المشروبات الغازية والليمون والعناب، عليك أن توضح لعم حجازي أنك لا تسبه إن قررت أن تطلب منه موكا أو هوت شوكليت، سيعتبر كلماتك سُبة له بألفاظ نابية بذيئة خادشة للحياء، في هذا المكان لا صوت يعلو في المساء فوق صوت المباريات وأم كلثوم فقط أما إذاعة القرآن الكريم فيقتصرونها على الصباح وتختلط الأصوات جميعها مع أصوات قشاط الطاولة وارتطام النرد وخبطات قطع الدومينو وصيحات العجائز آمرة

منافسيهم أن يكشوا ملكهم.

هنا شاهد كريم الشرقاوي ذلك الشاب مختار البهنساوي الذي يتحاشاه الجميع، ذلك الشاب صاحب محل الكبدة والحواوشي القريب من المقهى والذي لا يأتي إلا ليشرب الشاي والذي لا يختلف عن البلطجية ومدمني المخدرات في شيء خلقة وخلقا، وهنا شاهد هذا الشاب الصعيدي الذي يعمل في ورشة الشيخ حسن عبد التواب الميكانيكي القريبة والذي يأتي مرة يوميا لينزوي في أحد الأركان مع كآبته وانكسار روحه ليشرب الليمون صيفا والسحلب شتاء!

على هذا المقهى بدأ كريم الشرقاوي يشعر أن له قيمة، مع الأيام بدأ يعتاد على المكان ويحفظ الشخصيات من نداء حجازي عليها باسماءها، بدأ يلقي السلام على الموجودين حين يدخل فيردون عليه سلامه في ود ليس به تكلف حتى جاء اليوم الذي سأله فيه عم حجازي عن اسمه ودراسته وما أن علم بأن كريم الشرقاوي يدرس الطب حتى جعل يحييه في كل مرة يدخل بها قائلا بأعلى صوته:

-أهلا يا دكتووووور كرييييييم.

زاد ذلك حجم اهتمام المتواجدين به، بدئوا يستغرقون معه في نقاشات في السياسة والرياضة والدين، هذا طبيب ولابد أن عقله يزن أطنانا من المعرفة والحكمة التي أهلته لدخول قمة كليات القمة.

أحيانا كثيرة يستشيرونه في أمور طبية أو يأتي إليه أحدهم بتقارير آشعة أو نتائج تحاليل أو محقن من أجل أن يعطيهم حقنة فيها دواء فيه شفاء للناس أو

فيتامينات يأملون أن تزيد من قوتهم.

لا شيء يدعو كريم الشرقاوي للفخر أو الزهو سوى الاعتقاد بأنه قد أصبح له أخيرا في هذه الحياة قيمة حتى وإن كانت وسط العجائز!

في هذا المكان كلمة "دكتور" التي تقال له يودعونها احتراما وتقديرا وليس استهزاءا مثلما اعتاد في أي مكان آخر، في هذا المكان إن غاب يوم أو يومين أغرقوه بالاسئلة عن سبب تغيبه حين يجيء في اليوم التالي، في هذا المكان وجد روحه التي أتعبه البحث عنها فأصبح يكن احتراما وتقديرا لهذا المقهى، بل كان يجعل لباس معين يرتديه يليق بالمقهى، لا بناطيل تتدلى كاشفة عن مؤخرته أو لباسه الداخلي أو ملابس ممزقة عند الركبة عمدا، لا قمصان ضيقة مجسمة على بدنه، لا تصفيفات شاذة لشعره تقل من شأنه، لا سلاسل أو قلائد عادت تزين رقبته، كل تلك الأمور على الرغم من كونها شئونا شخصية لا دخل لأحد بها إلا أنها مستهجنة للغاية من أهل المقهى وزائريه وبخاصة إن كان مرتديها طبيب وليس سائق توك توك!

هذا المقهى أعاد صياغة شخصية كريم الشرقاوي بعد عامه الجامعي الأول المليء بالإخفاقات، غيّر من نظرته تماما للأمور وعليه أن يحافظ على صورة الطبيب التي اكسبته احترامهم!

-الباشا دكتور؟!

لم يكن كريم الشرقاوي يعرف اسم ذلك الشاب الصعيدي الذي يعتزله الجميع وكأنه موبوء ليشرب النعناع صيفا والسحلب شتاءا في صمت ثم يرحل، هو يعرف

أنه يعمل بورشة الشيخ حسن عبد التواب الميكانيكي القريبة ولكنه لا يعرف له اسما وإن كان البعض يناديه بالـ(صعيدي)، لا يعرف أن الجميع يضطهودنه اضطهادا نسبيا بسبب عمله لدى حسن عبد التواب الإخواني الانتماء وموالاته لجماعته المكروهة في الآونة الأخيرة، لو لم يكن ابن عبد الجليل وهدان رحمه الله لطردوه من المقهى بلا رحمة.

اندهش كريم الشرقاوي من وقفة ذلك الشاب أمامه في ذلك المساء وسؤاله له إن كان طبيبا بالفعل كما يقول الآخرون، إن كان هذا العتي في حاجة إلى طبيب، فالآخرون في حاجة إلى الدفن فورا!

-آه بس لسه بدرس.

توقع كريم الشرقاوي أن يطلب منه استشارة طبية في مغص أو قيء أو صداع أو ألم ألمَّ بظهره ولكن سعيد عبد الجليل فاجئه بأن فك قطعة القماش التي يلف بها راحته اليمنى ليكشف له عن جرح غائر ملوث بزيوت التشحيم فاتسعت حدقتا عيني كريم الشرقاوي من المشهد الذي قد لا يحرك شعرة عند أي طبيب في استقبال الطواريء، كريم الشرقاوي طبيب غير كامل النضج بعد!

-من أمتى الجرح ده؟!

سأله كريم الشرقاوي ناهضا في فزع ممسكا بيد سعيد عبد الجليل ليمعن النظر في الجرح بدقة فلاحظ حينها ارتفاع درجة حرارة الأخير، هذا مريض يركض بحماسة نحو هاوية الحمى!

لم ينتظر كريم الشرقاوي ردا وطلب منه أن يتبعه واصطحبه مسرعا نحو سيارته

المركونة أمام المقهي، لم يكن كريم الشرقاوي يرغب في أن يؤرق نومة العاملين في استقبال المستشفى العام فقاد سيارته صوب المستشفى الخاص القريب، طلب من التمريض في المستشفى تطهير الجرح وخياطته وأعطاء سعيد عبد الجليل محقن للوقاية من التيتانوس ويعقبه مضادا حيويا وخافضا للحرارة ثم أوصله بنفسه إلى بيته بجوار المقابر بعد أن تكلف بمصاريف العلاج كاملة دون أن يقبل أن يدفع سعيد عبد الجليل ولو قرشا واحدا!

عاد كريم الشرقاوي في النهاية لبيته سعيدا لاكتشاف هذا القدر من الشهامة بشخصيته منبهرا بما فعل!

* * *

كان لزيارة علي عسكر مفعول السحر على العروسين الذين غاب عنهما التوفيق في أيام وليالي زواجهما الأولى، سبع أوراق من شجر النبق دقت بحجر وجعلها في إناء وصب عليه من الماء ما يكفي لغسل، وقرأ في الإناء آية الكرسي وسور الكافرون والإخلاص والمعوذتين، وآيات السحر في سورة الأعراف ومن الآية ٧٩ حتى ٨٢ في سورة يونس، ومن الآية ٦٥ حتى ٦٩ في سورة طه، ثم شرب العروسان من الماء ثلاث مرات واغتسلوا بما تبقى.

كان ذلك كافيا جدا لفك عقدة هذا العريس الذي ربطه الملاعين أولاد الحرام من جيران السوء، لا شك أن هذه الجارة الشمطاء أم أيمن منتفخة العجيزة التي تقترب شكلا وحجما من الغوريلا هي من ربطته بعدما حول بُصلة عينيه عن بناتها اللاتي لم تختلفن عنها كثيرا ليؤكدن المثل الذي ينتهي بـ"تطلع البنت

لأمها"!

يضحك كثيرا علي عسكر كلما تذكر أن أشرف الشبيه بالبرص أصبح مطمعا للنساء!

سعادة أبيه وأمه وهما يطربان لصرخات زوجة ابنهما وتؤهاتها في غنج دفعتهما للتفاخر ببركات الشيخ علي عسكر وقواه الأزهرية التي أعطت ابنهما قوة وفحولة كجني جبار وجد نفسه عاريا في حمام عمومي تستحم فيه الأنسيات!

ما هي إلا أشهر معدودات حتى وجد علي عسكر عمدة القرية الحاج صالح مكاوي يطلبه للحضور فورا في جنح الليل دون انتظار للشمس أن تشرق، ليتسائل علي عسكر عن الشخص الذي أتته الشجاعة ليربط العمدة!

obeikan.com

(٦)

كان شعبان الدسوقي يقف في شرفة شقته يدخن سيجارة الحشيش الصباحية قبل أن يبدأ في قيادة توك توكه طلبا لرزق حلالا كان أو حراما، كان قد كف منذ فترة عن تدخين الحشيش خلال أوقات عمله الرسمية على التوك توك بعدما تشاجر في المرة الأخيرة مع إحدى الراكبات التي رفضت تدخينه للحشيش أثناء ركوبها ليكتشف في النهاية بعدما أوصلها أن أخاها ضابط بالجيش وذلك بعدما أعطاه درسا لن ينساه طوال حياته إذ تعامل معه كأنه أحد العناصر الخطرة التابعة لتنظيم بيت المقدس!

مع أنفاس السيجارة الأخيرة رأي أم مختار البهنساوي خارجة إلى الشارع ذاهبة للتسوق، فاليوم يوم الأثنين، ذهب إلى شقة مختار البهنساوي صديقه يسأله استعارة قرصين من الترامادول المغشوش يخرس آلامه، فطرق الباب وما مضت ثوان معدودة حتى فتحت له سهير أخت مختار البهنساوي الباب معتقدة أن هذه أمها وقد نسيت شيئا ما لتفاجيء بشعبان الدسوقي بدلا من أمها!

-هو... هو ميخا موجود؟!

حملق شعبان الدسوقي في سهير البهنساوي وجسدها إذ تقف أمامه مرتدية جلبابا من القماش الخفيف بلا مشد للصدر أسفله وقد ابتل كله بالماء فالتصق بجسدها الذي يبدو في هذا الصيف لا يخفيه غير هذا الجلباب، سرت قشعريرة

في جسد سهير البهنساوي من هذا الإعجاب المشبع بالشهوة الذي يطل من عيني شعبان الدسوقي وقد أعماه الحشيش عن قبح وجهها!، لابد أن العمل بالعشق الذي صنعه لها الشيخ الدجوي ورشته لسبعة أيام على عتبة بيت شعبان الدسوقي فجرا قد بدأ يؤتي ثماره، لن تتزمر ثانية من أفاعيل الشيخ الدجوي حتى وإن تحسست يده نهديها مرة ثانية كما فعل في المرة الأخيرة.

-اتفضل يا خويا اتفضل.. ميخا شوية وهييجي.

قالتها سهير البهنساوي وقد عادت أغنية شادية لتتردد في أذنيها وقد كانت تتمتم بها منذ دقائق..

"مين قالك تسكن في حارتنا

تشغلنا وتقل راحتنا

يا تشوفلك حل في حكايتنا

يا تعزل وتسيب حتتنا"

دخل شعبان الدسوقي شقة صديقه في غير وجوده ممعنا النظر في مؤخرة سهير البهنساوي التي جعلتها تهتز أمامه قدر المستطاع عن عمد ومع سبق الإصرار والترصد.

-تشرب إيه يا خويا؟

قالتها سهير البهنساوي في دلال وغنج منتشية بنظراته التي تشعر بها تتحسس لحمها الذي خشيت أن يتيبس فاقدا الأمل في أن يجد من يُلين صلابته!

obeikan.com

-ما تجيبلنا كوزين بيرة.

قالها شعبان الدسوقي بلا وعي وعيناه معلقتان بجسد سهير البهنساوي أخت صديقه لا تبرحانه.

-هيء هيء هيء.

ضحكت سهير البهنساوي أخت صديق شعبان الدسوقي ضحكة رقيعة أسالت الدماء المتجمدة في عروق شعبان الدسوقي فانقض عليها مستخدما معها جميع أعضائه القابلة للحركة وهي تضحك سعيدة متصنعة التمنع وهي أشد الراغبات حتى التصقا واختلطا وتداخلا كأي زوجين سعيدين!

الأم في السوق تتعارك مع البائعة تفاصلها في ربع الجنيه ولا تدري بما يحدث!

مختار البهنساوي يزيد التوابل على الكبدة كي لا يُفضَح فسادها ولا يدري بخيانة الإخوة!

* * *

أنباء زيارة علي عسكر السرية لبيت العمدة تناقلتها القرية لأيام تالية.. مصر جميعها لا تعترف بحفظ الأسرار.. الجميع يتحدثون عن بركات الشيخ علي عسكر الذي فك ربطة ابن العمدة الأصغر، يتحدثون عن تمتمته بكلمات لم يسمعونها ولم يسمعها العمدة أو ابنه الأصغر أو عروسه..

"علي عسكر أزهري ولابد أن الأزاهرة المتعمقين في أزهريتهم يعلمون أسرار السحر الحلال"

كان هذا لسان حال أهل القرية ومنطقهم الساذج لتفسير الأمر، أما علي عسكر فكان يبتسم من سذاجتهم المفرطة غير مهتم بما يدعون!

لم ينتظر العمدة انتشار خبر فشل ابنه في ليلة زفافه ودلّه أخوه على شيخ مسجدهم الكبير علي عسكر ببركاته التي يتحدث عنها الجميع والذي فك ربطة أشرف ابن أحمد المصيلحي فأسرع العمدة يرسل في طلبه، فأشرف علي عسكر على ما فعله ابن العمدة كما فعل مع أشرف المصيلحي سابقا، ولكن العمدة أقسم وأغلظ الإيمان ألا يرحل علي عسكر من دون رقية العروسين، بل صمم أن تكشف العروس شعرها ويضع علي عسكر يده الطاهرة المباركة فوق رأسها الضئيل رافضا أي مبرر ديني ساقه علي عسكر لرفض مس أمرأة أجنبية لا تحل له!

-جرى إيه يا شيخ علي.. ما تغلبنيش معاك أمال.. وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم يا مولانا.

صدع علي عسكر بما يؤمر من عمدة قريته واعتبر نفسه ممن اضطروا في مخمصة غير متجانف لإثم راجيا الله متضرعا ألا يكون هناك إثم عليه واضعا يده فوق شعر العروس الهائش الذي لم يمسسه ماء منذ خرجت من عند مصفف شعرها وقد رأى في عينيها رغبة مفضوحة في أن تتحول من بنت إلى امرأة بفضل بركات هذا الشيخ التقي الورع.

في اليوم التالي مباشرة كان العمدة بذاته يطرق باب علي عسكر مع أربعة من رجاله مهاديا بقفص يعج بأنواع الطيور وأكياس بها بعض من لحم العجل

المذبوح لتوه مع الكثير من أنواع الفاكهة، وصندوق خشبي متوسط الحجم، وصينية ضخمة عليها ما لذ وطاب من أصناف الطعام تجندل روائحه الذكية أشد الناس ذهدا، ترك مرافقيه حملهم الثقيل وغادروا تاركين عمدتهم مع علي عسكر.

-إيه ده كله يا حضرة العمدة.. مالوش لزوم.

قالها علي عسكر في حرج حقيقي ولم يكن يشعر بأي سرور في الأمر.

-جرى إيه يا مولانا.. ده أقل واجب.

قالها العمدة رابطا على كتف على عسكر في ود بالغ مستطردا:

-أنا مش هقدر أقعد عشان مستعجل.. الصندوق الخشب الصغير ده مليان كتب هدية مني ليك يمكن ينفعوك.. ده كان عند الشيخ متولي.. أنت ما تعرفهوش.

-مش هو ده اللي..

-أيووه.. ربنا يحفظنا.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هو.. المهم أبويا الله يرحمه هو وأهل البلد لقيوا الكتب دي عنده.. وأنا فضلت محتفظ بيها من بعده.. ولا عمري فتحتهم.. بس بما أنك راجل دين وعلم وبركة قولت اجيبهالك تنفع بيها الناس يا شيخ علي.. أنت من نسل طاهر لا يمكن يضر حد أبدا.. أفوتك بعافية بقى..

ورحل العمدة سريعا غير معط الفرصة لعلي عسكر ليقدم له أي واجب للضيافة، أغلق علي عسكر الباب وسرح بناظره في كل أنواع الهدايا والعطايا التي هل

عليه بها العمدة.. ثم سحبته أنفه سحبا نحو الصينية الكبيرة التي ينبعث منها رائحة ذكية لطعام طهي في الفردوس الأعلى على أيدي الحور العين، رفع قطعة القماش كاشفا دون استئذان ستر الصينية ليمتع عينيه بطبق الفتة الكبير بلحمومه وأرزه الأبيض والبطة المشوية التي تعانق دجاجة فيتصاعد منهما أبخرة النشوة طاهيا الأرز بالخلطة بداخلهما فيسيل لعاب علي عسكر على كفتة اللحم المطبوخة وصينية البطاطس الخارجة لتوها من الفرن.. تبا للعمدة.. لم ليس لديه أبناء آخرين ليحل مشاكلهم الجنسية ويظل طوال عمره في هذا النعيم المقيم!

انتزعته من جنة خيالاته نظرة عابرة حيث الصندوق الخشبي الصغير المتخم بكتب الشيخ متولي الذي سمع من كثيرين عن ميتته الشنيعة عاريا كيوم ولدته أمه مبقور البطن وأعتى علامات الهلع حفرت على وجهه.

ابتلع علي عسكر ريقه بصعوبة واستعاذ بالله من شيطانه الرجيم محاولا طرد هذه الأفكار من رأسه أملا في الارتقاء ثانية لجنة نعيمه ليستمتع بهذا الطعام بلذة وشهوة تفوق لذة وشهوة الجنس الذي حُرِم منه منذ سنوات!

* * *

ديسمبر ١٩٨٧

يدرك جيدا عبد الجليل وهدان أن سعاد لم تعد كما كانت، تلك أمور يسهل بشدة اكتشافها، بل يمكنه بسهولة تحديد الفترة التي بدأ معها تغير معاملة سعاد زوجته معه، هي بلا شك الفترة التي تلت وفاة أمه منذ سنة وشهرين، يقر بينه

وبين نفسه بتقصيره في حقوقها الزوجية لمدة تجاوزت الشهور التسع بعد وفاة أمه، وكم حاولت سعاد إخراجه من حزنه عن طريق إفراغ طاقاته السلبية عن طريق الجماع ولكنه كان يرفض، كيف تظن هذه الحمقاء أن عساه ينسى أمه بهذه السهولة، هذه الأم العظيمة التي تحملت وصفها بالأرض البور من جميع أهل القرية في السر والعلن حتى رزقها الله به وهي على أعتاب الخمسين من عمرها ليأت لهذه الحياة بعد صبر فاق صبر أيوب النبي لتربيه أمه بعدما فارق ابوه الحياة بعد ولادته ببضعة سنوات!

هذه الأم الصعيدية العظيمة التي ربته خير التربية واستطاعت أن تجمع في تربيته بين حزم الأب وحنان الأم، تريده سعاد أن ينساها بهذه السهولة ويتعرى لينام معها متمتعا بأهاتها ودلعها وغنجها ناسيا أمه!

كان يدرك منذ أول يوم في زواجه أن سعاد زوجته يصعب إطفاء شهواتها وإرضاء رغباتها الجنسية بسهولة حتى بجسمانه صعيدي البنية الذي لم تكن قد نخرت فيه هرمونات الدجاج الأبيض وأذاب صلابته السمن الصناعي، وحينما مرت الأيام وخلخل النسيات صلابة جدار الحزن الذي يسد الطريق لعقله وقلبه عاد مرة ثانية ليباشر واجبات الفراش ليكتشف تدريجيا أن التربة الرملية تحولت لتربة طينية ترتوي بقليل الماء!

حاول كثيرا أن يأد الشكوك التي تتقافز في استفزاز متعمد أمام عينيه محاولة السيطرة على عقله المحب لزوجته ولابنه الوحيد، أنت يمكنك أن تتقبل فكرة وجود ذبابة في غرفتك رغم ضيقها ولكن لن يمكنك تجاهل أسراب الذباب التي تتجمع في تحد على فراشك وعلى سقف غرفتك وجدرانها، أصوات طنين

أجنحتها وحدها كافية بأن تصيبك بالجنون من دون أن تمسسك، وهكذا كانت الشواهد تتجمع لتتكامل أمام عينيه، النظرات التي تلتهمه جيئة وذهابا من أهالي القرية ما بين نظرات استحقار ونظرات استياء ونظرات شفقة!

الأحاديث التي تنقطع فجأة بين أصحابها حين وصوله لمقهى صبحي الدندراوي على مدخل القرية أو حين مروره في طرقات القرية الصغيرة في طريقه لأرضه أو لداره المبني على أطراف القرية!

يضيق بكلمات العتاب واللوم والزجر الصامتة التي يراها تنحشر في حلوق محدثيه لا تبرح أفواههم وتصرخ بها أعينهم!

سلوك الزوجة المثير للريبة ونظراتها المتقلقة وعدم إبدائها الاستياء أو التذمر من سهره على مقهى صبحي الدندراوي كل ليلة من بعد صلاة العشاء وحتى منتصف الليل!

كل تلك المؤشرات لم يرد عبد الجليل وهدان أن يترجمها لحقيقة واحدة جامعة شاملة تلخص الموضوع برمته، حتى جائت تلك الليلة حين همس الشيخ عبد الرحمن حجازي بكلمات قلائل في أذنه.

-خد بالك من أهل بيتك يا عبد الجليل.

قالها في عتاب وانصرف، ولم يكن عبد الجليل وهدان ليفكر في تلك الجملة كثيرا لولا تلك الشكوك التي تقافزت جميعها أمام ناظره وهو يشرب الحلبة في أحد أركان المقهى وحيدا مع أنفاث المعسل.

الشك أمسى كأرجل صرصور ضخم تحتك بقاع جمجمته وهو يعود لداره غير

openkan.com

مسرع ولا مبطيء، يقدم قدما ويؤخر أخرى عابرا شوارع القرية التي خلت من أهلها في هذا الوقت من ليل الشتاء المطير حتى وصل إلى داره ببابه الموصد من الداخل وهو أمر أمسى مستحدثا منذ وفاة أمه التي كانت تفترش الأرض على مدخل الدار حتى عودته، طرق الباب بعنف حتى أتاه صوت سعاد مرتعشا من الداخل سائلا عن الطارق وعندما علمت أنه هو القادم فجأة قبل موعده المعتاد بساعات، فتحت له لتستقبله بوجه شاحب وقطرات من العرق تفصدت من جبينها وبلل شعرها ليحيله لكتلة من العجين، الجلباب الخفيف الذي ترتديه في هذا الليل القارص والارتباك الذي يفضح ما تحاول أن تخفيه جعلت الشكوك تتجسد حقائق في عيني عبد الجليل وهدان..

-خد بالك من أهل بيتك يا عبد الجليل.

تفوه الشيخ عبد الرحمن بركات بالكلمات التي عجز بقية الرجال الذين يهتمون لأمره عن نطقها، خطى خطوات قلائل إلى داخل الدار ونظر في عينيها نظرة جمدت الدماء في عروقها، الدماء في عروقه على النقيض بركان يغلي لتتقافز الحمم متناثرة واضحة جلية في بياض عينيه الذي استحال للون الأحمر، لم يكن الموقف يحتاج لكلمات، توجه إلى غرفة نومه الواسعة الرحبة باحثا عن رجل سيصبح بين يديه جثة لا حياة فيها فلم يجد شيئا، سعاد تتبعه بجسد بلا روح وقد هربت من جسدها علامات الحياة صامتة كقبر.

خرج مرة ثانية لردهة الدار ليلمح طيف رجل يجري خارجا من باب داره مغلقا الباب خلفه وموصدا المزلاج الخشبي الكبير من الخارج.. لحظات معدودات كانت كافية ليدرك عبد الجليل وهدان حقيقة احتباسه في داره.. التفت إلى

obeikan.com

سعاد وقبض بقسوة على شعرها ولفه حول قبضته.. هذا الشعر القذر الذي تفوح منه ومن صاحبته رائحة عرق الزنا، هذا الشعر الذي كان منذ دقائق منسدلا على صدر رجل قذر آخر حبس منذ قليل عبد الجليل وهدان وسعاد في دار واحد، سعاد تلك الفريسة التي لن تُمنَح فرصة للإفلات من أنياب زوجها الموتور، جعلت سعاد تتمتم بكلمات غير مفهومة وتبكي وتنتحب ويتعالى صوت نشيجها وعبد الجليل وهدان يجلدها بغير رحمة بسياط نظراته، لقد فر النذل الجبان الذي وعدها بالحماية وتركها وحيدة، لحظاتها الأخيرة مرت بطيئة وهي تتلقى صفعات زوجها وركلاته وتتابع قبضتي يداه وقدميه على جسدها ثم جاءت نهايتها التي فقدت القدرة على استيعابها وراحتا عبد الجليل وهدان تعتصران حلقها بقسوة وغل زوج تدمي روحه الخيانة حتى فارقت الحياة جسد سعاد النجس!

-خد بالك من أهل بيتك يا عبد الجليل.

تلك هي مشكلة المرأة التي تتاجر بشرفها وتلوثه وتجعله مداسا لأحذية الرجال، لم تنتبه سعاد إلى أن هذا هو الأمر الوحيد الذي يستحيل أن يظل سرا بينها وبين زبائنها، ما من رجل يواقع أمرأة في الحرام مستمتعا بجسدها يفعل به ما يشاء ويلهو به كيفما يحلو له ويُبقى الأمر سرا بينه وبينها، لابد من أن يتفاخر بانتصاراته المحرمة وفحولته الغاشمة مع هذه المرأة الآثمة أمام أقرانه.

"أنا هذا الفحل الذي ظفر بهذه العاهرة الرخيصة وألبس زوجها عمامة العار"

يعلنها كل خائن في زهو، فيحاول أقرانه تباعا مراودة عشيقته عن نفسها،، تلك بضاعة لا صاحب لها لابد من الاستمتاع بها، وعبد الجليل وهدان لا يدرك بعد أن هذا الرجل الذي أفلت منه وإن كان الأخير فلم يكن الأول الذي يستبيح حرمة هذا البيت!

* * *

obeikan.com

(٧)

في عصر اليوم التالي بعد الجامعة وجد كريم الشرقاوي نفسه داخل سيارته أمام بيت سعيد عبد الجليل حاملا كيلو من الكفتة ودجاجة مشوية مع الكثير من الخبز والسلاطات، ارتجل من سيارته وطرق الباب ولم تمض دقيقة حتى وجد سعيد عبد الجليل أمامه مندهشا من مقدمه.

-أهلا وسهلا يا دكتور!

-يا عم اسمي كريم.. وبعدين أنت هتفضل موقفني على الباب كده؟!

تنبه حينها سعيد عبد الجليل إلى المعاملة الباردة التي يلقاها ضيفه على عكس ما يستحق، فاعتذر له بشدة ودعاه إلى الدخول، فدخل كريم الشرقاوي البيت البدائي الذي لا يحوي أي نوع من أنواع الأساس الآدمي وجال ببعينيه في الغرفة اليتيمة ودورة المياه الملحقة بها فلم ير إلا فقرا فَرِش فقرا وهو الذي لم يعتد يوما مثل تلك العيشة!

-لا مؤخذة يا دكتور المكان مش قد المقام.

قالها في حرج سعيد عبد الجليل منتشلا ضيفه من أفكاره معلنا أنه يفهم ما يدور الآن بخلده، فحاول ضيفه تلطيف الأجواء متصنعا التواضع والبساطة وافترش الأرض وكأنه لا يجد أي نفور في ذلك.

-يا عم تعالى ناكل لقمة.. انت فاكرني جاي من سويسرا!

جلس سعيد عبد الجليل إلى جوار ضيفه بعد جدال راضخا لطلبه وبدئا الأكل سويا وكريم الشرقاوي يؤخر أكله ويتظاهر بالأكل وسعيد عبد الجليل يبتلع الطعام بغير مضغ وهو لا يكف عن ترديد جملتي " لا مؤخذة المكان مش قد المقام" و "تعبت نفسه ومكلف نفسك ليه يا سيادة الدكتور"!

فرغ سعيد عبد الجليل من الطعام بعدما أتى عليه بالكامل فتطوع كريم الشرقاوي بإعداد الشاي بعدما أقسم وأغلظ القسم بأن ما من أحد سيعده غيره.

-أمال أنت عايش لوحدك ولا إيه يا سعيد؟!

أطرق سعيد عبد الجليل برأسه في حزن على أثر سؤال كريم الشرقاوي ثم حدثه بأسى عن أبيه وما جرى له وما عاناه من عراقيل حتى استلم جثته من مشرحة زينهم وكيف وافق مرغما على طلبهم بتدوين سبب الوفاة (انتحار) حتى يفرجوا عن جثته ويستخرج له شهادة وفاة وتصريح بالدفن، ثلاثة أيام رقدها ابيه بثلاجة المشرحة، هو لحاد وابن لحاد وأكثر من يعرف بأن إكرام الميت دفنه وما من شيء يضر الشاة بعد ذبحها ولن يحاسبه الله على انتحار دُوِّنَ ظلما في شهادة وفاة وهو العلام العليم لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

-بس أنت يا سعيد مش من هنا؟!

-أنا من سوهاج.

-وما فكرتش ترجع الصعيد تاني ليه طيب؟!

-أنا اتربيت هنا طول عمري وما اعرفش حد في الصعيد يا دكتور، مقطوع من

obeikan.com

شجرة.

كذب سعيد عبد الجليل وهو الأعلم بالحقيقة، فهو يعرف جيدا قريته التي عاش بها سنواته الأولى ويعي تماما كل تفصيلة بدارهم القديم بفرنه الفلاحي الذي أذكت ناره سنينا أقراص روث بهائمهم ويعي أرضهم التي صحبه أبيه إليها مرارا، يعي حظيرة ماشيتهم التي تلقى من إحدى بهائمها ركلة تركت جرحا بجبهته لا زال يرى أثره حتى اليوم، يتذكر جيدا أمه مثلما يتذكر جيدا الرجال الذين كانوا يأتون إليها في دارهم في غير وجود ابيه ويتذكر نظراتها الزاجرة له مهددة إياه في صمت متوعد إن فكر في إفشاء أسرارها التي يعلمها كل أهل القرية دون ابيه.

يتذكر سعيد عبد الجليل تفاصيل اليوم الأخير في حياة أمه حين أنهى ابيه حياتها لتصعد روحها النجسة إلى السماء، يتذكر تلك الليلة التي قضاها أبوه بأكملها يحفر أول لحد في حياته بحظيرة الماشية ليرقد به جثة زوجته النجسة الملطخة بإثم وعار الخيانة أسفل روث البهائم.. ذلك المكان الوحيد الذي يليق بها وبإثمها.

يتذكر برودة نسمات الفجر الأولى حين اصطحبه أبوه معه إلى وجهة لا يعلمانها متنقلين بين قطارات عدة حتى وصلا إلى تلك المدينة، يتذكر الشيخ هاشم اللحاد الذي وجدهما نائمين بجوار المقابر واصطحبهما لداره ليبيتا ليلتهما معه واستبقاهما معه ليؤنسا وحدته وقد كان قد بلغ من العمر أرزله، يتذكر سعيد عبد الجليل كل تلك التفاصيل بدقة وكأنها حدثت منذ ساعات قلائل ولكنه لم يحدث يوما بها أحدا ليضيق بها صدره.

لم يفتح سعيد عبد الجليل الموضوع مع ابيه قط ولم تكسبه تلك الزكريات سوى كره النساء.. أمه التي افترض فيها أن تكون الأطهر والأنقى في حياته كانت في الحقيقة زانية باغية آثمة، كيف له أن يثق في أي أنثى أخرى من النساء، كان يرى كلما تقدم في السن أن أباه فعل الصواب بل يوقن أن أباه لم يقتله إلا لكونه يشبهه تماما فتأكد أنه من صلبه لا من ماء رجل آخر، رحيم أبوه للغاية إذ استكفى بقتل أمه دون أن يصليها عذابا في الدنيا يسبق عذاب الآخرة!

-تعرف إن أنا زيك بالظبط!

واسترسل كريم الشرقاوي في الحديث عن نفسه وعن الوحدة القاتلة التي يعانيها، شكى له الأب والأم الذين اختارا أن يكملا حياتهما مع ابنتهما الصغرى بعيدا عن مصر ويتركاه فيها وحيدا بلا أقارب يهتمون لأمره ولا أصدقاء يشاركهم همه!

حدثه كريم الشرقاوي عن سعادته البالغة وسط رواد المقهى الذين تعرف عليهم مؤخرا حيث وجدهم سريعا يهتمون بأمره ويجد معهم راحته، وحدثه عن سعادته الغامرة في تلك اللحظة وهو يجلس معه يتشاركان الحديث والطعام كأصدقاء، بل كان سعيد عبد الجليل هو الوحيد الذي حكى له كريم الشرقاوي عن محاولته الانتحار أكثر من مرة وعن تراجعه دائما خوفا من الألم في اللحظات الأخيرة لا خوفا من عذاب الآخرة!

تعجب كريم الشرقاوي في البداية من لهجة سعيد عبد الجليل ومخارجه الغريبة للحروف فتخرج الكلمات في مياعة أنثوية، ثم سرعان ما أدرك أن ذلك بسبب عدم رغبة سعيد عبد الجليل التحدث بلهجته الصعيدية ولي عنق الكلمات لتخرج

بلهجة المدينة.

استأذنه كريم الشرقاوي في الانصراف وطلب منه الإذن في أن يأتي إليه ما بين الحين والحين لتشارك الحديث والطعام وهو ما جعل سعيد عبد الجليل مرحبا تائها بين مشاعر متناقضة ما بين سعادته بهذا الصديق النظيف الهيئة والأصل وما بين دهشته من غريب طبعه!

وهنالك توطدت صداقة بين سعيد عبد الجليل وكريم الشرقاوي وياليتهما ما تصادقا!

* * *

اسمها لويزا.. فتاة المشرحة التي بدأ كريم الشرقاوي يميل إليها كثيرا.. شعرها المكشوف الذي لا يتخفى وراء حجاب واسمها كانا كافيين ليبتعد عنها قليلا كريم الشرقاوي خوفا من اتهامات قد توجه إليه بإشعال فتنة طائفية.. شأن جامعته كشأن بقية الجامعات الإقليمية البعيدة عن قلب القاهرة، في هذه الجامعات الإقليمية من المتعارف عليه أن من تكشف شعرها متخلية عن الحجاب يعتبرها الأغلبية فورا بأنها مسيحية حتى يثبت العكس وذلك لأن أهل هذه المحافظات ممكن يعتقدون أن الحجاب عماد الدين للمرأة والفريضة الأولى والأخيرة للنساء في الإسلام هي الحجاب، فمن التزمت به كانت من أهل الإسلام ومن تخلت عنه ظنوها تدين بأي دين غير دين الإسلام، وإن كان اسمها لويزا فالأمر لا يدع مجالا للشك ها هنا.. لكن المفاجأة كانت عندما قرأ اسمها عندما أضافته إلى حسابها الشخصي على موقع الفيس بوك..!

"لويزا الرفاعي"!

obeikan.com

كان قد قرأ مرة أن الرفاعية هم طريقة سنية صوفية وبالبحث المستفيض وجدها تُنسب إلى الفقيه الشافعي الأشعري، أحمد بن علي الرفاعي الملقب بـ "أبو العلمين" و"شيخ الطرائق" و"الشيخ الكبير" و"أستاذ الجماعة". وقد اشتهر عن بعض أتباع الرفاعي حديثا القيام بأفعال عجيبة كاللعب بالثعابين، وركوب الأُسود، والدخول في النيران المشتعلة دون أن تحرقهم أو تؤثر فيهم، وغيرها، فهذه مما لم تكن معروفة عند الشيخ الرفاعي، لكنها استُحدثت بعد وفاته. إذا الرفاعي أغلب الظن هي عائلة مسلمة ظاهريا، ولكن ما الذي يمنع أن يكون لقبا لعائلة مسيحية أعجبها اسم (الرفاعي) أو أن تكون عائلة مسلمة قد تنصّرت!

كل تلك الهواجس نفتها تماما لويزا الرفاعي في إحدى المرات عندما سألها كريم الشرقاوي في تخابث عن اسمها بالكامل وكان أسهل له أن يقرأ اسمها في قوائم الطلاب ليعرف!، ولكنها ضحكت ضحكة صافية من ضحكاتها التي تجود بها روحها العذبة والتي تبعث على التفائل قائلة:

-مش مسيحية يا كريم.. لويزا محمد رزق الرفاعي، ولو مسيحية أنا شايفة أن ده عمره ما يقلل مني على فكرة.

حكت له حينها عن ابيها الذي أعجبه الاسم في شبابه فقرر أن يسميه لابنته إن رزقه الله بإبنة رغم معارضة أمها ورفضها المستميت، أخبرته أمها أن الناس سيظنونها مسيحية وبخاصة أن أغلب هذا الوطن يعاني بشدة من عنصرية بغيضة تدفعهم لاضطهاد كل من يختلف معهم في لون أو دين أو عرق أو جنس.

-طب وأنا مالي ومال الناس، وبعدين هو الواحد لو مسيحي دي بقت تهمة؟!

هكذا جاء رد ابيها قاطعا الطريق أمام اعتراضات أمها وأهليهما.. لو رأى أبيها أن رفض أمها ينبع من قناعة شخصية لاستجاب لطلبها، ولكنه دائما وأبدا يرفض أن يتخلى عن أفعال يرغبها رضوخا لرغبة الناس!

حدثته عن ابيها الذي يتهمه البعض بأنه ليبرالي الفكر وأحيانا يتهمونه بالعلمانية، وذلك اتهام جد خطير في تلك الأيام التي كان الغلبة حينها للأصوليين، تهمة كفيلة وحدها بإلقاءه في غياهب السجون أو نبذه والنفور منه وكأنه الطاعون!، ولكنه يصارحها هي فقط بأنه لم يكن يوما علمانيا وإنما رجل يعرف دينه حق المعرفة ويخاف الله ويحب رسوله ويلتزم بواجباته كمسلم موحد بالله ولكنه يستعمل عقله فقط في أي أمر ديني أو دنيوي كما أمره الله ورسوله.. حدثته عن عدم إجبارها على ارتداء الحجاب وعن موقفه الذي لن تنساه في وجه مديرة المدرسة الإعدادية التي كانت تجبر الطالبات عنوة على ارتداء الحجاب وكيف لم يرضخ لأوامرها واشتكاها بمديرية التربية والتعليم حتى نال ما أراد.

-بس الحجاب فرض على فكرة.

-بص يا كريم أنا مش هجادل معاك هو فرض ولا لأ، بس Even لو فرض، هو أنت ملتزم بكل فروض الإسلام يعني؟، وبعدين احنا بنحب اللي يضحك علينا ليه؟.. هي الطرحة على الجينز والبادي بقت حجاب، ولا التربون حجاب؟.. ولا حتة القماش اللي هحطها على شعري وأبيّن نصه حجاب؟ ولا إيه رأيك في اللي بيحط طرحة زي الفل على شعره وبيعري لسانه؟!

سألته لتخرسه وهو الأعلم بإجابة سؤالها، ليس ما ذكرته حجابا ولكن ذلك لا

ينفي اقتناعه التام بفرضية الحجاب الصحيح، لم تكن لتقتنع بأدلته الفقهية فآثر الصمت ولكنها استطرد لتسأله:

-وبعدين يا سيدي لو فرض ربنا هو اللي هيحاسبني، أنت تحاسبني ليه أو يخصك في إيه الموضوع ده؟

-الدين النصيحة.

-يا واد يا مؤمن.. لما تلتزم بكل فروض دينك يا كريم تعالى انصحني.

طلبت منه يومها أن يحترم اختلافاتهما الثقافية إن كان يرغب الحفاظ على صداقتهما، وإن كان موضوع رأيها في الحجاب يزعجه فليتعامل معها على أنها من أي ديانة آخرى ولسوف يجد بنفسه قد أصبح واضعا للأصفاد على فمه راضيا قانعا لا يجروء على التدخل في حرياتها الشخصية، ظنه وغيره بها لن يؤثر في علاقتها مع خالقها إن ظن كل الناس بها الظنون!

كريم الشرقاوي في هذا العام الجديد بدى أنه غير كريم الشرقاوي الذي التحق بنفس الكلية العام المنصرم، هم عدة أشخاص في جسد واحد يتناغمون سويا في انسجام.. هناك كريم الشرقاوي المتيم بلويزا الرفاعي وهناك كريم الشرقاوي الطالب المجتهد المواظب على حضور محاضراته النظرية والعملية وهناك كريم الشرقاوي المنضم حديثا لعشيرة الجوالة بكليته لأول مرة ويبلي فيها بلاء حسنا وهناك كريم الشرقاوي الذي لا يضيع يوما دون الذهاب لأصحابه العجائز بالمقهى.

كل كريم من هؤلاء الكرماء شخص مستقل منفصل تماما عن الآخر، كان

هذا هو التحدي الذي يراهن نفسه عليه، وإن كان يبدي إعجابه هو شخصيا بشخصية كريم الشرقاوي المتيم بلويزا الرفاعي، هذا الشخص الذي يمتلأ بالإيجابية، الذي يحب لويزا الرفاعي بارعة الجمال هادئه حبا عفيفا فيمد بقية كرمائه بالطاقة الإيجابية اللازمة لاستكمال الحياة!

مع لويزا الرفاعي لا يحتاج لأن يصدر أصواتا حلقية قبيحة كل خمس دقائق معربا عن اعتراضاته كما يفعل مع زملاءه بعشيرة الجوالة.. معها لا يحتاج لأن يتصنع المعرفة بالطب والسياسة والاقتصاد والرياضة والفن والدين كما يفعل على المقهى ليظهر بمظهر العالم ببواطن الأمور وظاهرها، معها فقط يشعر بالسعادة، وكان هذا يكفيه!

اسمها كان لويزا محمد رزق الرفاعي.. وهو يحبها بشدة!

* * *

عندما سمع سعيد عبد الجليل الطرقات على بابه توقع أن يكون هذا أحد الأشخاص يستدعيه لتجهيز القبر لاستقبال جثة جديدة أو أن يكون هذا كريم الشرقاوي جاء ليستأنث بجلسته أو ليتهمه بسرقة شيء فُقِدَ منه!.. ولكنه فوجيء بشخص لم يتوقع قدومه على الإطلاق!

-ميخا!؟

كان مختار البهنساوي يقف على بابه حاملا لفافة مشبعة بالزيت داخل كيس بلاستيكي.

-ايه يا صعيدي صحيتك ولا إيه؟!

قالها مختار البهنساوي ضاحكا وأخذ نفسا أخيرا من سيجارته قبل أن يدهسا بحذائه ثم دخل بيت سعيد عبد الجليل دون انتظار دعوة منه!

-مش شايفك من يومين.. سألت عليك في الورشة يا شبح فالواد ابن الشيخ حسن ابن الـ(وصف لأم الشيخ حسن بأنها خرقة بالية تستخدم في المطبخ) قال إن إيدك اتفتحت وراقد في البيت قولنا نتطمن عليك.

لم يتعجب سعيد عبد الجليل من سباب ضيفه الموجه للشيخ حسن عبد التواب وأمه قدر اقتران سبابه بكنيته شيخا!!

-ياللا دي حاجة بسيطة ناكل مع بعض.

افترشا الأرض ليتشاركا سويا الأكل، لم يكن سعيد عبد الجليل يرى في مختار البهنساوي سوي حشاش لا يختلف في شيء عن أي حشاش آخر غير في طيبة القلب التي تميزه.. لسوف يصبح مليونيرا يسبح يوميا في مغطس يمتلأ بالعملات الذهبية إن وفر الأموال التي ينفقها على سجائره وحشيشه وترامادوله والقليل من البانجو والأباتريل والبيرة..!

عبدا كان مختار البهنساوي شديد الإخلاص لشيطانه، بل نام شيطانه واستراح وقرت عينه منذ أمد بعيد بعد إن اطمئن أن مختار البهنساوي لا يحتاج على الإطلاق لنصائحه!، إبليس بذاته بدأ يثني عليه ويفكر جديا في منحه الدكتوراة الفخرية وزمالة أكاديمية الشياطين المحترفين إن وجدت!

لم تغير أرغفة الكبدة والكفتة والحواوشي والسمين من نظرته لمختار البهنساوي ولكنه في نفس الوقت يستوحش وحدته التي تعمقت مع رحيل ابيه فلا مانع لدى

سعيد عبد الجليل من صداقة محدودة مع مختار البهنساوي ما دام الأخير لا ينتوي إيذاءه، هذا رجل لا يبخل عليه بإفطار أو غداء دون مقابل أو سؤال، قد يحتاجه وقت شدة ولكن عليه أن يحافظ على تلك المسافة الآمنة بينه وبين مختار البهنساوي، وهو ما لم يحافظ عليه سعيد عبد الجليل فيما بعد!

وهنالك توطدت صداقة بين سعيد عبد الجليل ومختار البهنساوي وياليتهما ما تصادقا!

* * *

كريم الشرقاوي في هذا العام يعرفه أغلب طلاب دفعته، لم يعد هذا الطالب الذي يتوارى في ركن قصي، لقد أعاد أحياء عشيرة الجوالة بكليته وأسس عشيرة للفتيات للمرة الأولى بالكلية بمساعدة من لويزا الرفاعي، أقام أكثر من ورشة تدريبية خلال عدة شهور لترغيب زملائه في أنشطة الجوالة وصار حديث زملائه بعروضه الفنية التي أقامها وعروضه المسرحية وحفل السمر الذي حضره جمع غفير من طلاب الكلية، أصبح فتي مستشار لجنة الجوالة المدلل.

كريم الشرقاوي أعاد اكتشاف نفسه بنفسه ونجح فيما فشل فيه كريم الشرقاوي الذي كان مكانه منذ عام مضى!

* * *

مر شهر على اللقاء الحميمي الذي جمع بين سهير البهنساوي وشعبان الدسوقي، شهر كامل عانت خلاله سهير البهنساوي من الكوابيس التي طاردتها في نومها وفي يقظتها خوفا من تأخر دورتها الشهرية وما يعنيه ذلك من كارثية التوابع،

لا شك أن شهرا كاملا سيمر بسلام ولكن مع آخر الشهر الثالث سيبدأ رحمها في الانتفاخ!

سيظن البعض في البداية أنه مجرد انتفاخ عادي من أثر الكشري الذي تتشبع أحشائها به والذي يكاد يسيل أنهارا من جميع فتحاتها إن اعتصرها أحدهم، هي قد أصبح لأنفاسها وعرقها المتفصد رائحة الكشري، ربما سيعتقد بعض آخرون أن ذلك الانتفاخ البسيط بسبب غدائها بمحشي الكرنب عصر الجمعة والذي كدثت غازاته في معدتها وأمعائها منتظرا ساعة الصفر ليبدأ جهازها الهضمي في إطلاق قنابل الغاز المحرمة دوليا محاولا القضاء على المحيطين من إنس أو جان أو حشرات أو حيوانات، ليلة محشي الكرنب يمكنك أن تعرفها بكل سهولة إن لاحظت الشباك المفتوح على مصراعيه في غرفة الأم وابنتها!

بالطبع تؤمن سهير البهنساوي تماما أنها لن تبلغ بحملها شهره الخامس وتتكبد عناء حمل كرة أرضية صغيرة في بطنها أو أن تتراكم المياه أسفل جلدها لتزداد وزنا محققة حلما قديما في أن تقضي على نحافتها بعدما حذرتها أم شادية جارتها من حقن (الكوتزيرون) مثلما أخبرتها!

لماذا لن يبلغ حملها شهره الخامس؟!

للأسف الشديد لم يكن باستطاعة الشيخ الدجوي الدجال أن يجعل حملها مخفيا بقدراته وقدرات أسياده حتى وإن تطور الأمر إلى تنازلات تتعدى ملامسة نهديها، كما لم يكن مختار البهنساوي أخوها يؤمن بالحرية الشخصية والانفتاح الأخلاقي ولا يمكن اعتباره من طبقة بعض المثقفين الذين لا يمانعون بوجود

مساكنة أو معاشرة قبل الزواج، سينظر مختار البهنساوي للأمر على أن أخته قد أنبتت برأسه قرون الدياثة بحجم قرون الكباش الجبلية، ولن يسعفها الوقت لتدرك أن بطنها قد بُقِرَت وأن جلدها قد سُلِخَ وأن لحمها قد فُرِمَ وأضيف إلى اللحوم الفاسدة التي يشتريها أخوها أو إلى لحوم الجيف التي يحصل عليها بسعر التراب إن كان له سعرا!

لكن القدر ليس دائما بهذه القسوة!

تلك كانت الرسالة إليها، ربما لم يحدث الحمل لوقوع الجماع في غير أيام التخصيب، وربما لأن ماء شعبان الدسوقي ماتت به حيواناته المنوية وقد أصابتها المخدرات والحشيش بالتسمم أو الكسل على أفضل تقدير فلم تعد قادرة على السباحة لمسافات طويلة، وربما يرجع السبب إليها، وتلك كانت كارثة أخرى ستؤجل الحزن عليها لوقت الزواج.

كل ما فهمته وأدركته بعقلها محدود القدرة هي أن القدر لم يشأ أن يبخل عليها بفرصة ثانية ولكن من قال أن القناعة كانت من خصال سهير البهنساوي، يقولون أن القناعة كنز لا يفني ولكن سهير البهنساوي كانت فقيرة لدرجة لم تمكنها من اقتناء هذا الكنز!.

كانت تطمع في فرصة ثالثة ورابعة وخامسة مع تكرار مقابلاتهما في شقة أهلها ليمارس شعبان الدسوقي متعته المحرمة منتهكا حرمة جسدها برضاها التام كلما سنحت الفرصة، لم يكن يرغب بها كثيرا، ولكنها بضاعة مجانية متعددة الاستخدام مقابل متعتها الشخصية النفسية والجنسية سويا!

لم يكن شعبان الدسوقي يشعر بأي نوع من تأنيب الضمير، مختار البهنساوي كأخيه وقد أكل معه الكثير من العيش والملح والكبدة والكفتة وعبأ معدته بأرغفة الحواوشي دون مقابل، ولكنه يوقن أنه في ذات الوقت يقدم له خدمة جليلة من وجهة نظره بإسعاد أخته وانتشالها من كئابتها التي تمثل سببا رئيسيا في رغبته – رغبة مختار البهنساوي – في الابتعاد عن بيته قدر الإمكان، هو لم يغتصبها رغما عنها، هو بالفعل يغتصبها ولكن برضاها وبرغبتها وبناءا على طلبها تلميحا مرة وتصريحا مرات عديدة، لطالما فكر شعبان الدسوقي في أخبار مختار البهنساوي بالأمر وبأنه السبب الرئيسي في سعادة أخته في الفترة الأخيرة حتى يتلقى منه كلمات الثناء والمديح والشكر ولكنه يتراجع في اللحظات الأخيرة!

أما سهير البهنساوي فكانت سعيدة منتشية في أحضان شعبانها الدسوقي تغني..

"شوف حبك عامل إيه فيا

من يوم ما سكنت وجيت جنبي

لا أنا عارفة اتلم على عينيا

ولا عارفة حاجة عن قلبي"

* * *

-فيه ريحة عفونة غير طبيعية يا سعيد بتهب من الترب وأنا جايلك.

قالها كريم الشرقاوي لسعيد عبد الجليل وهو يتسلى بقزقزة اللب في بيت الأخير المشغول بإعداد الشاي، ففسر له الأمر بنبرة حاول ألا يودعها سخريته من هذا

الشاب المدلل قائلا:

-بعيد عنك يا دكتور في تمانية ماتوا من عيلة واحدة.. عيلة البنداري.. مفيش ولا عين من تربهم إلا وفيها جثتين.. كانوا راجعين من فرح والسواق بيعوم الميكروباظ في الزفة عامت العربية منه وانقلب في الرشَّاح.. الريحة المرة دي شديدة أكمن كذا جثة اندفنوا في وقت واحد وفي مكان ضويق حبتين.. أنا متعود عليها فما بخدش بالي، لكن أنت يا دكتور كريم لا مؤخذة يعني أعذرني مش متعود غير على ريحة الكالونيا.

ضحك كريم الشرقاوي ضحكة صافية مجلجلة خرجت من قلبه مباشرة على تلميح سعيد عبد الجليل بخصوص نشأته المرفهة قائلا:

-إيه يا أبو سعيد.. أنت فاكرني عيل مسبّين ولا إيه؟!.. يا باشا ده إحنا متشبعين بريحة الميتين وجثثهم في الكلية!

بدت الجدية على وجه سعيد عبد الجليل عاقدا حاجبيه قائلا:

-بس تلاقيكم بتدرسوا على عرايس بلاستك يا دكترة زي اللي كانت في المدارس؟!

-عرايس بلاستيك إيه بس يا راجل يا طيب.. لأ طبعا جثث بجد.

-وما بتعفنش وتقرفوا من ديدانها؟!

سأله سعيد عبد الجليل في دهشة حقيقية فتقمص كريم الشرقاوي دور العالم ببواطن الأمور محاولا طرد مشهد الديدان وهي تلتهم الجيف من ذهنه وأجابه:

-لأ طبعا مش بتعفن علشان بيحفظوها في الفورمالين.

-يطلع إيه الفومرالين ده يا دكترة؟!

رفع سعيد عبد الجليل حاجبا وهبط بالآخر ماددا رأسه إلى الأمام دلالة على عدم الفهم سائلا، فاستطرد كريم الشرقاوي موضحا:

-الفورمالين ده يا سعيد محلول بيغطسوا الجثة فيه علشان ما تعفنش وتفضل بحالتها علشان نعرف ندرس عليها، بس في الكام سنة الأخيرة بقوا يحولوا الجثة لبلاستيك بكيماويات كده.

-وبيجيبوا الجثث الكتير دي منين يا دكترة؟!

-بص يا سيدي، أنا بقالي سنتين في الكلية وما عرفتش ومحدش يعرف بتيجي منين، ناس بتقول أن دي جثث اللي ملهمش أهل وناس تانية بتقول أن دي جثث متهربة من ترب.

-والجثة الواحدة دي تعملها كام بقى؟!

-ده العضم بنشتريه الواحدة بخمسين جنيه يا سعيد..

-العضم؟!

قاطعه سعيد عبد الجليل في دهشة وذهول..

-أيوة يا سيدي العضم، فأكيد الجثة ما تقلش عن عشراية..

-عشرة إيه؟!

-هيكون عشرة إيه بس يا سعيد، يا عم أكيد عشر تلاف جنيه، عشر تلاف لحلوح.

تدلى فك سعيد عبد الجليل في ذهول من ضخامة المبلغ بالنسبة إليه فسأله كريم الشرقاوي ممازحا:

-إيه يا سعيد بتفكر تتاجر في الجثث اللي متلقحة عندك برة ولا إيه؟!

-مش القصد يا دكترة.. بس أنت عارف فيه كام واحد اليومين دول ممكن يقتل أبوه ولا أمه لو هياخد في جثتهم عشر تلاف جنيه!؟

صدم كريم الشرقاوي من طريقة تفكير سعيد عبد الجليل ونظرته المختلفة إلى الأمور، مسكينٌ هذا الشاب الصعيدي الذي لا يدري أن العشرة آلاف جنيه أصبحت في هذا الوقت لم يعد لها قيمة تُذكَر!

-بس يا دكترة لا مؤخذة يعني اللي بتعملوه في الجثث ده مش حرام؟!.. سامحني يعني في السؤال بس إكرام الميت دفنه.

سحب كريم الشرقاوي شهيقا عميقا يمهله دقائق لإعداد الكلمات الفلسفية المناسبة للرد على منطق سعيد عبد الجليل ثم زفر الهواء من صدره قائلا:

-بص يا سيدي.. فيه مثل كده بيقولك أن نبل الغاية يغني عن شرعية الوسيلة.

حملق به سعيد عبد الجليل في عدم فهم فتابع كريم الشرقاوي مستطردا:

-يعني الغاية تبرر الوسيلة يا سعيد، بمعنى أن دراستنا دي بنستخدم فيها الأموات علشان نحافظ على صحة وسلامة الأحياء، الميت مش بيتألم ولا بيحس

بحاجة، لكن لو حد من قرايبه عايش ومريض وبيتعذب من الألم، الميت ده لو يقدر هيقوم من موته دقايق ويبوس أيدك تستخدم جثته علشان نتعلم الطب صح ونخفف الألم عن أمه وأبوه أو ابنه أو زوجته.. كلامي صح ولا غلط؟!

-لا يا دكترة لا مؤخذة مش قصدي.. أنت كلامك كله صح.. واللّه معاك حق.

قالها سعيد عبد الجليل في اعتذار، تلك من اللحظات التي يحمد اللّه عليها أن رزقه من هو أكثر منه علما واطلاعا ليصحح له مفاهيمه الخاطئة التي تسبب بها تركه للتعليم صغيرا، لربما لو كان قد أكمل تعليمه وتجاهل مضايقات زملائه في المدرسة وتحرشاتهم قولا وفعلا به لكان الآن طبيبا ذا شأن كدكتور كريم الشرقاوي ولقام بتشريح الجثث الحقيقية من أجل خدمة الطب وإنقاذ المرضى بدلا من اكتفاءه بإيداع جثثهم بالقبور!

* * *

لا يتذكر علي عسكر أنه قد أضاع يوما صلاة الفجر في جماعة حتى فجر ليلة زفافه، حتى مع هذه الأمطار التي تنهمر منذ بداية الليل لم يتأخر عن صلاة الفجر، والتمس عذرا لكل المواظبين على الصلاة خلفه والذين منعتهم أنهار الطين الجارية وبحيراته الراقدة من الخروج، كانت هذه الصلاة من القلائل التي يؤم فيها عدد من المصلين يحصون على أصابع اليد الواحدة!

في طريق العودة إلى داره تنائي إلى مسامعه صوت أقرب إلى المواء بالكاد يسمعه، اقترب أكثر ليرى مصدر الصوت فأبصر كلبا رضيعا صغيرا أسود اللون قاتمه ينكمش على نفسه ولا عاصم له من الماء الذي لن يلبث أن يغرقه، رأي

علي عسكر أن في خروجه وممشاه بالقرب من ذلك الكلب رسالة من السماء، ألتقطه علي عسكر ولفه في عبائته ليدفئه من برد لا يرحم، كان دائما ما يصدق رسائل السماء.

أسكن الكلب في بيته، ولم يصبح علي عسكر وحيدا منذ جاء هذا الكلب إلى البيت، أصبح للبيت روحٌ جديدة بعدما ماتت روحه مع رحيل أمه منذ بضع سنوات.

نباح الكلب ببيته جذب إليه تساؤلات الفضوليين من أهالي القرية الذين راعهم أن يسكن ببيت شيخهم وإمام مسجدهم الكبير كلب ألصقوا به صفة النجاسة، لم يضق صدر علي عسكر بتساؤلاتهم ولكن عندما كثر عدد السائلين والمجادلين له أفرد خطبة كاملة يوم الجمعة للحديث عن الكلاب، تلك الحيوانات المظلومة عن جهل بيّن.

* * *

أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحرام أي شيء!

هذا المثل كان يؤمن به مختار البهنساوي بشدة وكثيرا ما كان يردده.

ما من أحد يعمل لديه إلا وخانه وسرقه بالغيب!

كان يعرف تماما أن الشريف الأمين هو مستحيل رابع ينضم للغول والعنقاء والخل الوفي، ولكنه كان يضع حدا معينا للمبالغ المسموح بسرقتها، هو نفسه ما من صنعة اشتغل بها إلا وسرق صاحبها ولسوف يحدث معه المثل دائما وأبدا، لذا كان يعلم أن ما من عامل سيعمِّر لديه لأكثر من ألف ساعة وليس ألف سنة!

من عمَّر أكثر من الألف ساعة يفعل ذلك حتى يبلغه مأمنه ثم يبدأ في مغافلته واستغلاله وسرقته، لذلك لم يرتكب الخطأ الذي اُرتُكِبَ معه ولم يعط أيا من أسرار مهنته لمن يعمل لديه.

في هذا اليوم تعكر مزاجه بسبب منصور بشلة ذي الجرح القطعي بطول خده الأيمن والذي كان سبب في كنيته ببشلة، يدعي اللص الأحمق أن ما باعه في ساعتين هو رغيفين كبدة ورغيف واحد من الحواوشي ويعطيه خمسة جنيهات!

يكره مختار البهنساوي أن يكون من يعمل لديه بهذا الغباء!

لو كان لصا وذكيا لاستبقاه!

تجمع من بالشارع وأصحاب المحال المجاورة على سباب مختار البهنساوي لمنصور بشلة طاعنا في نسبه ونسب أمه وجميع عائلتها لاعنا أعضاءا حساسة في جسد أم منصور بشلة، ومصدرا أصواتا حلقية غاية في القبح في بداية كل سباب مبديا اعتراضه، منصور بشلة ينظر إليه والشرر يتطاير من عينيه وقد اصطبغتا باللون الأحمر، كلما يهم بالرد عليه يجد ألف يد ويد تكمم فمه خوفا عليه من بطش مختار البهنساوي وسكاكينه حتى استطاع أن يفلت منهم بأعجوبة ليشتبك مع مختار البهنساوي في شجار بالأيدي فقط أحدث في كلاهما خدوشا وجروحا سطحية من التي يحدث بها العرق إن لامسها ما يحدثه الزيت المغلي بالجلد.

ترك كلاهما في الآخر كدمات وسحجات ستتكفل الأيام القادمة بإزالتها حتى نجح البعض ممن تحلوا بشجاعة كافية في فك اشتباكهما بالأيدي ليستمر

بألسنة قذرة تلقي بالسباب.. بالوعتي صرف صحي تلقيان بقاذوراتهما في حماس متوعدتان بعضهما بانتقام مهلك تلك المدينة وما حولها!

الكل يعلم أن كلاهما يلقي بتهديدات جوفاء سيدفنها النسيان بعد ساعتين، فمختار البهنساوي يمتعهم بعرض مسل كل فترة يتغير فقط بطله الثاني!

* * *

obeikan.com

(٨)

"بقولك إيه يا لويزا.. "

لمس كريم الشرقاوي علامة الإرسال على شاشة هاتفه المحمول ذي المائتي وتسعون دينارا كويتيا وانتظر حتى ظهرت علامة القراءة ببرنامج الواتس آب وظهرت الكلمات المشوقة على شاشته التي تدل على أن لويزا تقوم بالكتابة.

" خير يا كريم، مساء الفل"

"بحبك"

كتبها وأرسلها كريم الشرقاوي العاشق بسرعة قبل أن يتملكه تردد كريم الشرقاوي المتردد وانتظر لتمر الثواني كسنين والدقائق كعمر كامل حتى ظهرت الكلمات الدالة على أن لويزا تقوم بالكتابة ثم تتوقف ثم تكمل الكتابة ثم تتوقف، هي قاسية القلب على خلاف ما تظهر وتتعمد إحراق أعصابه..!

استلقى كريم الشرقاوي على فراشه محملقا في شاشة هاتفه المحمول منتظرا ردا من لويزا الرفاعي.. لابد من رد سواء كان سلبا أو إيجابا.. لا يصح أن تتركه هكذا يحترق انتظارا.. فكر في كتابة أي تعقيب كاستعجال لرد أو كاعتذار عن تسرع أو كتأكيد على ما أرسله ولكنه كان يتراجع في كل مرة!

"بحبك"

لقد قالها كافية شاملة موجزة غنية بالتفاصيل لا تحتاج لتفسير أو تعقيب.. لقد عبر عن كل ما بداخله بإيجاز مسهب.. كلمة لا تحتاج لعناء للفهم أو للتوضيح.. الدور عليها هي بالرد.. ويخشى كريم الشرقاوي من أن تكون لويزا الرفاعي متبلدة المشاعر قاسية القلب.. ساعات مرت والأدرينالين يجلد بسوطه الغليظ عضلات قلبه التي تكاد تتمزق من شدة انقباضاتها وانبساطاتها في لهفة منتظرة ردا من لويزا الرفاعي حتى أصابه الملل وغلبه النعاس ليجهز عليه النوم!

* * *

مع الأيام أصبح بيت علي عسكر هو قبلة كل من له حاجة أو مسألة، كل أم تأخر زواج إبنتها، كل زوجة تأخر إنجابها، كل رجل ضاع ماله أو غلبه مرض، وكل شاب لم يحالفه التوفيق في ليلة زفافه!

لم يرد علي عسكر يوما أي فرد جاءه في مسألة.

-كله بإذن الله.. وما تشائون إلا أن يشاء الله.

هكذا كان يردد دائما بصوت واضح قبل أن يبدأ الرقية الشرعية بصوت هامس خاشع لا يسمع منه سوى تمتمات غير مفهومة تؤتي ثمارها في نفس السائل، وينتهي به الأمر بنصح سائله بزيارة طبيب أو توكيل محامي أو إبلاغ الشرطة أو الذهاب (للكوافير)!

علي عسكر غير راغب في صنع هالة وهمية حول نفسه، أو يدعي في نفسه قدرات وهمية على الاتصال بساكني العالم السفلي أو العلوي أو ما بينهما، يعد ما يفعله من قبيل درء المفاسد المقدم على جلب المنافع.. يحمد الله أن الناس تطرق

بابه وهو الذي لا يأمرهم بمنكر أو يدلهم على معصية، أن يطرق الناس بابه ويأخذون من صحته ووقته خير لهم من أن يطرقوا باب مشعوذ أو دجال أو ساحر نجس يحمّلهم أوزارا على أوزارهم!

ولكل ذلك لم ترض عنه شياطين الأنس والجن حتى يتبع ملتهم!

* * *

-مين اللي عمل فيك كده يا ابن الموكوسة؟!

قابلته بها أمه حين عاد إليها مختار البهنساوي بملابس ممزقة وخدوش في وجهه وبعض قطرات من الدماء قد جفت على ملابسه من أثر نزيف بسيط أصاب أنفه، كانت روحه قد أعلنت انسحابها من سائر جسده لتسد عامدة فتحتي أنفه مانعة أياه من التنفس محفزة أياه على الشجار حتى مع الذباب الذي يتكاثر حول الدماء الجافة على وجهه!

-ابعدي عني يا أما السعادي أنا مش طايق نفسي!

قالها في غضب مختار البهنساوي زاجرا أمه العجوز محاولا تغيير ملابسه بسرعة تاركا البيت لها ولتوبيخاتها.

-ابقى اتشطر الأول على اللي مسحوا بكرامتك الأرض..

قالتها موبخة أياه على باب غرفته مشوحة بأصبعيها الأوسطين في تقريع فتوقف مختار البهنساوي للحظة واحتشدت الدماء في رأسه فأصدر صوتا حلقيا قبيحا معربا عن استهجانه، ثم عاد إلى تغيير ملابسه بعدما تراجع في اللحظات

الأخيرة عن تهشيم رأس أمه التي لا تفتأ تصر على استفزازه.. أنهى ارتداء ملابسه ثم دفع أمه بكتفه خارجا من الشقة مغلقا بابها بعنف كاد أن ينتزعه من مكانه إن لم يتسبب في انهيار العقار المتداعي بأكمله.

مختار البهنساوي يدرك أنه أضعف من أن يأخذ حقه بيده من منصور بشلة أو أن يتهم في قضية ويحبس إن اعتدى عليه بوسائل أخرى!، ولذا لم يكن الثأر من أولوياته على الإطلاق!

* * *

"كريم أنا عمري ما بصيت ليك غير كأخ وصديق.. المشوار لسه طويل قدامنا في الكلية.. أنا مش عايزة أشغل نفسي بحاجة غير الدراسة خلال السبع سنين الجايين على الأقل واعتقد أنت بالذات محتاج كده برضوا.. أرجوك نساعد بعض على كده.. أنا هعتبر نفسي ما سمعتش حاجة واحنا الاتنين قادرين نسيطر كويس على إطار الصداقة والإخوة اللي بينا.."

قرأ كريم الشرقاوي تلك الرسالة على هاتفه المحمول في الصباح، ظل يعيد قرائتها أكثر من مرة معتقدا أنه قد أخطأ في قراءة الكلمات أو قد أخطأ في فهمها، ثم انتظر دقائق حتى يستيقظ من نومه بالكامل آملا أن يكون هذا كابوسا ينضم لتلك الكوابيس التي زارته طوال الليل، ولكن لم يحدث أي تغيير، فكر جديا في أن يحدثها في ذات الموضوع مرة ثانية ثم تراجع، لن يأخذ قرارا مصيريا آخر وهو في تلك الحالة بنصف عقل مستيقظ وآخر نائم، ليتناول عبوة من مشروب الطاقة المفضل لديه فاحش الغنى بالكافيين ليعطي لعقله أجنحة

تحمله للقرار الأصوب حتى وإن كان القرار الآن هو أن يصمت ويحبس مشاعره بصدره عل الأيام أن تُلين قلبها المتحجر!

* * *

-يا اسطى أنا اتحايلت عليك مليون مرة تسيبك من أم الترب دي وتيجي تشتغل معايا وأنا وعهد الله أأكلك الشهد، لكن أنت سايبني لولاد (وصف لأمهاتهن بالعاهرات المداومات على ممارسة البغاء) علشان يسرقوا لحمي الحي.

قالها في لوم غاضب مختار البهنساوي لسعيد عبد الجليل بعينين قدتا من جمر وعروق نافرة مستنفرة في عنقه توشك أن تنفجر.

-محدش يا ميخا هيرضى ياكل من أيد تربي!

قالها سعيد عبد الجليل في رضا تام وتسليم قانع بحقيقة مهنته الأصلية نافثا دخان سيجارته الكيلوباترا في سماء المقابر حيث يجلس هو ومختار البهنساوي في الناحية المطلة على الأراضي الزراعية المزروعة بالبرسيم.

-يا جدع خليك مؤمن.. ده أنت ابن الشيخ عبد الجليل وأكتر واحد عارف إن الأرزاق دي بأيد ربنا.. ده بيقولك في كتابه الكريم "أجري يا عبد وأنا أجري معاك"، وبعدين عاجبك قعدتك وسط الترب مستني الصدقة كده، مفيش ورشة يبقى تيجي معايا.

قاطع حديثه صوت هاتفه المحمول ليجد شاشته تحمل اسم شعبان (تك تك)..

-أيوه يا توك توك.. (صوت حلقي قبيح يدل على اعتراضه أعقبه باسم فعل يعني

الاحتجاج).. عيب عليك يا توك توك.. تعالى بس عند الترب اللي في صف ترب النصارى من جوه كده عند الغيط.

أنهى اتصاله ولم تمض ربع الساعة حتى سمعا صوت سعال من صدر رجل على وشك الوفاة بالربو أعقبه بصقة منفرة، ليجدا شعبان الدسوقي مقبلا عليهما حاملا في يده كيسا بلاستيكيا أسودا.

-إزيك يا صعيدي..

قالها شعبان الدسوقي في سخرية من أصل سعيد عبد الجليل وقد بدى عليه وقوعه تحت تأثير مخدراته فلم يعره سعيد عبد الجليل اهتماما ولكنه استطرد مخاطبا مختار البهنساوي:

-أنا هبسطك الليلادي يا ميخا، بس هو أحنا كده مش هنعمل إزعاج للسادة الرائدين تحت الثرى.. هاع هاع هاع.

قالها واستغرق في نوبة من الضحك المتواصل على دعابته السخيفة حتى غلبه السعال من شدة الضحك فبصق بصقته الكريهة وتابع بإنفاس لاهثة:

-إيه ده؟!.. أزيك يا صعيدي، أنت هنا من أمتي؟!

تبادل سعيد عبد الجليل ومختار البهنساوي الابتسامات الساخرة من عقل شعبان الدسوقي الذي غيبته المخدرات!

-ما تخلي أبوك التربي يستأذن لنا أسيادنا اللي تحت يا صعيدي؟

رمقه سعيد عبد الجليل بنظرة زاجرة أودعها غضبه، فاعتذر له شعبان الدسوقي

obeikan.com

دون أن يكف عن ضحكاته:

-خلاص يا عم احنا مستأسفين.

-ما ترسى كده يا توك توك.. احنا لسه في أول الليلة.

قالها مختار البهنساوي في جدية ناهرا شعبان الدسوقي فأطبق الأخير فكيه على لسانه وسكت لينشغل في إخراج زجاجات البيرة الستيلا ولوزام الحشيش قائلا:

-قولتلك هبسطك.. لف ولا غرقانة ولا خابور ولا كيفك إيه يا ميخا باشا؟

ثم أخرج من جيبه سيجارة ضخمة ملفوفة يدويا بغير إتقان على شكل قرطاس وناولها له قائلا:

-ولا بانجو؟

أشاح مختار البهنساوي بوجهه دلالة على رفضه البانجو والتقط إحدى سجائر الحشيش ليشعلها وقربها من سعيد عبد الجليل فهز رأسه رافضا، فأخرج له سيجارة عادية وقذفها له فالتقطها سعيد عبد الجليل وأشعلها وحين نفث دخانها تنبه له حينها شعبان الدسوقي فقال في سخرية:

-إيه ده!!.. أزيك يا صعيدي أنت إيه اللي جابك هنا؟!.. أنت بتشرب سجاير كمان؟!.. عيب عليك يا جدع ده أنا فاكرك تبع الإخوان ولاد الـ(...)..؟!

-ما تهمد يا توك توك..

قالها مختار البهنساوي مدركا ما يفعله البانجو بعقل شعبان الدسوقي المغيب

بالفعل ولكن الأخير استدرك قائلا بنفس السخرية:

-أنت مش أبوك من اللي (وصف للجميع بأنهم تعرضوا للاغتصاب قسرا) في رابعة؟!

قفز سعيد عبد الجليل ليمسك بقميص شعبان الدسوقي خانقا إياه فأخرج الأخير مطواته وهم أن يطعن بها الأول لولا تدخل مختار البهنساوي في الثانية الأخيرة ليفصل بينهما مصدرا صوتا حلقيا قبيحا اسمع الراقدين في قبورهم قائلا:

-جرى إيه يا توك توك يا ابن (وصف لأمه بالخرقة البالية المستخدمة في المطبخ) ما تفوق يابا وركز في كلامك.. سعيد امسحها المرادي في أخوك ميخا.. روَّق كده وروح اعملنا دور شاي وأنا هظبطهولك.

تسمر سعيد عبد الجليل في مكانه حارقا شعبان الدسوقي بنظراته ثم استجاب لجذب مختار البهنساوي من قميصه فتحرك وبركان غضبه يغلي داخله محاولا استجماع هدوءه وشتات نفسه، عاش حياته يمشي إلى جوار الحائط مبتعدا عن المشاكل، يتغافل عن الإهانة من الآخرين وهو قادر على الرد، لم يحب قط أن يوقع نفسه في مشاكل لا طائل منها.

-أنت مخك اتلحس يا توك توك؟!

لم يعقب شعبان الدسوقي على سؤال مختار البهنساوي وقد نسي بالفعل ما بدر منه منذ لحظات، فقط التقط سيجارة البانجو من الأرض وأشعلها ثانية دون أن ينفض التراب من عليها وأتى على ما تبقى منها في شهيق واحد بلا زفير ليكتم

دخانها بحويصلاته الرئوية لثوان طالت ثم زفره في غضب، أخرج من جيبه شريط أباتريل وشريط آخر به أقراص لا يعلم ماهيتها إلا الله ابتلع نصفيه شاربا زجاجة ستيلا كاملة ثم تجشأ بصوت هو القبح ذاته، ثم تناول الكوب الذي أحضره معه وشرع يجهز خابور الحشيش وسيجارة حشيش بين شفتيه مشتعلة!

-ما تهدى يا توك توك.. مش هنطلع طلعة مع أي نسوان كده ولا إيه؟!

قالها مختار البهنساوي مداعبا شعبان الدسوقي، فضحك الأخير في بلاهة وقد عاد كوكتيل المخدرات المركز ليسيطر سيطرة تامة على عقله.

-يا أبا أنا خلاص بطلع من غيرك ياما..

قالها في بلاهة وتابع..

-لسه طالع مع بت في مدرسة التجارة إيه.. مشط.. خدتها عند مقلب الزبالة و..

واستمر شعبان الدسوقي يحكي ما فعله مع الفتاة بالقرب من مقلب القمامة المتطرف واصفا جسدها وما أحدثته فيه هرموناتها الأنثوية الشابة، ومفاخرا بفحولته المفرطة وكيف تركها لا تقوى على تمالك أعصابها.

-ولا البت أخت الواد ميخا دي حاجة تانية.

تيبست جميع عضلات مختار البهنساوي عند جملة شعبان الدسوقي الأخيرة متوقفا عن لف سجائر الحشيش وقد عاد إليه وعيه في ثانية سائلا:

-مالها؟!

سأله مختار البهنساوي محاولا استدراج رفيقه في الكلام وهو لا يزال مغيبا عن

وعيه وإدراكه، ولم يخيب ظنه مسترسلا في الحديث ضاحكا في بلاهة واصفا ما دار بينه وبين سهير أخت مختار البهنساوي ومسهبا بغير إيجاز في توصيف صولاته وجولاته في جسد أخت رفيقه الغافل الذي استغفلاه!

جحيم يستعر في صدر مختار البهنساوي من وقع كلمات شعبان الدسوقي عليه، هذا الكلب قد خانه وخان العيش والملح والحشيش والبيرة وجلسات الأنس والزنا المحرم ولم تمنعه الإخوة من أن تمتد يده الآثمة وبقية أعضاءه القابلة للحركة إلى أخته.. امتهن شرفه وعرضه!

بعقل أعماه الغضب انقض مختار البهنساوي على شعبان الدسوقي النذل قابضا على عنقه بكل قوته محاولا قتله وغسل عاره بيديه، اشتبكا معا في عراك يعلم أن قد لا تكون الغلبة فيه من نصيبه حتى وإن كان شعبان الدسوقي أسيرا لمخدراته!

* * *

لم يتعجب علي عسكر من الزيارة التي جائته بمنزله، والتي تزعمها زميله البدين لطفي عثمان، لم يأتوا لخير مثلما رأي في أعينهم وقت دخولهم.

-النظام اللي أنت ماشي بيه ده مش نافع يا علي يا عسكر.

قالها لطفي عثمان دون مقدمات وشرر يتطاير من عينيه، لقد أجمعوا كيدهم وأتوه يثنونه عن زهده في المال الذي يجر عليهم لعنات آباء التلاميذ ويخل بتكافؤ الفرص.

جائوه يطالبوه بأن يتخلى عن المقابل الرمزي الذي يتلقاه من الأهالي نظير الدروس الخصوصية ويرفع المقابل ليتساوى معهم، بل ساوموه على أن يتفقوا

على مقابل وسط يرضيهم ويرضيه فرفض، لو أتوه بمثل الأرض ذهبا ما وافق!

-جرى إيه يا علي يا عسكر، ده أنت مهما رحت ولا جيت ضيف ع البلد، وبعدين مش لازمك الفلوس يا أخي، فإحنا ورانا بيوت وعيال والتزامات.

رمى لطفى عثمان كلماته كسهام مسمومة تضرب بغير هوادة في قلب علي عسكر ساخرة من وحدته، لم يتحمل علي عسكر هذا التبجح معه، ضاق صدره بكراهيتهم، أكد لهم صراحة وأقسم بأنه لن يغير من موقفه، طالبهم بأن يفعلوا مثله إن شائوا، وهم مرحب بهم في بيته حتى يقرروا المغادرة.

انصرفوا منكسي الرؤوس يجرجرون أذيال الخيبة، وحده لطفي عثمان لم يسلِّم بالهزيمة في تلك الجولة، لم يكد يخرج من بيت علي عسكر حتى بدأ مشاوراته مع شيطانه الرجيم يتباحثان المكيدة الجديدة لعلي عسكر ليجعلانه من النادمين.

* * *

لم يكن سعيد عبد الجليل ليسمح لأحد أيا كان أن يتطاول على ابيه الراحل، شعبان الدسوقي الوغد الحقير هذا يحتاج إلى تأديب، هو يصنع لنفسه هالة زائفة وشهرة مكذوبة كبلطجي عتيد فقط لأن الآخرين يخشونه ويتحاشون آذاه.

أهل المدينة الضعفاء المسالمين هؤلاء يخشى المرء فيهم أن يصرعه بلطجي من أمثال شعبان الدسوقي أو يحدث به عاهة مستديمة أو جرحا غائرا في وجهه لا تخفيه سنوات متعاقبة، غير عالمين أن أمثال شعبان الدسوقي مجرد أجساد جوفاء بقوة زائفة مزعومة نخرت المخدرات عظامها، وسعيد عبد الجليل وإن كان عاش جل حياته بالمدينة إلا أنه لم ينس يوما أصله الصعيدي ولم تكن

تنقصه يوما وفرة القوة أو فائض الشجاعة، أقسم أن يلقنن شعبان الدسوقي هذا درسا لن ينساه طوال حياته ويلكن درسه هذا بمثابة قرطا من الإهانة يضعه في أذنه ليذكره وغيره دوما بإتقاء شر الحليم إذا غضب.

سحب سعيد عبد الجليل من أسفل فراشه أحد الألواح الخشبية وخرج في اتجاه شعبان الدسوقي يدفعه الغضب والثأر، لم يتسلل أو يتخف ليفاجئه، ليس ذلك من شيم الرجل الصعيدي الحق.

عندما اقترب فاجئته الأصوات المكتومة التي تصل إلى أذنيه، أسرع الخطى ليجد مختار البهنساوي وشعبان الدسوقي يشتبكان في عراك متبادل والطرف الأضعف فيه هو الأول!

-شعبان يا توك توك..

ناداه سعيد عبد الجليل بصوت هو الرعد، فأدار شعبان الدسوقي رأسه له وسط عراكه ليهوى سعيد عبد الجليل باللوح الخشبي مرتين فقط بكل قوته على رأس شعبان الدسوقي.. مرتين فقط كانتا كافيتين لتخور قوى الأخير ويهوى على الأرض مدرجا في دماءه التي تدفقت من رأسه الجريحة!

* * *

وقفت تحتضن كتبها ومعطف الكلية الأبيض راسمة الجدية قدر جهدها على ملامح وجهها الذي يفشل في ترك أي انطباع آخر سوى البراءة، تنظر مباشرة في عيني كريم الشرقاوي الذي وقف أمامها صامتا لا حيلة له قائلة:

-كريم أنا مش عايزة نتكلم في الموضوع ده أكتر من مرة، والله والله أنا مش ليا

في جو الرومانسيات دي ولا هفكر فيها غير لما أخلص دراستي.

صمتت لويزا الرفاعي منتظرةً لتعقيب من كريم الشرقاوي ولكن الأخير ظل صامتا كقبر وقد طغى عليه الأسى والحزن، استطردت لويزا الرفاعي محاولة مواساته لتخبره بأن الأمر لا يرجع لعيب فيه ولكن لقناعاتها الشخصية التي من الوارد أن تكون خاطئة تماما، أخبرته أنها تعلم علم اليقين أن الجميع ينظرون إليها على أنها الفتاة المتحررة الفاتنة التي تتخلى عن حجابها الشرعي، وأنهم جميعا يعتبرونها صيدا سهلا، قالت أنها تسعد بنظرته المختلفة عن الجميع إليها ولذا تفخر بكونه بمثابة الأخ والصديق الذي لا ترغب يوما أن تخسره، نصحته بأن يعتبرها مريضة نفسية تستوجب العلاج من قناعاتها الشخصية تلك المتمثلة في اعتقادها بأن حب الروح واشتهاء الجسد لا يمكن أن يجتمعان في عقل رجل واحد وإن اجتمعا في قلبه.

ابتسم كريم الشرقاوي رغما عنه متصنعا التفهم لتلك الحماقات التي أغرقته بها قائلا:

-هو بالرغم من أن كلامك ده ما بيختلفش عن رد أي بنت في فيلم عربي أو رواية من اللي بيتباعوا على الرصيف، بس أكيد يا لويزا هنفضل أخوات وهتلاقيني دايما الأخ والصديق زي ما عرفتيني من أول يوم.. انتي عارفة إني أسير لروحك وشخصيتك وعقلك وعمري ما بصيت ولا هبص لجسمك يا لويزا..

-وأنا واثقة من كده.. أنا آسفة مضطرة أسيبك دلوقتي يا كريم.. يا دوب ألحق العصر في جامع الكلية قبل ما المغرب يأذّن.

تركته وأولته ظهرها منصرفة فتحفزت عيناه لتمعن التدقيق في مؤخرتها المتمايلة في جدية واضحة متمنيا في داخله أن يصلى خلفها ويلتهمها بنظراته في الركوع وفي السجود!

لا يحتقر نفسه ولا يرى فيما يفعله نفيا لحبه لها، جميع الأسوياء في ظنه يعلمون بأنه ما من استمرار لعشق روح دون اشتهاء لجسدها!

* * *

وقف سعيد عبد الجليل متحفزا قابضا على اللوح الخشبي منتظرا أن ينهض شعبان الدسوقي ليستكمل عقابه الذي يحاول أن يفلت منه بتصنع فقدانه الوعي، أما مختار البهنساوي فنهض نافضا التراب عن ملابسه لاهثا لا يقوى على التقاط أنفاسه.

-ابن الـ(سباب لأم شعبان الدسوقي تصفها بممارسة الزنا والمتاجرة بجسدها بغير ثمن).. لازم نكتفه علشان لو فاق هيهيج علينا!

قالها مختار البهنساوي خائفا يتملكه التوتر والذعر من رد فعل شعبان الدسوقي وبطشه الذي لن يبقى ولن يذر إن استرد وعيه، ولكن سعيد عبد الجليل الواثق من قوته رمق مختار البهنساوي بنظرة ألجمته واقترب من الجسد المسجي على الأرض ليقلبه على ظهره فلم يجد مقاومة، رفع زراعه وتركه ليسقط جوار جسده بلا أي مقاومة، جثى سعيد عبد الجليل إلى جوار جسده وقرب أذنه من أنف شعبان الدسوقي فلم يشعر بشهيق داخل أو زفير خارج!

الأمر لم يكن يحتاج لمزيد من التوضيح، رفع سعيد عبد الجليل عينيه إلى مختار

البهنساوي ففهم الأخير الرسالة بغير كلمات..

-أنت ما عملتش حاجة يا سعيد.. أنت أنقذت حياتي، وعهد الله ده كان بيموتني عشان بهزقه عشان ضايقك!

-هنعمل إيه؟!

سأله سعيد عبد الجليل في هدوء، لم يكن يشعر بأي ذرة ندم على ما اقترفت يداه، هذا القتيل ليس إلا كلب ضال يؤذي المارة وقد قضي عليه بفضل من الله، تلك روح فاسدة تعيث في الأرض فسادا ولم تكن لتتوب إلى الله مئابا في يوم من الأيام، سيكتب الله فعلته تلك في ميزان حسناته ويجزيه عنها خيرا يوم الحساب، هو الخضر الذي قتل الغلام العاق العاصي، هو موسى الذي استنصره الذي هو من شيعته على الذي هو من عدوه فقتله عن طريق الخطأ، كل ما كان يهم سعيد عبد الجليل هو ألا ينكشف أمره ويكشف ستره، يبتغي حلا سحريا يحول دون اكتشاف جرمه أو أن يسقط بين أيدي الشرطة ليعاقب على فعل الأولى بهم أن يشكرونه عليه!

-ادفنه في أي عين من الترب دي.

قالها مختار البهنساوي مذعورا.

-مش هينفع.. ممكن تتفتح في اليومين الجايين يدفنوا فيها حد من أصحابها.

صمت مختار البهنساوي لبرهة كي يعطي الفرصة للفكرة التي لاحت له في أفقه الضيق كي تختمر في عقله، ثم قال لسعيد عبد الجليل:

-طيب تعالى نسحبه عندك في البيت وأنا هسيبك ربع ساعة وأجيلك تاني جري، وعهد الله ما هبيعك.

لم تساور سعيد عبد الجليل أي شكوك تجاه مختار البهنساوي من أن يهرب منه أو يشي به، كما لم يسأل عن وجهته، حملا جثة شعبان الدسوقي حتى بيت الأول، ثم انطلق مختار البهنساوي إلى وجهته قانعا بل سعيدا بالحل الذي توصل إليه، هذا حل عبقري من وجهة نظره لا يأتي به سوى العباقرة أو عقول الشياطين!

* * *

بدئت شياطين الأنس من زملاءه بوازع من شياطين الجن في الترويج لكونه ساحر ودجال مشعوذ داعين الناس أن أخرجوه من قريتنا إننا إناس يتطهرون!

-من أتى ساحرا فقد كفر بما أُنزِل على محمد، ما تصلوا على النبي المختار.. اللي بيروح لدجال بيبقى كاااااافر.. واضحة أهي، فما بالك بالدجال نفسه!

يصيح بها لطفي عثمان بوجه محتقن من فوق منبر الخطيب في خطبة الجمعة وقد وجد أن الفرصة قد أصبحت سانحة للتصعيد ضد علي عسكر زميله.

-عارفين الساحر والدجال دول وظيفتهم إيه منك ليه يا خويا؟.. "فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه".. واضحة أهي، اللي مراته معووجه عليه أديه عرف السبب..

يصيح فيهم في غل في الجمعة التالية برأس ضخمة محتقنة بالدماء تهتز فوق جسد بدين ليهتز كرشه من فرط الحماسة، مصعدا من هجومه المستتر ضد علي عسكر!

-الساحر ولا الدجال من دول تلاقيه لازما ولابد مربيلي كلب في بيته، اسألوني ليه يا شيخ لطفي؟!.. علشان يعمل أعماله على نجاسة فبيحتاج إيه؟.. بيحتاج حيوان نجس، واضحة إهي.. ومفيش أنجس من الكلب كلنا عارفين.. ولما تقول ليهم اتقوا الله ده الإئمة الأربعة قالوا.. يقولك ملناش صالح بيهم وتاخدهم العزة بالإثم!

للجمعة الثالثة على التوالي يواصل الأستاذ لطفي عثمان هجومه على علي عسكر.. المسجد أزدادت فيه أعداد المصلين الذين توافدوا من كل أرجاء القرية المترامية ليستمعوا إلى خطبة الأستاذ لطفي عثمان الحماسية التي ذاع صيتها بين أهالي القرية، يستمد حماسته من الغل والحقد الذي يضيق به صدره، أصبح لا يرى الرؤوس المتدلية التي غلبها النعاس مللا من خطبه المتكررة التي لا يطالها تجديد.. أصبح له جمهور يأتيه خصيصا!

-وشوف يا أخي منك ليه بجاحة بعض السحرة والدجالين الأنجاس، الكلاب وأعمالهم السفلية النجسة مخلياهم نجاسة ماشية على رجلين واحنا بدل ما نضربهم بالبلغ على دماغهم نصرة لدين الحق.. دين الحق دين الإسلاااام.. لأ.. ده احنا بنكرمهم وبنشرفهم وبناخد بأيديهم النجسة نطلعهم على المنبر يخطبوا في المسلمين ويلوثوا عقولهم بضلالاتهم وكفرهم ويدسُّوا للناس الغلابة السم في العسل!

هكذا تحدث لطفي عثمان في الجمعة الرابعة وقد أغرق الصفوف الأولى من الحضور برزاز لعابه المبارك من فرط حماسته، مأججا لهيب الغضب في قلوب تبرع في التظاهر بالغيرة على دينها..!

بنفس السرعة التي تلتهم بها الشرارة تل من القش، انتشر الغضب في صدور أهل القرية وقلوبهم عاقدين العزم على التربص بعلي عسكر في الجمعة التالية.

* * *

وقف سعيد عبد الجليل أمام جثة القتيل المسجاة على أرضية الحمام متأملا في الجسد الذي غره البطش بالضعفاء حتى صار إلى ما صار إليه، اضطر سعيد عبد الجليل أن يقتل كما قتل أباه من قبل كي يصحح أوضاعا خاطئة في هذه الحياة، لم يشعر قط أن أباه كان مخطئا حين قتل أمه الخائنة التي لم تصن عرض وشرف زوجها، كما لم يشعر بأي ندم على قتل هذا الفاسد المفسد في الأرض وإزهاق روحه وإراحة الناس من شرور أعماله.

شعر سعيد عبد الجليل بضغط البول على مثانته فخفض سرواله وشرع يتبول على وجه وجسد هذه الجيفة الممدة أمامه في رضا تام.

* * *

obeikan.com

(٩)

نقل سعيد عبد الجليل في تعجب نظره بين الأشياء التي جاء بها مختار البهنساوي ثم رفع رأسه إليه متسائلا في عدم فهم:

-ولزومه إيه ده كله؟!.. ما نرميه في أي ترعة والسلام يا ميخا؟!

-وماله، نرميه في الترعة، علشان يلاقوا جثته قابة على وش الترعة وأهله يعرفوه وواحد ابن حرام يقولك ده كان آخر واحد قابله هو ميخا، المركز يقبض على ميخا، يضغطوا عليا.. اعترف عليك على طول!.. قولت ايه؟!

-أمال أنت بعد اللي هتعمله معاه هتتصرف فيه إزاي يا (أبو عمه)؟!

سأله سعيد عبد الجليل في نفاذ صبر، كان أسوأ لحظاته تلك حين يعجز عن فهم أمر ما، فأجابه مختار البهنساوي في هدوء مصطنع محاولا إفهامه:

-يا صعيدي العضم محدش هياخد باله منه أنه عضم بني آدم لو اترمى على أي كومة زبالة.. مش بعيد بتوع الزبالة يخدوه يعملوا عليه مرقة!.. واللحم هاخده افرمه عندي الأول وأرميه على مراحل، وزيه المصارين وكنس البطن هرميهم على مراحل ومحدش عارف أنه يخص بني آدمين.. هيبقى فاضل إيه؟!

-فاضل إيه؟!

-هيبقى فاضل عضم الجمجمة بس.. ده أنت تتصرف فيه بمعرفتك بقى يا

صعيدي، ومحدش هيحس أصلا أن توك توك جرى ليه حاجة، ننجز بقى قبل ما الشمس تطلع.

أنهى شرحه وخلع ملابسه ليبقى بملابسه الداخلية فقط، وعندما اقترب من جثة شعبان الدسوقي أزكمته الرائحة العطنة التي تطايرت من الجثة!

-ايه الريحة المعفنة دي؟!

-ما تاخدش في بالك يا ميخا..

أجابه سعيد عبد الجليل مبتسما في سخرية وأمسك خرطوم المياه وفتح الصنبور لتغرق المياه جثة شعبان الدسوقي غاسلة من عليه التراب والطين والدم وبوله وبول شعبان الدسوقي، تقدم مختار البهنساوي حاملا كزلكه وخنصره وبنصره وساطوره ومزق ملابس شعبان الدسوقي ليبدأ عمله بمساعدة سعيد عبد الجليل!

* * *

ظل كريم الشرقاوي يتطلع في صمت إلى صورة لويزا الرفاعي بابتسامتها الصافية على شاشة الكمبيوتر الشخصي المحمول الخاص به، لا يعرف توصيفا حقيقيا لمشاعره نحوها، هذه الفتاة المنفتحة على العالم المحافظة على احترامها، هذه العقلية المتزنة القادرة على السيطرة على رغباتها وجوارحها، لا يدري أيكرهها لتمنعها عليه أم يحترمها لصراحتها معه!

الحقيقة أنه كان يشتهيها، يعشقها ويحبها حتى النخاع، ولكنه يفاجأ بعقله مفكرا في جسدها وفي اللحظات الحميمية التي سيقضيها معها بعد الزواج أو قبل الزواج إن لم يكن لديها مانعا دينيا أو أخلاقيا!

سرح بخياله في محيط عينيها متخيلا أحداثا أخرى سعيدة تصارحه فيها بحبها وتبادله المشاعر الجياشة ليمسك يدها فلا تمانعه ثم يطبع قبلة رقيقة على ظهر يدها الرقيقة فيصطبغ وجهها بالأحمر خجلا، يخلب لبه هاتان الوجنتان الورديتان طبيعيتا الحمرة بغير مساحيق تجميل، يتشجع ويطبع قبلة دافئة على وجنتها فتغمض عينيها انتشاء فيستغل الفرصة ويلتقط شفتاها بشفتيه ليرتجف ارتجافة خفيفة من تأثير النشوة وقد أتى شهوته لتهوى صفعة قاسية على وجهه ليستيقظ معها من غفوته وقد ارتطمت رأسه بعنف في المكتب!

يعشق هذا الطراز من الأحلام المفرط في واقعيته لدرجة جعلته لا يزال يشعر برطوبة لسانها القريب من مذاق الفراولة في فمه!

* * *

مع آذان الفجر وعلى غير العادة كان مختار البهنساوي يفتح محله ليحمل إليه الأكياس البلاستيكية السوداء التي ازدحم بها توك توك شعبان الدسوقي، يوم وليلته طويلان مرهقان بذل خلالهما جهدا جهيدا لم يكن يتوقع بأنه قادر على الإتيان به، مشاجرة صباحية ونظيرتها في المساء عند منتصف الليل الكحيل الذي جافاه القمر ساترا بغير قصد جريمة قتل لم يكن لها تخطيطا مسبقا!

أنهى مختار البهنساوي نقل أكياسه التي اعتقد من كثرتها أنها تعود ثانية من تلقاء نفسها للتوك توك وأنه سيستمر إلى يوم الحشر في مأساة سيزيف اليوناني الذي لم يكن مختار البهنساوي يعرف عنه شيئا!

هاجس بدأ يُلح عليه بأن جثة شعبان الدسوقي تأبى أن تغادر توك توكها لتتسبب

له في فضيحة لن تختلف كثيرا عن فضيحة الفسيخ في سوق يوم الاثنين، تخلص مختار البهنساوي من هواجسه تماما مع آخر كيس ثم أغلق المحل جيدا لا خوفا من أن يدخل أحد إلى المحل ولكن خوفا من أن يخرج شعبان الدسوقي منه!

غاب مختار البهنساوي ساعة ثم عاد ثانية إلى محله، أغلق الباب من الداخل وبدأ رحلة تنظيف أحشاء جثة شعبان الدسوقي وفرم لحمه في استمتاع!

* * *

قذف محتويات الكيس نحو الكلاب التي لا تمل النباح في هذا الوقت المتأخر من الليل عند مقلب القمامة لتنقض الكلاب على محتويات الكيس في جوع حقيقي، هذا جلد شعبان الدسوقي في خلال خمس دقائق لم يبق له أثرا، لم ينتظر سعيد عبد الجليل شكرا أو إعرابا عن امتنان أو عرفان من الكلاب الجائعة المشغولة بإفطارها الدسم فألقى نظرة أخيرة عليهم ثم انصرف عائدا إلى مقابره وموتاه.

عندما وصل إلى بيته أحضر دلوا من الماء وسقى نبات الصبار المزروع جوار بيته والذي نقله منذ ساعة من أمام أحد القبور إلى بيته ليمتص ما قد يحتاجه من كالسيوم من عظام جمجمة شعبان الدسوقي المدفونة تحته بعدما رفض مختار البهنساوي أن يأخذها معه مع بقية العظام مدعيا أن تلك الجمجمة هي التي قد تثير الشكوك وبخاصة أن القردة ليس لديهم مكان بين سكان المدينة!

جمع سعيد عبد الجليل بعض أغصان الأشجار الجافة وأشعل فيها النار ووضع وسط لهيبها المشتعل ملابس شعبان الدسوقي وآخر ما قد تبقى منه!

تربع سعيد عبد الجليل أمام النار متأملا فيها ومتدفئا بلهيبها أمام البرودة الخفيفة التي تصاحب نسمات الفجر في الصيف، وجعل يفكر في ماضيه وحاضره ومستقبله، حتام سيظل الشخص الفقير المهمل الذي لا قيمة له ولا وزن في سوق البشر، يسكن وسط القبور كالموتى ويأكل فتات الطعام الذي بالكاد يبقيه حيا وسط أمواته!

-أبو أمك يا أما..

قالها وبصق في النيران المشتعلة، لكم كان يكن كراهية شديدة تجاه أمه التي كانت السبب الرئيسي فيما آل إليه حاله، من طفل له أسرة ترعاه وأرض وزرع وبهائم ودواجن إلى شاب معدم يتقبل بنفس راضية أموال الصدقات التي تأتيه ولا يجد في ذلك انتقاصا من كرامته، من شاب له أهل وعشيرة إلى شاب وحيد فاقد الأب والأم والأهل، كل ذلك بسبب أمه التي جرت وأسرعت الخطى وراء شهواتها النجسة جاعلة فرجها مبولة عمومية يقصدها كل من يرغب في إفراغ ماءه ليطفيء شهوته!

لم يكن سعيد عبد الجليل صاحب أي قرار في أي شيء يخص ماضيه، وكان ذلك كسكين تلم يضغط بإصرار على جرح غائر في أعماق نفسه، في لحظة ضعف كفر بالابتلاء وجأر بغضبه واستنكاره طاردا نفسه من فئة المؤمنين الصابرين الموقنين بأن قضاء الله وقدره كله خير، لن يظل كثيرا الصالح الذي يقنع بما يحمله له القدر بل سيصنع هو قدره بنفسه.

لن يتخلى عن حلمه بأن يمتلك ورشة صيانة السيارات، حلم صباه وشبابه، يدخر

الأموال قرشا وراء الآخر حتى يتحصل على رأس مال مناسب ليبدأ مشروع العمر.. حينها يترك مهنة اللحاد للأبد عن طيب خاطر، لن يورثها ابنه إن كان له ذرية في يوم من الأيام، ضاق زرعا بالعمل لدى غيره وبخاصة مع ابن الشيخ حسن عبد التواب المراهق الذي يأتي ليصدر الأوامر ويجلس بأريحية ليشاهد أفلاما إباحية على هاتفه المحمول بعيدا عن أمه نافذة الصبر حادة الطباع التي تأتي للورشة حاملة معها عواصفها وأعاصيرها.

سعيد عبد الجليل روح معذبة تائهة حائرة ولدت لتشقى!

* * *

في قرية مجاورة وسط حقل البرسيم الخاص بهم وجدت عواطف توك توكا وبداخله مفاتيحه.. عادت لزوجها ثانية وذهبا سويا علهما يجدا صاحبه فلم يظهر، قاد الزوج التوك توك حتى دارهما منتظرين أن يظهر صاحبه ليسأل عنه ولن يحدث!

-ده رزق البت منار يا أبو سلوى..

قالتها عواطف بفرحة غامرة فابتسم الزوج وحمد الله على هذه الهدية التي ستعينه على الإنفاق على ابنتيه، صدقت أمه حين أخبرته أن رزق البنات واسع.

* * *

مع آذان المغرب دخل مختار البهنساوي شقته حاملا كرتونة وضح من انحنائة ظهره الخفيفة أنها لم تكن فارغة، كانت الشقة يسودها هدوء غير معتاد، وضع الكرتونة في المطبخ الضيق أولا ثم توجه إلى الحجرة التي تنام بها أمه وأخته

سهير فوجد أمه قد غفت وغطت في نوم عميق وعلا صوت شخيرها.

-أماااااا..

فتحت أمه جفنا واحدا بصعوبة باصقة في جيبها، وما إن لمحته حتى تنبهت بسرعة ورفعت نصفها العلوي جالسة على الفراش مبددة أي أثر للنوم قائلة في غضب:

-كنت فين يا ابن الموكوسة من امبارح.. أنا قولت اللي ضربوك زمانهم خلصوا عليك وهتجيلي جثتك قطاعي.

-يا أما مالوش لزوم الكلام ده بيعصبني، أنا كنت نايم في المحل وبلوم نفسي أكمني مقصر معاكي بقالي فترة ومع البت سهير اللي تتقطم رقبتها.

-إن شاء الله أنت يا بعيد.. هو فيه زي سهير؟!

قالتها أمه ممصمصة شفتيها ناهرة إياه فقاطعها معاتبا:

-بقى كده يا أما.. وأنا اللي جاي أصالحك ونتغدى مع بعض غدوة ملوكي!

-اتنيل على عين اللي جابوك.. آخر مرة قولت كده أكلتنا لحمة ولا لحمة الكلاب!

-ماشي يا أما.. أنا هطبخلك بنفسي وهتشوفي.. بنتك إيديها مقشفة بتكرف ع اللحمة وهتشوفي الفرق يا أم ميخا.

وتركها ونهض نحو المطبخ ليفتر وجهها عن ابتسامة سعادة على أثر حديثه معها بغير صياح غضب أو سباب، تعد هدوءه في حديثه معها أسمى مراتب البر والإحسان التي ترجوها منه، تعيدها لهجته تلك إلى مكانتها كأم لا خادمة

عجوز.. أم تحمل سعادة طفلة تلهو في غرفة تكدست بالحلوى!

* * *

في عام ٥٩٧م، اشتد الغلاء والفقر بأرض مصر، فهلك الكثير من الفقراء والأغنياء، بعد أن وصل الغلاء إلى حد الجنون.

وقال الشيخ أبوشامة: العادل كفن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحو ٢٢٠ ألف ميت، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر، وأكل الكثير من الصغار والأطفال حيث كان يشوي الوالدان صغيرهما ويأكلانه، وانتشر ذلك بين الناس حتى صار شيئا لا يُنكَر، فلما فرغت الأطفال والميتات أصبح القوي ينقض على الضعيف ويأكله، وكان الرجل الغني يحتال على الفقير فيأتي به ليعطيه شيئا، ثم يذبحه ويأكله.

وكان من الرجال أيضاً من يذبح امرأته ويأكلها، وشاع هذا بينهم بلا إنكار، بل كان يلتمس الرجال العذر لبعضهم البعض، كما وجد عند بعضهم مئات الرؤوس، التى يحتفظون بها إذا شعروا بالجوع. وقتل وذبح الكثير من الأطباء، الذين يُستدعون إلى المرضى، فكان الرجل يستدعي الطبيب ثم يذبحه ويأكله.

كتاب "إغاثة الأمّة بكشف الغُمّة" للمقريزي.

* * *

انتشر الغلاء الفاحش في مصر وأكل الناس بعضهم بعضا، قال الموفق عبداللطيف: كانت مصر في تلك الفترة تصف بالبلد المفترسة؛ فقد ارتفعت الأسعار، وأقحطت البلاد، وضوى أهل السواد والريف إلى الأمهات البلاد،

ودخل منهم الكثير إلى القاهرة واشتد بهم الجوع، وانتشر بينهم الموت وأكلوا البهائم والكلاب، ثم تعدوا إلى أكل الصغار، وعثر على كثير معهم صغار يكونون مطبوخين، فيأمر السلطان بإحراق الفاعل.. رأيت صغيراً مشويا فى حوزة رجل وامرأة، فأحضرا للسلطان فقالا: نحن أبواه، فأمر بإحراقهما، كما أحرق أكثر من ٣٠ امرأة بمصر كل منهن، أقرت أنها أكلت بشرا.

وقال: انه شاع أيضا نبش القبور وأكل الموتى فأخبرني تاجر مأمون حين ورد الكثير من الإسكندرية الى القاهرة زاد عدد السكان وزادت حاجتهم الى الطعام فنبشوا القبور واستخراج العظام وسلقها.

كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير.

* * *

obeikan.com

(١٠)

جلس ثلاثتهم حول أطباق الطعام المرصوصة فوق بعض أوراق الجرائد القديمة على أرضية الصالة، سهير البهنساوي وأمها يمعنون النظر دهشة في وجه مختار البهنساوي، حتى في أصفى حالاته بعد جرعات مكثفة من الحشيش والبانجو والبيرة والترامادول وأقراص الصراصير مختلفة الأنواع والأشكال لن تراه بهذا البال الرائق مع الاحتفاظ بوعيه كاملا!

-أنت مبلبع إيه يا ميخا!؟

نظر إليهما ببلاهة في عدم فهم، برهة من الصمت مرت حتى فهم مقصد أخته أخيرا فانفجر في ضحكات صافية مجلجلة تمتزج بأصوات حلقية أقرب لشخير خنازير لاهية وسط أكوام القمامة!

-ده مبلبع كتير قوي يا بت يا سهير!

-جرى إيه يا بت يا سهير؟!، لو ماكنتش أنا آخد بالي من أهل بيتي مين اللي هياخد باله؟!.. الغريب ولا صاحبي شعبان توك توك؟!

ألقى مختار البهنساوي جملته في تخابث ضاغطا على كل حرف من حروفها ثاقبا عيني أخته بنظراته، شعرت سهير البهنساوي بغصة تسد حلقها حابسة الهواء عن رئتيها وحرارة أصابت جلدها أسالت العرق على مؤخرة عنقها، شعرت وكأن أخاها يضع حد سيف على رقبتها حتى تكاد تشعر بخيط وهمي دافيء من الدماء يسيل على عنقها منتظرة أن يكمل الذبح راجية من الله أن يحسن ذبحتها، ولكن

مختار البهنساوي انشغل في الأكل متشاغلا عنها يعب الطعام بنهم في معدته، ثم توقف فجأة ونظر إليها قائلا بنفس التخابث:

-مدّي إيديكي يا سهير دي لحمة طازة.

ابتلعت سهير البهنساوي ريقها في صعوبة وبدئت الأكل وقالت الأم مشجعة:

-هي اللحمة دي مسكرة يا واد يا ميخا ولا أنا بيتهيألي.. كلي منها يا بت يا سهير دي تهبل!

نظر مختار البهنساوي برضا تام لأمه وأخته اللتان انخرطتا في الأكل معه من أطباق اللحوم التي طهيت وشويت وسلقت بكل طريقة ممكنة، فكر مختار البهنساوي أن يضع لأخته سما وأن يتناول ثلاثتهم العشاء الأخير ليكتشف الأهالي ثلاثة جثث حول مائدة طعام ما من دافنشي ليرسمهم ولا مذيعة سخيفة مملة هي الاستفزاز بذاته تضغط على أعصاب جثثهم للاعتراف بأن أيا منهم هو الفاعل عمدا سائلة في استنكار مفتعل عن دوافعه!

فكر مختار البهنساوي أن يستدرج أخته بعيدا عن المنزل ويذبحها ويبقر بطنها قاتلا إياها وجنين الزنا الذي لابد أنه يرقص الآن برحمها ولكنه تراجع عن ذلك لعدة أسباب من ضمنها المذيعة السخيفة المملة التي هي الاستفزاز بذاته، وجد أن ما يفعله الآن هو الصواب بعينه، سيتظاهر أنه المغفل الذي يتوهمان أنهما يلصقان برأسه قرني الاستكراض.. هو انتقم من صديقه الخائن شعبان الدسوقي الانتقام الذي ترضى به نفسه، والآن يجلس ثلاثتهم حول لحمه النجس يأكلونه بنهم حقيقي جزاء على فعلته، انتقام عادل لا ظلم فيه، هو قد أكل من

لحم أخته وامتص جلده وعرقه واعتصر لحمه بين شفتيه دون رضاه أوعلمه وها هو مختار البهنساوي يأكل لحم هذا الكلب الخائن بغير رضاه ولكن بعلم روحه الآثمة النجسة التي يعلم مختار البهنساوي أنها تحوم الآن فوق مجلسهم حانقة!

لم ينتو مختار البهنساوي حين هدأ غضبه عقاب أخته على ما فعلته، لابد أن هذا الكلب النجس هو من استدرجها أو أجبرها حتى لانت ممانعتها تحت تأثير النشوة ففقد عقلها سيطرته على جسدها، بل إنه رآها المظلومة التي جارت الدنيا على حقوقها فلا مال أو جمال أو نسب أو دين يرفع أسهمها في بورصة الزواج الراكدة بالفعل، هي سمكة بلطية اعتقدت أن كونها سمكة يعطيها الحق أن تعامل معاملة أسماك الزينة متسللة عنوة لحوضهم!

وصل الأمر في النهاية بمختار البهنساوي أن يشكر أخته سهير على أنها تمكنت من أن تحافظ على شرفها حتى وقت قريب دون أن تسلمه لطلبة المرحلة الإعدادية والدبلومات الفنية ليتحرشوا به أو يتوغلوا بخباياه مقابل أن تشعر أنها أنثي تُشتَهى وحتى لو كان ذلك آتيا من أشباه الرجال!

قرر مختار البهنساوي أن يقتصر رد فعله على إجهاضها متى انتفخت بطنها وأن يتكفل بإعادتها "آنسة" عند أي طبيب معدوم الضمير كي يضمن لنفسه وجود الشمع الأحمر على صندوق أسرارها ولكي يضمن عدم استغفاله مرة ثانية!

شعر مختار البهنساوي بأنه "ديوث"، ولم يجد في نفسه أي غضاضة في أن يشعر بذلك!

* * *

لم يخرج مختار البهنساوي من بيته تلك الليلة، ظل كل بضع دقائق ينظر لوجهه في المرآة معتقدا أن ملامحه ستتحول لملامح شعبان الدسوقي تدريجيا ليفتضح أمره، ولكن لم يحدث ذلك، فقط لاحظ أن أخته وأمه تسهران قليلا على غير العادة، لا يدري هل هذا أمر طبيعي أم هو بفعل ألياف لحم شعبان الدسوقي المشبعة بالترامادول، هو لا يشعر بأي تغيير ولن يشعر موقتا بأن نسبة المخدرات في جسد شعبان الدسوقي هي ذاتها في جسده دون أي اختلاف!

الغريب والمريب في الأمر هو الشعور لديه بأن ما فعله مع شعبان الدسوقي انتهاءا بالتهامه يبث في نفسه شعورا بالسعادة لا يمكن وصفه!

ليس لمذاق اللحم الرائع دخل كبير فيما ينتاب مختار البهنساوي من شعور، ولا دخل لزهو الإنتقام بالأمر!

أرجع مختار البهنساوي ذلك إلى القوة التي يشعر بها، تلك النشوة غير المبررة التي يستشعرها.. رغبة داخلية في أن يعبأ في جوفه أرطالا وأرطالا من اللحم البشري الطازج، نشوة التفرد!

يتذكر فيلما قديما شاهده في التليفزيون في إحدى المرات أثناء جلوسه على المقهى لإمرأة تأكل كبد قاتل أبيها في فجر الإسلام، لا يعرف بالطبع مختار البهنساوي أن هذا كان فيلم الرسالة والذي أدعوا فيه بالباطل أن من أمر بالتمثيل بجثة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ولاكت كبده هي هند بنت عتبة!

كان مختار البهنساوي ينتوي أن يبيع لحم شعبان الدسوقي وسط أرغفة

الحواوشي والكفتة ولكنه قرر أن يستأثر بهذا اللحم الطازج تاركا لعامة الناس اللحوم المنتهية الصلاحية واللحوم التي تحصل عليها من الماشية النافقة والحمير والتي اعتادوا عليها واعتادت عليها معداتهم وأحشائهم طامثا طعمها المنفر ورائحتها العفنة بالكثير من التوابل الحارة، لو استخدم لحما طازجا لاشتكوا من سوء مذاقه!

* * *

obeikan.com

(١١)

خطى سعيد عبد الجليل إلى داخل المقهى فارزا الوجوه القليلة الجالسة بالداخل حتى عثر على ضالته، كان على غير العادة جالسا في أحد الأركان وأمامه على المنضدة كتاب ضخم وكوب من القهوة حاشرا في فمه مبسم لي الشيشة..

-دكتور كرييييم.

انتزع كريم الشرقاوي عينيه من الكتاب أمامه ليجد سعيد عبد الجليل واقفا إلى جواره.

-أهلا يا أبو سعيد.. واحد لمون هنا يا عم حجازي..

-تسلم يا دكتور ربنا يخليك.. كلك واجب.. أنا معطلك؟!

سأله سعيد عبد الجليل وهو يجلس على الكرسي الآخر أمام كريم الشرقاوي.

-لا يا راجل معطلني إيه بس.. أنا مخلص من بدري بس بسلي وقتي.

استشعر سعيد عبد الجليل الكذب الواضح في صوت كريم الشرقاوي الذي لا يريد أن يتسبب في إحراجه بإخباره عن انشغاله الواضح بالمذاكرة، ولكنه جلس قبل أن يجبره الخوف على التراجع عما جاء بسببه، ظل صامتا حتى حضر عصير الليمون الطازج ثم تحدث قائلا وابتسامة قد توترت على وجهه:

-احنا هنشرب اللمون يا دكترة وبعديها تيجي تشرب الشاي عندي علشان أنا كنت قاصدك في خدمة ومش هينفع نتكلم هنا.

قطب كريم الشرقاوي جبهته دلالة على اهتمامه غير متوقع لما يريد سعيد عبد الجليل طلبه منه، استبعد تماما أن يكون ينتوى استدانة بعض المال وبخاصة أنه عرفه حتى تلك اللحظة عفيفا لا تسمح له كرامته بفعل ذلك.

-خير يا سعيد فيه حاجة حصلت ولا إيه؟!

-لا يا دكترة.. كله خير والله.. خلص الحجر والقهوة وأنا أشرب اللمون ونقوم.

قالها سعيد عبد الجليل ثم جعل ينتظر مقدم كوب الليمون ليرتشف منه ببطء متلذذا بمذاقه في فمه.

* * *

لم تتوقف الحياة بالطبع لاختفاء شعبان الدسوقي المفاجيء هو وتوك توكه!

أمه وأخوه الصبي وأخواته البنات الثلاثة لم يحزنوا لاختفاءه حقيقة قدر حزنهم على اختفاء التوك توك!

كان شعبان الدسوقي أيقونة البلطجي التي يتحاشى الناس كل من لهم علاقة به خوفا من بطشه!، أخواته البنات يضقن زرعا بأفعاله التي تمنع العرسان من الاقتراب منهن، أمه ملت من شكوى الناس لها من أفعاله!، اكتفت عائلته بالسؤال عنه عند كل من يعرفونه ولم تجسر أمه على الاقتراب من قسم الشرطة خوفا من أن يكون للداخلية ثأر عند ابنها فيتحفظون عليها حتى ظهوره!

أما اختفائه لا شك قد ترك أثرا طيبا في نفوس كل من يعرفونه، لسوف تطيب لهم الحياة في نفوسهم طالما ظل مختفيا وظلوا بمنأى عن شروره!

obeikan.com

هل قُتِلَ في شجار؟! هل أُصِيبَ في حادث مروع وفقد الوعي ويرقد مسجيا أسير غيبوبة في أحد المستشفيات أو فاقدا للذاكرة؟! هل اعتقلته الشرطة بسبب إفساده في الأرض بغير رضاها عنه وعن أفعاله؟!

اسئلة تدور في رؤوس كل من يعرفونه سعيدين باختفاءه أيا كان السبب السعيد! لكن على الأرض لم يكن هناك من هو أشد بؤسا وشقاء من سهير البهنساوي! القدر يصر على أن يخسف بها إلى سابع أرض بعدما ارتقت بروحها بفعل سعادتها إلى السماء السابعة! ما كادت تستطعم في غنج مذاق السعادة بين أحضانه بعد حرمان طال حتى لاح لها في الأفق شبح اختفاء شعبان الدسوقي وما لبث أن تجسد لها حقيقة مؤكدة تصر على أن تذبحها بسكين تلم.

حتى عندما يقرر القدر ذبحها لا يُحسِن الذبحة!

يا لقبح حظك يا سهير، مَن مِن بعدك يا شعبان يا دسوقي يتكفل برغباتها الروحية والجنسية، من ذا الذي يرضى ويقبل – وإن كان مجبرا – على الاقتراب منها من بعده!

أسبوع كامل عانت خلاله من اختفاءه غير المبرر، زارت خلاله ضريح سيدي عيسى الخزرجي وضريح الشيخ جودة تبركا بكراماتهما المزعومة راجية أرواحهما أن تتوسط لها عند ربها ليعيد إليها شعبانها الدسوقي والذي لن تقوى على فقده، أسبوع كامل مر أليما زارت خلال يوم كامل فيه الشيخ الدجوي والشيخ مرزوق والشيخ الحسيني والشيخة أم مصعب ليفتحوا لها الكتاب ويصنعوا لها الحجاب ويشعلوا لها البخور ويطلبوا منها النذور ليسئلوا أسيادهم وأفلاكهم عن

جسد شعبانها الدسوقي أو جثته أو روحه فلا يجدوا شيئا ولا يجيبونها!

شعبانها الدسوقي الوحيد الذي أشعرها أخيرا أنها أنثى!

أسبوع كامل مر عليها بوجه أصفرته وأذبلته لهفتها واشتياقها وقلقها، أسبوع كامل كان كافيا لتذبل عينيها من طول بكائها كل ليلة في حضن أمها.

-مالك يا بت يا سهير؟!

-أنا بعنس يا أما..

تجيب أمها كاذبة بين بكائها ونشيجها ومخاط يسيل من فتحتي أنفها ولعاب مقزز برائحة الكشري يسيل من فمها الذي فقدت السيطرة على إغلاقه، تظل على هذا الحال حتى يغلبها الإرهاق ويهدها النعاس فيريحها النوم من عذاباتها!

أسبوع كامل تدعو وتبتهل إلى الله أن يكون اختفاءه هربا أو قسرا وألا يكون لعلة الموت الذي قرر أن يضع حدا لجبروته، في كل الأحوال يمكنها أن تجتهد لتعيده إلى أحضانها وفرجها إما باللين وإما بالحيلة والأعمال السفلية والسحر، أما خيار الموت فيجعل رجوعه مستحيلا والتفكير في صبر وسلوان مستحيلا آخرا!

سهير البهنساوي زهرة ذابلة بلا لون مميز ولا رائحة قرر القدر أن يعريها من بتلاتها الذابلة بالفطرة ثم يدهسا دهسا ليسويها بالأرض!

كئيبة صارت كنشرات الأخبار وعناوين الصحف!

* * *

ارتشف كريم الشرقاوي آخر القطرات من كوب الشاي بين يديه ناظرا لسعيد

عبد الجليل الذي يتهرب من نظراته منتظرا إخباره بالأمر الهام الذي أتيا ها هنا من أجل الحديث عنه.

-إيه يا أبو سعيد قلقتني؟!

بدا على سعيد عبد الجليل التوتر متمهلا قدر الإمكان لاختيار كلماته التالية.

-فاكر يا دكترة لما قولتلي أن مش حرام اللي بتعملوه في جثث البني آدمين وعضمهم علشان دي خدمة للإنسانية؟!

-آه طبعا.. فاكر.

أجابه كريم الشرقاوي في ريبة من سؤاله هذا.

-طب هات سيجارة.

طلب منه سعيد عبد الجليل سيجارة محاولا اكتساب المزيد من الوقت ومحاولا حرق توتره مع تبغ السيجارة ونيكوتينها وقطرانها، ناوله كريم الشرقاوي واحدة وأشعلها له بنفسه بقداحته فسحب سعيد عبد الجليل دخانها لعمق صدره حتى قضى على نصفها في شهيق واحد ثم حبس الدخان بصدره ليخرجه ببطء شديد، بدئت كلماته تخرج مع الدخان قائلا:

-أنا عايز أخدم العلم والبني آدمين يا دكترة.

الجدية التي نطق سعيد عبد الجليل بها كلماته دفعت كريم الشرقاوي للضحك بعفوية قائلا:

-احنا بنشرح جثث بس يا سعيد، ما ينفعناش الصاحيين.

obeikan.com

توقف كريم الشرقاوي برهة وكأنه تذكر شيئا ثم تابع مستطردا:

-لو أنت قصدك على الحالات اللي بيتجيلنا ندرس الأمراض عليها أو نمتحن عليها وتمشي فأنت بسم الله ما شاء الله يعني صحتك بمب.. لازم تبقى الـ(Case) عيانة بجد.

لم يبد على سعيد عبد الجليل أي إنصات لكلمات كريم الشرقاوي وتركه ونهض من الأرض ليحضر له من أسفل الفراش ملاءة ملفوفة على شيء ما، وضع الملاءة أمامه وفض عقدتها لتتسع حدقتا كريم الشرقاوي في ذهول.

-ده عضم أبويا يا دكتور كريم.. هتطلعهولي صدقة للطلبة زملاتك يزاكروا عليه.

* * *

obeikan.com

(١٢)

لم تسعفه الكلمات وهو يحدق مذهولا في كومة العظام الموضوعة أمامه حتى انتزعه سعيد عبد الجليل من ذهوله قائلا:

-ساكت ليه يا دكترة.. زي ما يكون أول مرة تشوف فيها عضم!

-أنت ليه عملت كده في أبوك يا سعيد!؟

ضرب سعيد عبد الجليل كفا بكف قائلا في دهشة يشوبها بعض السخرية:

-لا إله إلا الله يا دكترة.. مش أنت قولتلي مرة أن الدراسة على الأموات ضرورية عشان يقدر الدكتور يحافظ على حياة اللي عايشين؟!.. أبويا دلوقتي عضم، بعد شوية هيبقى تراب، خلاص مفيش أمل أنه يصحى تاني في يوم من الأيام يا دكترة، وأبويا علمني ورباني على أن الحي أبقى من الميت، أبويا روحه هتكسب ثواب ياما في السما السابعة عن كل طالب هيدرس على عضمته.

-أنا بس..

-ما بسش يا دكترة.. قاطعه سعيد عبد الجليل ثم تابع ضاحكا.. إياك بس تبيع دماغه لبتوع البودرة.

انبسطت ملامح كريم الشرقاوي مبتسما من دعابة سعيد عبد الجليل ثم قال في استسلام:

-خلاص زي ما تحب يا سعيد.. بس يا رب ما تجيش في يوم تقولي رجعلي عضم أبويا علشان مش هقدر ساعتها.

-مالوش عازة العضم يا دكترة.. أرض التربة خلاص شربت لحمه وحشاه.. أبويا في التربة وعمره ما هيفارقها حتى لو فرقت العضم اللي معاك كل عضمة في حتة.

قال سعيد عبد الجليل جملته الأخيرة ضاحكا في غموض لم ترتح له نفس كريم الشرقاوي.

* * *

عّدل من نظارته الطبية فوق أرنبة أنفه الأشبه بكريّة صغيرة، نظارته الثمينة التي يتدلى من زراعيها سلسلة فضية تحيط بعنقه، ثم قال مداعبا الفتيات الحاضرات:

-الواحدة من دول تقولك إف ويع وياااي في السكشن.. في بيت جوزها تلاقيها بتفعص في بطن الفرخة بتنضفها عادي، وبتنضف لغوصة البيبي وتغيرله البامبرز عادي.

انفجر الطلاب الحضور من شباب وفتيات في نوبات من الضحك على دعابة ماجد أبو الخير والتي إن قالها شخص غيره لكانت سمجة!

معظم الذين ينتظمون في دروس خاصة خارج الكلية في مادة التشريح يذهبون للدكتور ماجد أبو الخير، مدرس مادة التشريح بكلية الطب البشري ومستشار لجنة الجوالة بالكلية.

الدكتور الذي يتمتع بكاريزما تعجز الكلمات العادية عن التعبير عنها أو محاولة توصيفها، أسلوبه الساخر وبساطته المدهشة تملكا عقول وقلوب الطلاب، ولا

عجب في أن أغلب الطالبات يعددنه فارس أحلامهن.

كريم الشرقاوي كان من الطلاب الذين ينتظمون في دروسه خارج الكلية وعلى علاقة طيبة للغاية معه لإشرافه على لجنة الجوالة بالكلية التي أعاد كريم الشرقاوي لها بريقها.

كان من عادة الدكتور ماجد أبو الخير أن يعطي محاضرات عملية للطلاب على جثة حقيقية وخاصة أن الطلاب مؤخرا في الجامعة أصبحوا يدرسون التشريح على جثث تم معالجتها وحفظها عن طريق البلستكة، لذا كان الأمر في السنوات الأخيرة يعد تجربة فريدة مع ماجد أبو الخير للأجيال التي لم تتعامل مع الجثث المحفوظة بالفورمالين.

لم يكن ماجد أبو الخير يخشى أي عاقبة لأفعاله اعتمادا على الطلاب والطالبات الذين ينتظمون في دروسه من أبناء القضاه والمستشارين وعمداء ولواءات الشرطة والجيش من علية القوم بالإضافة إلى صِلاته المعقدة والمتشعبة خارج الجامعة وأقاربه الذين يتولون مناصب مرموقة وسيادية في الدولة.

لتلخيص الأمر ببساطة، كان من ذوي النفوذ، وكان ذلك كافيا في هذه البلاد لضمان حمايته من أي مسائلة قانونية أو أدبية!

من كان له ظهر في هذه البلاد فلن يتجرأ أي أحمق بضربه على بطنه!

ولكن لسوء حظ طلاب هذه السنة فلم يتمكن الدكتور ماجد أبو الخير من توفير الجثث كعادته، أصبح الحصول على جثة تلك الأيام أمرا مستحيلا، اعتاد أن يحصل عليها كل مرة بالطرق غير الشرعية، بل وصل ابتزاز الموردين لرفع

الأسعار لثلاثين ألفا للجثة الواحدة!

وكان الدكتور ماجد أبو الخير يرفض أن يرضخ لابتزاز جشعهم!

* * *

تمضي الأيام بكريم الشرقاوي مقسما وقته ما بين التفكير في لويزا الرفاعي، والانتظام في دراسته الجامعية وأنشطة لجنة الجوالة، والجلوس على المقهى وسط عجائزه، والسهر إن إمكن مع سعيد عبد الجليل وسط قبوره وعظامه، والاجتهاد في بيع عظام الأخير الذي كف عن الإدعاء أنها عظام ابيه وأخذ يساعده في دهانها بالورنيش، ثم ينتهي الأمر به بالتفكير في لويزا الرفاعي!

لم يعد لدى كريم الشرقاوي وقتا ليشعر فيه بالوحدة حتى في بيته الذي سكن به معه شلبي الأولعبان.. أو للدقة تلك الجمجمة التي اسماها كذلك!

أصبح يستذكر دروسه مع شلبي الأولعبان ويبوح له بمكنونات صدره وأسراره وشكواه ونجواه، شلبي الأولعبان الذي لا يبخل عليه بنصيحة ولا يقاطعه في حديث، كم استأنث كريم الشرقاوي شقته بعد استضافة شلبي الأولعبان!

شلبي الأولعبان نجح أخيرا في أن يقنع كريم الشرقاوي بمحاولة مساعدة الدكتور ماجد أبو الخير في حل مشكلة هذا العام والتي تتمثل في صعوبة الحصول على جثث الموتى لدروسه العملية الخاصة، كريم الشرقاوي اقتنع بوجهة نظر شلبي الأولعبان ومنطقه القويم، انفرد في اليوم التالي بالدكتور ماجد أبو الخير في مكتب الأخير وعرض عليه الأمر.

-كريم أنا مش عايز مشاكل.

قالها الدكتور ماجد أبو الخير مرخيا نظارته على أرنبة أنفه وناظرا لكريم الشرقاوي من فوقها محذرا.

-عيب يا دكتور ماجد.. بس الراجل التربي هيحتاج يتراضى وطالب ٣٠ ألف!

ضرب الدكتور ماجد أبو الخير كفيه ببعضهما في استنكار واستياء قائلا:

-ولاد الكلب دول بيستحلوا الفلوس دي إزاي!.. قوله هما عشرين ألف بس إن كان عاجبه، وعلشان أنا زهقت من الموال ده والامتحانات قربت، إحنا مش هناخد جثة حتشبسوت يعني!

ابتسم كريم الشرقاوي في ثقة قائلا:

-اعتبرها خلصت يا دكتور ماجد، أنا عمري ما قصّرت رقبة حضرتك في الكلية، سيبلي الموضوع واعتبره خلصان.

-أهم حاجة أنا مش عايز مشاكل يا كريم، وقوله يا سيدي الرحمة شوية، دي الرحمة بتجوز ع الميت والحي!

قالها مداعبا ومشيرا لنفسه مدعيا أنه من الأحياء الذين تجوز عليهم الرحمة!

* * *

مع دقات الساعة الحادية عشر قبل منتصف الليل تنبه سعيد عبد الجليل إلى صوت طرقات خفيفة متعجلة على باب داره، ظن أنه أحد أقارب الموتى أو هو مختار البهنساوي جاء ليقضي سهرته معه، ولما كان يكره تجهيز القبور ليلا، لا لخوف ولكن لمجهود مضاعف بسبب ظلام لا تبدده كشافات الإضاءة التي

obeikan.com

يحملها أهل المتوفي فقد تمنى في نفسه الخيار الثاني!

حين فتح الباب لم يكن أحد خياريه صحيحا!.. فقد سد الباب جسد ضخم لرجل ملثم بشال أبيض يرتدي جلبابا فلاحي الطراز تسمح فتحتي كميه بعبور خرتيت بقرونه دون أي عناء، وعلى أرنبة أنفه نظارة سميكة الإطارات وسميكة العدسات من طراز قعر الكوب كما يطلق عليه العامة، محني الظهر متوكئا على عصاه.

-أنت مين يا حاج أنت؟!

أنزل القادم لثامه ورفع نظارته من فوق عينيه لتتسع عينا سعيد عبد الجليل من وقع المفاجأة.

-الشيخ حسن؟!!!!

-مفيش اتفضل طيب يا ابن الأصول؟!

قالها الشيخ حسن عبد التواب ممازحا ثم نظر خلفه في توتر ثم دخل مغلقا الباب خلفه وسعيد عبد الجليل صامت كالقبور المصطفة بالخارج وقد شل لسانه!

-مالك يا سعيد يا ابني مصدوم كده ليه؟!، ولا كأنك شفت عفريت؟!.. إيش حال إنك عايش طول عمرك وسط العفاريت!

-لا.. أصل الـ..

لم تسعفه الكلمات، فأشار إلى النظارة في يد الشيخ حسن عبد التواب الذي كان قد إزداد وزنا وكأنه كان يمضي وقته يأكل من طعام الجنة في الفردوس الأعلى فوق السماء السابعة أو يُعلَف بعلف البهائم على الأرض وقد أعفى لحيته

فاستطالت وغزاها الشيب لتصطبغ باللون الأبيض!

-ودقنك يا شيخ حسن..

أطلق الشيخ حسن عبد التواب ضحكة ساخرة متفهمة لدهشة سعيد عبد الجليل البادية على وجهه وجميع جوارحه، ثم نهض إلى الحوض وبلل طرف لحيته بالماء لتستعيد سواد لونها قائلا:

-دي بودرة تلك يا ابن الأصول لزوم الشغل، الواحد لازم يتنكَّر صح من زبانية أمن الدولة وعبدة الطاغوت دول عقبال ما اسيبك ع الفجر كده نختفي في مكان أمان، ما تعملنا كوبايتين شاي كده يا أبا عبد الجليل وتعالى طمني على أخبارك وتقولي بقى سيبت الورشة ليه.

بملامح جامدة ترفض الاستجابة لتودد الشيخ حسن عبد التواب شرع سعيد عبد الجليل في إعداد الشاي لكليهما، لم يعد يجد في نفسه الشاب الذي يحمل العرفان بالجميل للرجل الذي عمل لديه جل عمره!

-البقاء لله في أبوك الشيخ عبد الجليل يا سعيد يا ابني.

تيبست يد سعيد عبد الجليل في موضعها وتباطء الزمن من حوله ليمر أمام عينيه شريط حياته وزكرياته مع ابيه انتهاء به وهو يكشف وجهه في قبره ليشاهد احتقان وجهه من أثر الاختناق.

-ألا بالحق أنت كنت فين الفترة اللي فاتت دي يا عم الشيخ حسن؟!

* * *

سهير البهنساوي كانت تواجه مشكلة عسيرة الحل!

طال اختفاء شعبان الدسوقي ولا تكاد تجزم أن لأخيها له يد في الأمر أم لا!.. هو يعاملها معاملة حسنة على غير المعتاد وذلك أمر في ظاهره يدعو للريبة، ولكن تلك لم تكن المشكلة.

مشكلة سهير البهنساوي الرئيسية أنها اكتشفت مؤخرا كونها أنثي، قد لا يتفق الجميع على هذا الرأي ولكنها تظل في بطاقتها الشخصية وفي شهادة مولدها تصنف كأنثى وتمتلك جهازا تناسليا أنثويا مثل أي أنثي ويفرز مبيضاها الاستروجين والبروجسترون بحماس، أنثى حرمت سنين طوال من رجل حتى ظهر لها شعبان الدسوقي الذي اعمته المخدرات فأشعرها بأنوثتها وطارت من سعادتها معه بعلاقتهما الآثمة! ثم أختفى شعبان الدسوقي اللعين فجأة!

شهواتها الجنسية غريزة فطرية لا دخل لها بها ولا سلطان لها عليها، شعبان الدسوقي أيقظ شهواتها بعد خمول دام سنوات طامعة في العفة والآن هي وحيدة بلا رجل ولا تستطيع أن تحصل على رجل آخر لا عن طريق الحلال ولا عن طريق الحرام!

مصيبتها كارثية!

* * *

بعد قتل عمار بن ياسر رضى الله عنه، حدثت هزّة شديدة في الجيشين، جيش علي بن أبي طالب رضى الله عنه وجيش الشام؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن عمارًا رضى الله عنه تقتله الفئة الباغية، وها هو رضى الله عنه قد

قُتل على أيديهم فهم إذن الفئة الباغية، وليسوا على الحقّ.

أبو عبد الرحمن السلمي، وهو من جيش علي بن أبي طالب رضى الله عنه، تسلل في هذه الليلة إلى معسكر الشاميين، وسمع حوارًا يدور بين أربعة من قادة الشاميين هم: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله، وأبو الأعور السلمي. فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: يا أباه، قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال؟ فقال عمرو بن العاص رضى الله عنه: وما قال؟

فقال: ألم يكن معنا ونحن نبني المسجد، والناس ينقلون حجرًا حجرًا، ولبنة لبنة، وعمار ينقل حجرين حجرين، ولبنتين لبنتين، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح التراب عن وجهه ويقول: "وَيْحَكَ يَا ابْنَ سُمَيَّةَ تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ".

فلما سمع عمرو بن العاص هذا الكلام من ابنه عبد الله ذهب إلى معاوية وقال له: يا معاوية أما تسمع ما يقول عبد الله؟

فقال: وما يقول؟

فقال: يقول كذا وكذا وأخبره الخبر.

فقال معاوية: إنك شيخ أخرق، أَوَ نحن قتلنا عمارًا، إنما قتل عمارًا من جاء به.

* * *

(١٣)

مشكلة الشيخ حسن عبد التواب أنه كان إخوانيا حتى النخاع، إخواني القلب والهوي، تجري بدمائه كرات دم بيضاء وحمراء وصفائح دموية نقش عليها المصحف والسيفان المتقاطعان أسفله، ومشكلة جماعة الإخوان المسلمين الأبدية فكانت اعتقادهم في أنفسهم أنهم كائنات أرقى بمراحل من سائر البشر، حلقة جديدة في سلسلة التطور تشترك في سلف واحد مع بني آدم فيما قبل حسن البنا!

يعتقدون في عقول الآخرين الإنحناء وفي عقولهم الاستقامة.. في عقول الآخرين الهمجية وفي طبائعهم التنظيم، وتلك الأخطاء العقائدية ربما جاء الوقت لدفع حسابها!

حين سأل سعيد عبد الجليل الشيخ حسن عبد التواب عن اختفاءه طوال الفترة السابقة لم يكن يسأله بدافع قلقه عليه أو الاطمئنان على حاله، ولذا لم يهتم كثيرا بالإنصات لكلمات حسن عبد التواب المعسولة التي غزلها ونظمها في تبرير هروبه واختفاءه هو وكل من كان قيادة تنظيمية قبل الفض مباشرة وبعده.. لم تكن كلمات الشيخ حسن عبد التواب عن فقه الأولويات، والضرورات التي يحق لها أن تبيح المحذورات، وعدم التزامهم بالكر والفر ولكن تمسكهم بالفر والفر لتقنع سعيد عبد الجليل بأنهم فعلوا الصواب!

لم يتأثر سعيد عبد الجليل وهو ينظر للشيخ حسن عبد التواب الذي أسبل جفنيه وارتدى قناع الخشوع الزائف وهو يتلو قول الله تعالى "ومن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فلا إثم عليه".. كيف يربط هذا الخرتيت بين هذه الآية وبين فرارهم كالفئران المذعورة!، هكذا حدث سعيد عبد الجليل نفسه.

كيف يرى كل من له صفة تنظيمية ممن فروا أن حياتهم أغلى وأثمن من الأطفال والنساء الذين حشدوهم في الاعتصام وتركوهم ليلاقوا حتفهم!

كيف يسامحون أنفسهم على كل من مسحوا عقولهم وسعيد عبد الجليل أولهم وإن لم يكن آخرهم!

يتذكر قصة الصحابي الذي قال عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بأنه تقتله الفئة الباغية، تلك القصة التي سمعها مرة من الشيخ شوقي المراكبي في مسجد الإيمان المجاور للمقابر!

من قتل أباه هم الفئة الباغية التي أخرجته وأباه من بعده للاعتصام.

من قتله هو الشيخ حسن عبد التواب وجماعته!

ما استفز سعيد عبد الجليل أن الشيخ حسن عبد التواب على الرغم من قتله للقتيل، إلى أنه لم يكلف نفسه عناء السير في جنازته، بل أتى إلى ابن القتيل بعد شهور من موت الأب ليتظاهر بأنه يهتم بشأنه وشأن أبيه عبد الجليل وهدان رحمه الله!

ارتفعت عينا سعيد عبد الجليل في غل باحثة عن سكين.

"من قَتَلَ يُقتَل"

راحت العبارة تتردد في ذهنه داعية إياه إلى القصاص العادل، تحفزت بالفعل جميع جوارحه.. فجأة خرس الصوت بعقله وحل محله صوت هادىء خاشع أثلج صدره وهو يسمع صداه يتردد في عقله وقلبه.. "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس".. لانت ملامح سعيد عبد الجليل وهدأ غضبه الهادر قليلا.

-متوضي يا أسطى حسن نصلي ركعتين؟!

-الحمد لله طول الوقت على طهارة يا ابن الأصول.. هقوم أعيد ع الوضوء ونجدده..

قالها الشيخ حسن عبد التواب مبتسما ابتسامته اللزجة دليلا على سعادته بعدم فقدان قدرته على خداع تابعيه والتأثير فيهم ونهض تجاه الحوض موليا سعيد عبد الجليل ظهره قائلا:

-أنت عارف يا سعيد يا ابني إني كل ما أشوف حوض افتكر وقفتنا حوالين سيدك النبي على حوض الكوثر نشرب من ايديه الشريفة شربة هنيئة لن نظمأ بعدها أبدا..

لم يتعجب سعيد عبد الجليل ولم يعقب على ثقة حسن عبد التواب بأنه وجماعته من الشاربين من الحوض وقد اعتاد منهم جميعا تلك الثقة المفرطة!

يثقون أنهم شعب الله المختار أكثر من ثقة اليهود أنفسهم من ذلك الأمر وكلاهما في الخطأ سواء!

أنهى حسن عبد التواب وضوءه وما كاد يلتفت لسعيد عبد الجليل سائلا عن

المنشفة حتى فوجيء بشيء ثقيل يرتطم برأسه في غل مرة وثانية وثالثة ورابعة، لم يسعفه وعيه للشعور بالضربة الخامسة وقد سقط على الأرض فاقد الوعي ليجثم سعيد عبد الجليل فوق صدره محاولا تفتيت عظام جمجمته بلوح خشبي سحبه من أسفل فراشه حتى تأكد تماما من القضاء عليه، ثم فصل رأسه عن جسده في هدوء!

نهض سعيد عبد الجليل في رضا تام من فوق الجثة وغسل يديه من آثار الدماء وأمسك هاتفه المحمول الرخيص طالبا النجدة!

* * *

لو لم يكن القتل أبشع جريمة دينية ودنيوية لكان أفضل وسيلة لإخراج طاقات الإنسان السلبية!

* * *

عندما اتصل سعيد عبد الجليل بالنجدة لم يطلب ثلاثة أرقام كما يفعل الجميع، ولكنه اتصل بنجدته الشخصية.

اتصل بمختار البهنساوي!

وجد نفسه يتصل به طالبا مساعدته في مهمة تشبه مهمتهما السابقة مع شعبان الدسوقي، لم يفكر مختار البهنساوي حينها كثيرا، فسعيد عبد الجليل وفر له مصدر سعادته وأفيونه الخاص المتمثل في لحم آدمي!

ربع ساعة وحسب كانت كافية لأن يصل مختار البهنساوي لدار صديقه حاملا

عدته وعتاده، تلك الليلة سيعانق مختار البهنساوي فيها القمر من فرط سعادته!

كان الليل مظلما نسبيا في المقابر لا ينيره إلا ضوء القمر الذي بث الرهبة في صدر مختار البهنساوي وهو يخطو بين القبور خائفا يترقب، يخشى أن تخرج جثث الموتى من قبورها مطالبة بدفنة شرعية للجثة الراقدة في بيت سعيد عبد الجليل منتظرة التمثيل بها!

طرق باب سعيد عبد الجليل ففتح الأخير في حذر وما كاد يراه حتى جذبه من ملابسه ليسرع من دخوله وأغلق الباب من خلفه.

-ايه يا صعيدي، الكلام المرادي على إيه؟!

سأله مختار البهنساوي ضاحكا في سعادة طفولية!

-ده كان تار أبويا الله يرحمه وأخدته من اللي قتلوه يا ميخا.

-يا نهار أبوك أسود.. قتلت ظابط؟!

سأله مختار البهنساوي مذعورا وقد بدء يرتجف وحمل أدواته وعدته وهم بالخروج هاربا فأمسك سعيد عبد الجليل عضده بعنف معنفا:

-ما تثبت كده يا ميخا.. هو حد جاب سيرة ظابط يا ابو عمه.

-أمال مين يا عم أنت..؟!

سأله متعجبا مختار البهنساوي وأزاحه جانبا واتجه نحو دورة المياه حيث يرى ساقين فقط لجسد ممدد على الأرض وما إن سقط بصره على رأس الجسد الموضوعه على بطنه حتى شهق في دهشة وقد تبين ملامح وجه صاحب الرأس

obeikan.com

الذي كادت أن تغطيه الدماء بالكامل.

-مش ده الشيخ حسن يا صعيدي!؟

-آه يا ميخا.. مش بقولك خدت تار أبويا.

عاد الهدوء لمختار البهنساوي ثانية وأشعل سيجارة وعبأ صدره بدخانها ثم تحدث بكلمات اختلطت بالدخان قائلا:

-هما عالم ولاد (...) صحيح.. بس الراجل ابن الكئيبة ده كان ليه فضل عليك يا صعيدي.

-كان يا سي ميخا ولخص مش هنقضيها صعبانيات!

نظر له مختار البهنساوي في لوم وتركه ليخرج أدواته وخلع كلاهما ملابسهما مكتفيان بما يكفي لستر عورتهما وهَمَّ مختار البهنساوي بتمزيق ملابس حسن عبد التواب ولكنه تراجع وعلى وجهه علامات التقزز!

-إيه أم الريحة دي يا صعيدي.. أنت مش هتبطل (كلمة عامية دارجة تزدحم بحرف الطاء والراء وتعني التبول) على الزباين!.. ما كفاية يا جدع إنه (كلمة عامية دارجة تزدحم بحرف الشين والخاء وتعني التغوط) على نفسه!

قالها مختار البهنساوي ملتقطا خرطوم المياه ومغرقا الجثة بالمياه ثم مزق ملابسها وشرع يمارس هوايته الحديثة التي تملئه سعادة وسرور مقطعا الجثة ليحولها للا شيء!

-الزبون المرة دي عجل صغير وهيتعبنا.. مش زي البرص اللي فات.. بسم الله..

وانقض مختار البهنساوي على ذبيحته محدثا شقا طوليا بالبطن وسعيد عبد الجليل يساعده في رضا تام!

* * *

يهوي سعيد عبد الجليل أرغفة السمين التي يهاديه بها مختار البهنساوي وبها ما لذ وطاب من رئة وطحال ولحم رأس وما اشتملت عليه بطون الأنعام من حلوى، كان يرفض أن يضع له الأخير الطحينة عليها ليستمتع بمذاقها الرائع الدسم المختلط مع النصف جرام من الجرجير وأحيانا البقدونس الذي يضعه مختار البهنساوي داخل الرغيف.

يعتقد سعيد عبد الجليل مثل الجميع أن ما بداخل تلك الأرغفة ربما يكون لعجل أو بقرة برازيلية الجنسية نافقة فصدَّروا أشياءها المجمدة لدول العالم الثالث ممن تستطيع معدتهم أن تهضم فولا، أو أن ما بداخل تلك الأرغفة ربما يكون لكلب مصري الجنسية أو على أحسن تقدير لحمار نافق أو ذبح على الطريقة الإسلامية من أجل تشجيع المنتج المصري، يعلم سعيد عبد الجليل كل ذلك جيدا ولكنه لا يجد مع هذه الاحتمالات سببا كافيا كي يتخلى عن مذاق تلك الأرغفة الرائع الذي يرفعه إلى السماوات العلى وكأنه درويش صوفي في حضرةٍ يكاد أن يغشى عليه!

كانت الشمس قد بدئت رحلتها نحو الغرب وسعيد عبد الجليل يجلس أمام طاسة وضع بها قليل الزيت فوق موقد غاز أحادي الشعلة يطهو عشاءا أو إفطارا إن صح التعبير باعتباره أول ما يدخل جوفه منذ الليلة الماضية.

أقل من دقيقة كانت كافية لإنضاج هذا الخليط من الكبد والرئة والطحال والقلب مختلطا بالكثير من التوابل الحارة التي أهداها له مختار البهنساوي، كانت ليلته الماضية طويلة عليه برفقة مختار البهنساوي ليتخلصا من جثة حسن عبد التواب، تم الأمر بسرعة فاقت مثيلتها مع جثة شعبان الدسوقي وقد صار مختار البهنساوي أكثر خبرة في التعامل مع أجساد البشر أو جثثهم إن شئنا المزيد من الدقة.

نادرا ما كان غموس سعيد عبد الجليل في عشاءه بهذه اللذة!

لم يستشعر هذه المرة أيضا أي ندم، لقد أخذ بثأره من قاتل ابيه ولم تكن قوانين الأرض وعدل قضاتها بقادرين على أن يعيدوا حقه آخذين بثأره، لا يخشى سعيد عبد الجليل الصعيدي من أن تصيبه دسامة عشاءه بالكوابيس، فالكوابيس هي الأحق أن تخشى أن يظهر بها، لم تهتز له شعره وهو يخبر الرسول الذي أرسل إليه ليسأله عن حسن عبد التواب بأنه تركه ورحل مع آذان الفجر، هو لم يكذب حينها وقد تركهم حسن عبد التواب ورحل قبل آذان الفجر.

ما كان يشغل بال سعيد عبد الجليل في تلك اللحظات أنه يتوجب عليه أن يتذكر في المرة القادمة أن يضيف لوجبته في المرة القادمة المزيد من الشطة!

* * *

لن ينسى مختار البهنساوي طوال حياته ذلك الجميل الذي فعله معه سعيد عبد الجليل هذا الصعيدي الشهم، فما كاد ينفذ مخزونه من لحم شعبان الدسوقي حتى فاجأه بهدية جديدة دون عناء يذكر، كان مختار البهنساوي يفكر جديا في

الأيام الماضية أن يسعى بنفسه لتوفير مخزونه ولكنه كان يخشى أن يتحول لقاتل مسعور يعميه ويغيب وعيه جوعه للحم بني آدم رائع المذاق.

هو يعلم أنه قد أرتكب جميع الذنوب ما كبر منها وما صغر باستثناء ذنوب قليلة تحصى على أصابع اليد الواحدة وكان من بينها القتل، هو لم يقتل شعبان الدسوقي، وكذلك لم يقتل حسن عبد التواب، ولم يستدعه أحد للشهادة فيتستر على جريمة، هو يحاول فقط الالتزام بقاعدة "لا أرى لا اسمع لا اتكلم" وإن اضطر إلى فتح فمه فسيكون ذلك من أجل أن يعبيء جوفه باللحم ليس إلا، هو يأكل فقط بنهم، متفرد بهواية لم تُعرف بمصر في العصر الحديث، هواية أكل لحوم البشر، ربما لا يتم ذلك الآن بمعناه الحرفي بالفعل ولكنه قطعا يمارس بمنتهى الحماسة بمعناه المجازي في هذا الوطن!

رغم عدم رضاه عن الأمر، إلا أنه وافق على مطلب سعيد عبد الجليل بالاحتفاظ بالقليل من القلب والطحال والكبد والرئتين من جثة حسن عبد التواب، أشد الناس حمقا من السهل أن يدرك أن سعيد عبد الجليل احتفظ بها ليأكلها لا ليحنطها.. سعيد عبد الجليل يريد أن يشاركه طعامه النادر ولا يملك مختار البهنساوي معه رفاهية الرفض أو التفاوض.. فليطلب سعيد عبد الجليل طنا من الجمبري كبير الحجم ولسوف يوفره له مختار البهنساوي عن طيب خاطر ولكن في المقابل فليبتعد عن طعامه النادر!

يضحك مختار البهنساوي كلما تذكر أن حسن عبد التواب كان سمينا وبخاصة في أيامه الأخيرة، بالطبع ذلك قد تسبب له في ضيق في الدنيا وهو بين الأحياء ومصدر سخرية لزوجته التي تتمنى أن تراه رفيعا رشيقا كعود الملوخية، يضحك

كلما تذكر كم المعاناة التي كان سيلاقيها المشيعون لجنازته من مشقة في حمل نعشه، يضحك كلما شعر بسعادة داخلية لإراحتهم وإراحة زوجته منه ومن سمنته، سمنته تلك التي كانت تجعلها بلا شك تعاني وهو يجسم عليها بكرشه في لحظات جماعهما التي لا تتجاوز الأربعين ثانية!.. يشعر بالسعادة لاراحة حسن عبد التواب نفسه من سخرية زوجته من سمنته المفرطة وكرشه.. يشعر بالسعادة لإراحة أهله وذويه من مشقة حمل نعشه، ويشعر بالسعادة لتحصله على كل تلك الكميات الكبيرة من اللحم والدهون التي تفوق أضعاف أضعاف ما تحصل عليه من شعبان الدسوقي!

لكم يشعر مختار البهنساوي أنه شخص محظوظ للغاية!

* * *

طرق كريم الشرقاوي باب سعيد عبد الجليل عدة مرات ولكنه لم يتلق ردا، كانت الشمس تتسلى بشواء كريم الشرقاوي حيا في هذا التوقيت ليشعر بأن ما يسيل منه زيتا لا عرقا، زيتا لا يصل لنقاء زيوت التشحيم وإن كان أقل سوءا من زيوت التموين، لم يكن العرق الطبيعي يوما بهذه اللزوجة، كان يكره الصيف بجوه الخانق الذي يدفعه للاغتسال بالماء الذي يتظاهر بكونه باردا كل خمس دقائق، يضطره ذلك في فترات النهار للاغتسال بماء خرج لتوه من الثلاجة حتى يتمكن من إثلاج روحه وجسده، مياه الصنبور العادية تخرج ساخنة بغير سخان!

لمح كريم الشرقاوي حوض الطلمبة اليدوية بجوار البيت فهرع إليها وأخذ يضغط بعض ضغطات على زراعها يستجديها فبدأ الماء البارد في التدفق من فتحتها

قادما مباشرة من جوف الأرض، لابد أن القبور المجاورة يعيش موتاها في نعيم الجنة فكانت بردا وسلاما على أصحابها، وضع رأسه أسفل المياه ليغرقها ونصفه العلوي مثلما اعتاد في حر الصيف، اللعنة على الاحتباس الحراري الذي لن يسمح بأن تمضى دقائق معدودات حتى يجف بلل كريم الشرقاوي وملابسه!

-كده تاخد برد يا دكترة!

فزع كريم الشرقاوي من الصوت الذي فاجئه، فالتفت ليجد سعيد عبد الجليل واقفا خلفه وابتسامة ترتسم على وجهه.

-سرعتني يا ريس.. افتكرت حد من إخوانا اللي تحت.

ابتسم سعيد عبد الجليل في تخابث ووضع يده على كتف كريم الشرقاوي هامسا:

-إخوانا اللي تحت ما ينفعش يطلعوا ليك، أنت غريب وممكن تخوفهم.. تشرب إيه يا دكترة؟!

سأله واتجه نحو البيت وقد ترك كريم الشرقاوي خلفه ليشعر بشعيرات قد انتصبت فوق جلده خوفا من كلمات سعيد عبد الجليل الغامضة، ثم ما لبث أن تدارك نفسه وهرع خلفه نحو البيت، سعيد عبد الجليل أصبح يخيف كريم الشرقاوي كثيرا وخاصة عينيه اللتان اصبحتا تلمعان في وضح النهار!

-إلا أنت كنت فين كده ده؟!.. أنا مستنيك بقالي ساعة يا سعيد.

-ساعة إيه بس يا دكترة.. ده اللي بيكدب بيروح جهنم.. وما أدراك بحر جهنم، أنا لسه رايح أصلي الضهر من ربعاية!

-إيه؟!

نطقها كريم الشرقاوي ببلاهة مندهشا من رد سعيد عبد الجليل، ففهم الأخير سبب اندهاشه قائلا:

-أنا عمري ما ضيعت فرض واحد يا دكترة.. اعمل لدنياك كأنك هتعيش على طول وأعمل لآخرتك كأنك ميت بكرة.. ولا إيه؟!

لم يعقب كريم الشرقاوي، فحمل سعيد عبد الجليل كوبي الشاي وناول أحدهما لكريم الشرقاوي مستطردا:

-م الآخر ما تخليش الحاجات الشينة اللي بتعملها تنسيك الحاجات الحلوة اللي كنت بتعملها يا دكترة، اعملهم مع بعض بدل ما تعمل الشين بس!

في البداية صدم كريم الشرقاوي من منطق محدثه، ثم استوعب الحكمة العميقة التي تتخفى وراء تلك الكلمات، ما من أحد معصوم من الخطأ، ولكن البعض لغبائهم يسمحون لأخطائهم أن تكون هي المسيطرة عليهم والمانعة لأي خير مرجو منهم!

-بقولك يا سعيد.

-خدامك يا دكترة.

ارتشف كريم الشرقاوي رشفة من كوب الشاي الذي لم يكن وقته أبدا وقت الظهيرة في هذا الحر القائظ، ثم سحب دخان سيجارته إلى صدره طلبا للتركيز واستجمع كلماته قائلا:

-أنت عارف إيه السبب أن عمليات كتيرة بتفشل لعيانين وكتير منهم بيموتوا في السنة اللي فاتت؟!

-ليه يا دكترة؟!

عدل سعيد عبد الجليل من جلسته متأهبا لسماع المعلومات التي سيمده بها كريم الشرقاوي غير عالم أن تلك المعلومات ما هي أكاذيب من وحي الخيال!

-علشان بقالهم سنين بيخلوا الطلبة تدرس على جثث بلاستيك زي ما قولتلك مرة لو فاكر.. الدكتور من دول يخش على العيان مش عارف يتعامل معاه أصلا.. مهو دارس على بلاستيك!

بدت الدهشة على وجه سعيد عبد الجليل وهو ما حفز كريم الشرقاوي لاستكمال أكاذيبه متابعا:

-زي ما بقولك كده، عرايس بلاستيك من الصين ملهاش علاقة بجثث البني آدمين، فالدكتور من دول أول ما يفتح بطن عيان في عملية بجد يتفاجيء أنه غير العرايس البلاستيك اللي درس عليها!

-يا ولاد الـ(...).

قالها سعيد عبد الجليل في غضب، فاستطرد كريم الشرقاوي طارقا على الحديد وهو ساخن:

-طيب خد الأنقح بقى، أنت عارف أن الصينيين دول طبعا كفار بيعبدوا الأصنام لحد دلوقتي وبيكرهوا الإسلام ده كره العمى، لأ ومش عايزين المسلمين يتكاثروا

ويكتر عددهم علشان ما نبقاش قوة زيهم ونرجَّع من تاني الفتوحات الإسلامية، مهو الصينيين دول التتار اللي حاربهم قطز بتاع جهاد، يعملوا معانا إيه؟!.. ما كفهمش كمية الحاجات المسرطنة اللي بيبعتوها لينا، لأ.. قالك نقلل الخصوبة بتاعة المصريين دول.. طب أزاي يا سعيد؟.. يطلعوا دكاترة مسالك بولية وعقم ونسا وتوليد ما بيفهموش حاجة.. مهي العروسة البلاستيك دي معمولة على مقاساتهم.. ما أنت عارفهم أقزام مش زي ما طلعوا في الفيلم.

كان الغضب قد تملك سعيد عبد الجليل فصاح غاضبا:

-يعني أزاي بالعقل عايزين يقارنوا لامؤخذة حاجات رجالتنا وستاتنا و(عدّد سعيد عبد الجليل مسميات الأعضاء التناسلية للذكر والأنثى بعاميته الخادشة للحياء) بحاجاتهم اللي قد عقلة الصباع يا دكترة.. ده احنا راضعين من مية النيل!

-أديك قولت يا أبو عبد الجليل.. إزاي تقارن ناس راضعة من مية النيل ومعجونة من طينه بشوية ناس بياكلوا ديدان وشوربة سحالي بعصايتين.. قولت ايه بقى؟!

-في إيه؟!

سأله سعيد عبد الجليل وعلى وجهه ارتسمت علامات البلاهة!

-فيه دكتور عندنا عارف ربنا.. الله يباركله، بقاله فترة بيحاول يصلح الحال ويدرس للطلبة زي زمان على جثث مصريين حقيقية بس مشكلته بدون لف ولا دوران إنه مش لاقي جثة يدرِّس ليهم عليها السنادي.

ذمَّ كريم الشرقاوي شفتيه في أسى وحملت ملامحه قلة الحيلة بعد جملته الأخيرة مفصحا عن مطلبه بغير تلميح أو مداراة، ألقي الكرة في ملعب سعيد عبد الجليل تاركا له حرية التصرف إما بإحراز هدف يسعد الجميع وإما بإضاعته مبددا آمال كريم الشرقاوي.

ظل سعيد عبد الجليل صامتا كالقبور المتناثرة حول بيته مفكرا في الأمر دون أن تلوح على وجهه أي علامات لرفض ينهي الأمر أو قبول يسعد كريم الشرقاوي، نكس رأسه ثم أخرج سيجارة من علبة الـ(L&M) المنقود ثمنها من حصيلة تجارة العظام مع جليسه، سحب دخان سيجارته في بطء وتمهل حتى أتى على نصفها ونصف أعصاب كريم الشرقاوي في شهيق واحد ثم ترك الدخان يتسلل من أنفه وفمه بغير زفير.

بدء القلق يضرب بمطرقة عملاقة على رأس كريم الشرقاوي وهو يرى هذا الشبح ذا الوجه الذي طمسته سحب الدخان، تمنى حينها أن يسارع سعيد عبد الجليل بالرفض، فإن كان سينتهي الأمر به إلى الرفض فلم يُصِر على حرق أعصابه، فليرفض اللعين وينتهي الأمر، هل تود يا سعيد يا عبد الجليل يا من نخر سوس الفقر عظامك أن تتاجر بجثث الموتى كما تاجرت بعظامهم مع مضاعفة مكافئتك؟!

هل ترغب في التعاون فتنام كل ليلة قرير العين بمعدة ممتلئة لا تؤرق نومك من قسوة الجوع؟!

هل تحب أن يكون الصيف والشتاء لديك سواء فلا تميل كل الميل نحو الصيف

كسائر الفقراء لأن الصيف يمكنكم من ارتداء أقل قدر من الملابس الممزقة والبالية؟!

نعم أم لا؟!

تمنى في تلك اللحظة أن يكون بنفس قوة شخصية جورج قرداحي المذيع الشهير ويقول له آمرا "معك ثلاثين ثانية فقط إذا ما بتريد".. ولكن سعيد عبد الجليل قطع الصمت سائلا كريم الشرقاوي:

-ترضاها لنفسك؟!

* * *

obeikan.com

(١٤)

بُهِتَ كريم الشرقاوي من سؤال سعيد عبد الجليل المفاجيء!

-إيه؟!

تمتم بها كريم الشرقاوي في بلاهة من صدمة السؤال فاستطرد سعيد عبد الجليل:

-ترضاها لنفسك حد يعمل في جثتك كده بعد عمر طويل؟!

شعر كريم الشرقاوي بمزيد من قطرات العرق تتكاثف على جبهته وعلى مؤخرة عنقه وقد وجد نفسه للمرة الأولى ضعيفا محاصرا بين شقي الرحى لا يقو على الرد المفحم على منطق محدثه، محدثه الذي كان بين يديه قبل ذلك كقطعة من العجين يشكلها كيف يشاء متى يشاء!.. يكره هذا النوع من الأسئلة السخيفة التي من السخف الإجابة عليها..

"لِمَ لا تصلي؟؟.. ألا تعلم أن ترك الصلاة من الكبائر؟!"

"لِمَ تزني؟؟.. أترضاه لأمك أو لأختك؟؟.. ألا تعلم أن الزنا من الكبائر؟!"

"لِمَ تدخن؟؟.. ألا تعلم أن التدخين ضار بالصحة؟!"

يتوقع دائما السائل أن المسئول لا يعلم هذه المعلومات البديهية التي يحاول أن

يسبب بسؤاله عنها حرجا له، بحث كريم الشرقاوي كثيرا عن أي كلمات تضعه على بداية الطريق للرد على سعيد عبد الجليل ولكن الأخير لم يمهله الوقت الكافي واستطرد قائلا في ثبات:

-ما تصلي على اللي هيشفع فيك يا دكترة..

-عليه الصلاة والسلام..

تمتم بها كريم الشرقاوي ولكن سعيد عبد الجليل تابع غير منتظرا لانتهاءه قائلا:

-أنا ارضاها لنفسي يا سيدي.. ما تستغربش.. معاك إن إكرام الميت دفنه.. بس واحد زيي مثلا محدش كرمه فوق الأرض تفتكر هيستنظر تكريم تحتيها؟!.. هو أنا لو ما اندفنتش مثلا مش هتحاسب ولا هتقوم قيامتي.. أكيد هتحاسب.. جسمي هيحس بالدكاترة وهي بتلعب فيه؟!.. أكيد لأ.. طيب إيه المانع إني أنفع الناس بأي حاجة أقدر عليها.. صدقة جارية على روحي.

بهت كريم الشرقاوي من منطق سعيد عبد الجليل، لم يكن متأكدا إن كان يتحدث بصدق أم بسخرية متلاعبا به لحاجة في نفسه.

-أول ما الجثة تبقى جاهزة هتلاقيني بتصل بيك يا دكترة.. تجهز نفسك وشوف هتنقلها إزاي.

-والله يا سعيد..

-من غير والله يا دكترة.. رب ضارة نافعة.. يا بخت الجثة دي باللي هيحصلها..

ما تنسانيش في الحلاوة بس لأجل نحلي بق ضميري.

قالها سعيد عبد الجليل وقد أدرك أن من الغباء ألا يتشبث بالفرصة التي جاءته حتى باب بيته مقدمة على طبق من ذهب.

* * *

عندما دخل علي عسكر المسجد هذا اليوم بزيه الأزهري الذي يحافظ على ارتداءه في خطبة الجمعة لم يشعر بارتياح، هناك المئات من الشحنات السالبة التي تزكي الطاقة السلبية بالمسجد، لم يعتد أن يُرَد سلامه بتلك الغمغمات وهذا العبوس!.. ومنذ متى يصلي لطفي عثمان زميله في المدرسة بنفس المسجد ويترك الزاوية الصغيرة في أطراف القرية التي ارتضى من يصلي بها بلطفي عثمان خطيبا وإماما!

صلى علي عسكر بغير تركيز ركعتين تحية للمسجد وعندما نهض متوجها لمنبره بعد رفع الأذان أوقفه المصلين..!

-على فين يا شيخ علي..؟!

اعترض طريقه نحو المنبر نفر غير قليل من الحاضرين للصلاة سائلين أياه في غضب، أيقن أن هؤلاء لم يسألوه بحثا عن إجابة وقد رأى في أعينهم غضبا تزكي ناره الكراهية.

-هو فيه إيه يا إخوانا؟!

سألهم في تعجب فتعالت الصيحات الغاضبة تهاجمه:

-ما تقولش إخوانا بس..

-بره الجامع الطاهر يا دجال يا بتاع الأعمال السفلية يا نجس..

-ما بقاش إلا الأنجاس اللي بيربوا الكلاب النجسة اللي هيصلوا بينا..

تدافعته الأيدي بعنف دافعة أياه لخارج المسجد دون أن يعطوه الفرصة لأخذ حذائه، يحاول أن يبحث بين الحضور عن نصير أو عن عمدة القرية ليردهم ويدرء عنه تلك الاتهامات الباطلة فلم يجد، لم يشعر حينها بضعف أو مهانة، فقط وقف حافيا على باب المسجد ورفع سبابته إلى السماء متضرعا إلى الله بصوت أرتعدت له فرائصهم أجميعن:

-وأفوض أمري إلى الله.. إن الله بصير بالعباااااد.. حسبي الله ونعم الوكيل.

قالها في ثبات غاضبا وأولاهم ظهره منصرفا إلى داره يسير في طرقات القرية دون حذاء..!

"ولا يفلح الساحر حيث أتى.. إن الحمد لله نحمد ونستعينه ونستهديه ونستغفره.. "

اخترق أذنا علي عسكر صوت لطفي عثمان اللعين يخطب فيهم وفي نبرته شماتة وسرور!

* * *

كانت ساقا كريم الشرقاوي ترتعشان أسفله رعبا حاملا الجثة الملفوفة بكفنها المشبع بالتراب والذي استحال طينا مختلطا بعرق كريم الشرقاوي من فرط

الخوف والمجهود معا، يحمل هذه الجثة الثقيلة مع سعيد عبد الجليل.

كان السير وسط ظلمة المقابر وظلامها في ذلك الوقت قبيل الفجر كافيا وحده لإثارة ذعر كريم الشرقاوي خوفا من غضبة الموتى في قبورهم لإزعاجهم في هذا الوقت المتأخر من الليل، الموتى ليس بينهم من ينهض لصلاة الفجر!.. فكيف ستكون غضبتهم وهناك من سرق جثة واحدا منهم هاربا بها في غفلة من الجميع أحياء وأمواتا!

وصلا أخيرا إلى سيارة كريم الشرقاوي بعد تعثرات وسقوط متكرر بسبب الأخير وبسبب نباح كلاب تارة وبسبب الأرض الغير ممهدة بين المقابر تارة أخرى، وضعا الجثة بحقيبة السيارة الخلفية لينطلق كريم الشرقاوي بصحبة جثته التي يتعالى صوت لطرقاتها آتيا من حقيبة السيارة مدمرة أعصاب سائقها غير عالم إن كان هذا الصوت لارتطامها بالحقيبة أم جهرا بآلامها عائدة إلى الحياة مستنجدة ومستغيثة بأي منقذ!

توقف كريم الشرقاوي في الطريق أكثر من مرة ليفتح حقيبة السيارة عله يجد الجثة وقد عادت إليها الحياة مرة أخرى، وصل أخيرا إلى الجراج الخاص بالعمارة التي يعطي فيها الدكتور ماجد أبو الخير دروسه الخصوصية بجوار الجامعة حيث كان بانتظاره بنفسه وإلى جواره علاء المنوفي عامل المشرحة بالكلية الذي يحضر لمساعدته.

* * *

-شد حيلك يا علاء مفيش وقت.

صاح بها ماجد أبو الخير في عصبية واضحة يراها كريم الشرقاوي للمرة الأولى، فحمل علاء المنوفي الجثة بمفرده إلى المغطس الكبير الذي تفوح منه رائحة الفورمالين.

-الفورماين لازم نضيف عليه جلسرين يا شرقاوي.

قالها ماجد أبو الخير ضابطا نظارته فوق أرنبة أنفه فنظر إليه كريم الشرقاوي متسائلا فاستطرد قائلا:

-الفورمالين أنت عارف علشان يحفظ الجثة والأنسجة.. الجثة بعد كام ساعة من الموت بتدخل في مرحلة الـ(Rigor mortis) أو التيبس الرمي.. بتخرج الجثة منها لما تبدأ تتحلل.. الجثة بتبقى متخشبة فالجلسرين مع الفورمالين بيخلي الجثة تلين وتبقى زي الملبن.

هز كريم الشرقاوي رأسه في تفهم وقد بدى عليه الانبهار من هذه التجربة التي يحياها الآن بقلب ينبض بمعدل ألف نبضة في الدقيقة.. كان علاء المنوفي قد أحضر حامل المحاليل الوريدية وعلق به زجاجتين من المحلول المستخدم للتغذية الوريدية.

-إيه ده يا دكتور ماجد.. جلوكوز ليه هو هيصحى تاني؟!

قالها كريم الشرقاوي في خوف طفولي لا سخرية فيه فتعالت ضحكات ماجد أبو الخير وعلاء المنوفي سويا ثم وضع ماجد أبو الخير زراعه فوق كتف كريم الشرقاوي قائلا وسط ضحكاته ساخرا:

-أهو مش مبوظ جيلك يا واد يا كيمو غير الأفلام التعبانة اللي بتتفرجوا عليها

دي.. نفس المحلول اللي جناب الأخ ده نايم فيه هيتحقن في الـ(Jugular vein) اللي هو بيقولوا عليه الوريد الوداجي في رقبته.. أنت بقى زي الجدع بكره هتاخد علاء أفندي في عربيتك وتطلعوا على مصر بكرة الصبح تجيبوا فورمالدهيد وجلسرين علشان الكمية دي قليلة حبتين.

وضع كريم الشرقاوي كفه على رقبته علامة على أنه على استعداد أن يخدمه حتى وإن كان الثمن رقبته، فتبسم ماجد أبو الخير وتأبط زراع الأول منتحيا به جانبا هامسا:

-الراجل لما خد الفلوس اعترض ولا حاجة؟!

-عيب يا دكتور.. خلصانة.

-طيب دي مكافئتك يا بطل.

وأخرج ماجد أبو الخير من جيبه مظروفا صغيرا منتفخا وحاول دسه في جيب كريم الشرقاوي فابتعد الأخير في انفعال مصطنع قائلا:

-عيب يا دكتور ماجد.. قسما بالله ما أنا واخد حاجة.. كفاية رضاك عننا يا دكتور..

كان آداء كريم الشرقاوي مقنعا لدرجة دفعت ماجد أبو الخير لإعادة المظروف لجيبه ثانية ودون المزيد من المحاولات التي لم تكن لتقنع كريم الشرقاوي الذي اقتنع بالفعل ورضى بالعشرة آلاف جنيه التي اقتطعها من العشرين ألفا لنفسه قبل أن يسلمهم لسعيد عبد الجليل، يؤمن كريم الشرقاوي بأن الطمع يقل ما جمع، وأن القناعة كنز لا يفنى بغض النظر عن أن المظروف الصغير هذا لن

obeikan.com

يحتوي على أكثر من ألفي جنيه لا تساوي شيئا مقارنة برضا ماجد أبوالخير عنه!

* * *

عندما اختلى علي عسكر بنفسه وأغلق عليه داره لم يفعل شيئا سوى البكاء!

ارتمى على المقعد الأقرب إلى الباب وأطلق العنان لدموعه في صمت، ليس هناك أقسى على الإنسان من الشعور بالظلم، وليس هناك أقسى على الرجل من فقده القدرة على السيطرة على عينيه بمنع بكائه، ساعة الظلم سترى أن من العبث الرد على ظالميك، ردك لن يغير في قناعاتهم المؤقتة شيئا، هؤلاء الخطاه الغارقين في مستنقعات ذنوبهم ومعاصيهم مدعي الفضيلة، هؤلاء الجهلاء الذين أخذتهم الحمية في دينهم وهبوا دفاعا عن دين لا يعرفون الفارق فيه بين الحديث الصحيح والحسن والضعيف في أحاديث رسوله الشريف.. يتشبثون بقشور الدين وختم الجباه بأنهم من المصلين ولحية تركها أغلبهم ترشيدا للنفقات، لم يحمّلوا أنفسهم عناء أن يتبينوا عندما جائهم لطفي عثمان الفاسق ومن معه بنبأ علي عسكر أن يصيبوه بجهالة!.. أقسم علي عسكر أن يجعلهم على ما فعلوا لنادمين!

اتهمه الجهلاء بأنه منكر للإئمة الأربعة بإيعاذ من لطفي عثمان حين يربي كلبا داخل بيته ونسوا أو تناسوا أنه قد أسهب يوما في شرح الأمر وخصص له خطبة كاملة؟!.. لم يطلع أحدهم على آراء الإئمة الأربعة وانساقوا وراء لطفي عثمان وزملاءه الذين يأولون كلامه ويحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكّروا به.. شرح لهم سابقا أن الكلب طاهر وسائر رطوباته عند المالكية، وطاهر عن الحنفية ما عدا لعابه وبوله وعرقه وسائر رطوباته، أما الشافعية والحنابلة

فقالوا بنجاسة عين الكلب، أخبرهم بأنه ما من دليل في القرآن أو السنة يتحدث عن نجاسة الكلب، فقط حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصحهم بضرورة غسل الإناء الذي يلغ فيه الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب ولم يتحدث عن الكلب، هي حالة خاصة فقط للإناء الذي يلغ فيه الكلب إن كان يريد المرء أن يأكل من نفس الإناء بعد ذلك، بدل لطفي عثمان كلماته وأوصلها للناس بأن علي عسكر ينكر الإئمة الأربعة ويرفض ما يقولون!

هل كلب أصحاب الكهف الذي صاحبهم كان نجسا؟!

اتهموه بأنه ساحر أو مشعوذ أو دجال؟!.. متى شاهدوه يمارس سحرا أو يدعي علم الغيب وما يعلم الغيب إلا الله علام الغيوب!

نهض علي عسكر ونيران الغضب لم تهدأ في صدره وتوضأ فأسبغ الوضوء على المكاره، ثم صلى الظهر وجلس القرفصاء فقرأ سورة (يس) بصوت خاشع مرتل يزلزل القلوب حتى تبللت صفحة المصحف بدموعه وقد توقف عند الآية العاشرة وجعل يرددها بحرقة..

"وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ "

ظل يرددها وقد علا صوت نشيجه من شدة البكاء حتى تهدجت أنفاسه..

ظل يرددها حتى بح صوته..

ظل يرددها حتى هدئت نفسه قليلا ثم استكمل قرائته حتى أنهى يس، وضع المصحف ثم رفع أكف الضراعة إلى خالقه مناجيا بدموع لا تكف عن انسكابها..

" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم

الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى غريب يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تُنزِل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.. اللهم أرنى فيهم جميعا دلائل قدرتك.. اللهم أرني فيهم جميعا دلائل قدرتك.. اللهم أرني فيهم جميعا دلائل قدرتك".

ظل علي عسكر يرددها وسط بكاءه المختلط بصوت نشيجه وقد فقد السيطرة على مخاطه ولعابه حتى كتب الله له الراحة فغلبه النعاس.

* * *

لو اهتم أحدهم بسؤال سعيد عبد الجليل عن أكبر مساويء مهنة اللحاد فلن يفكر كثيرا في الإجابة وسيصدم سائله باستبعاد التعامل مع جثث الموتى والسير وسط زحام أرواحهم الهائمة بين القبور ليلا، لن يتحدث عن رائحة العفن التي اعتاد أنفه عليها، ولكنه سيسارع بالإجابة قائلا أن أكثر المساويء إزعاجا له هي تلك الطرقات التي كثيرا ما تنهال على بابه بعد منتصف الليل!

نهض سعيد عبد الجليل من فراشه متثاقلا محاولا السيطرة على غضبه كي لا يفتك بالطارق..

- إيه يا صعيدي ما تفتح!

كان الطارق هو مختار البهنساوي، أزاح سعيد عبد الجليل، وخطى إلى الداخل مناديا:

-خشي يا ألفت.

-ازيك يا سعيييد..؟

ظهرت ألفت أمام سعيد عبد الجليل، إمرأة ثلاثينية في عباءة سوداء اللون لفت رأسها بإهمال بطرحة من نفس اللون، إمرأة تقليدية من الطبقة الفقير ليس بوجهها ما يميزه غير بعض قليل الجمال قد يرى باستخدام المجهر.

-بسم الله ما شاء الله عليك، عود فرع!

قالتها ألفت في مجون ضاربة بكفها على صدر سعيد عبد الجليل، فدفع الأخير يدها في غضب ناهرا:

-ما تختشي يا ولية.. إيه يا ميخا النجاسة دي مش هنا.

-جرى إيه يا خويا.. ما تهدي أعصابك..

أشار لها مختار البهنساوي أن تخرس وتأبط ذراع سعيد عبد الجليل فاستجاب له وخرجا سويا.

-يا ميخا..

صاح بها سعيد عبد الجليل في غضب عارم ووجه صارم وعروق نافرة وعينين كأنهما جمر متقد، فحدثه مختار البهنساوي بهدوء مستفز قائلا:

-يا ابني أفهم، المحل فيه جنبه على طول حنَّة، لو روحت على هناك بيها زي كل مرة مش هنخرج سُلام.. يا صعيدي هي خمس دقايق مسافة ما تشرب سجارة بره.. عايز تقعد تتفرج براحتك.. بس أنا كده كده هخشلها.. مش هنخسر بعض

obeikan.com

عشان حاجة تافهة، احنا بينا عيش وملح ومصالح.

أنهى مختار البهنساوي حديثه الذي لا يخلو من التهديد المستتر وأخرج سيجارتي حشيش وأعطى لسعيد عبد الجليل واحدة وأشعل الأخرى وتركه راجعا لألفت تاركا صديقه بالخارج يكاد يميز من الغيظ!

سعيد عبد الجليل بالفعل يحتاج بشدة لمختار البهنساوي الصديق الذي يشاركه بعضا من أسراره، وهو مصدر تمويله الوحيد من سجائر الحشيش الذي يعشقه، ولن يضيره شيئا أن يعبث صديقه مع عاهرته معتبرا في قرار نفسه أن الأمر يتم دون رضاه بتهديد من مختار البهنساوي!

لم تمض عشرة دقائق حتى عاد إليه مختار البهنساوي منكس الرأس غارقا في همه وغمه مغمغما:

-خشلها يا صعيدي.

حدقه سعيد عبد الجليل في استنكار، فاستطرد مختار البهنساوي في نفاذ صبر:

-ما تبرقليش، خش يا عم وجرب حظك، أنا أعصابي سايبة النهاردة مش عارف ليه، ودي لو خرجت من غير ما تتراضى هتفضحني وتجرسني ومش بعيد اسمك ييجي في الموضوع وتتجرس معايا.. ولا أنت ما لكش في النسوان زي ما هي بتقول ولا إيه؟!

أثارت كلمات مختار البهنساوي الأخيرة غضب سعيد عبد الجليل فلم يعقب، ترك صديقه ودخل بيته مغلقا الباب خلفه في عنف مقسما ومغلظا القسم بأن يثبت لمن هم فوق الأرض وتحتها رجولته وفحولته!

كان في الواقع يرغب في خوض تلك التجربة الجديدة، أن يسقط في أخاديد لم يطئها من قبل، أن يستشعر نشوة حقيقة غير نشوة استمناءه وعنائها، لم ينتظر ضغطا من مختار البهنساوي بل كان في قرار نفسه يفكر في طلب الإذن من الأخير، أن يواقعها ويفرغ في رحمها كبته الذي حُبِسَ بين فخذيه سنينا، ليفعلها الآن خاضعا لشيطانه ثم ليتمرد عليه لاحقا تائبا إلى الله مئابا.

* * *

عندما دخل غرفة نومه صدمه ذلك الرجل الذي يوليه ظهره وقد انكفأ على صندوق خشبي سحبه من أسفل الفراش وجعل يعبث بمحتوياته.. صندوق الشيخ متولي الدجال.

-تعالى يا ملطشة البلد.

كانت الإهانة من هذا الغريب بمثابة صفعة عنيفة تلقاها علي عسكر على وجهه لتخرجه من دهشته فاستشاط غضبا وهم بالهجوم علي هذا الزائر المجهول ولكن الأخير التفت إليه ليتبدل في لمح البصر غضبه دهشة إذ اكتشف أن زائره لم يمكن غير شيخه محمد الخطيب، شيخه الغاضب الذي تجهم وجهه وعبس ليرى علي عسكر بغير تدقيق شررا يتطاير من عينيه!

-بقيت ملطشة البلد كلها يا واد يا علي، هو ده اللي وصيتك عليه؟!.. هي دي هيبة حفظة القرآن اللي وصيتك عليها؟!.. شوية كلاب ما بيعرفوش يقروا الفاتحة تسمحلهم يمسحوا بكرامتكم بلاط الجامع ويطردوك من بيت ربنا وأنت زي الكلب يا كلب بتنفذ كلامهم..

-يا شيخ محمد..

-بلا شيخ بلا زفت..

عنفه غاضبا وهوت صفعة بيمينه على وجه علي عسكر ليرتج لها جسده بأكلمه ليقف عاجزا أمام شيخه ولم يجبه إلا بدموع انسكبت من عينيه، دموع جددها الشعور بالظلم.

-عيط زي النسوان يا وله.. النهاردة يطردوك من الجامع بكرة الناس كلها تبعد عنك ولا كأنك عيل أجرب.. امسك الكتاب ده وخليك راجل.. رجع هيبتك وهيبة العلما اللي جذمتهم برقبة ولاد الكلب دول.. فيه باطل مش هيقضي عليه غير الباطل اللي زيه..

قالها الشيخ محمد الخطيب واختفى وتلاشت معالم الغرفة ليفتح علي عسكر عينيه ليجد نفسه ممدا على الأرض في الردهة الواسعة وكلبه بجواره يلعق وجهه ولا يكف عن النباح ووجهه لا زال ملتهبا من أثر صفعة شيخه محمد الخطيب!

* * *

ظل مختار البهنساوي يضحك كالأبله وهو يستمع لصرخات وتأوهات ألفت العاهرة القادمة من الداخل والتي تستمتع بفحولة سعيد عبد الجليل الغاشمة.. سعيد عبد الجليل يثبت في صمت أنه رجل أفعال لا أقوال!

-يخرب بيتك ما تتهد.. ده أنا جوزي ما كانش كده ليلة دخلته!

قالتها ألفت في غنج ضاربة صدر سعيد عبد الجليل بكفها فتسمر الأخير وكأنه أصيب لتوه بشلل كلي وشعر بالدماء تنسحب من جسده وأطرافه جميعها وتتركز

في رأسه وكأن فرقة من الصم قارعي الطبول يقرعون طبولهم بحماسة في رأسه!

-هو أنتي متجوزة؟!

-هههههه.. أخص عليك يا راجل.. أمال آنسة بعد كل ده!

قالتها في دلال ألفت العاهرة، ولكن سعيد عبد الجليل لم تلن ملامحه سائلا في برود وصرامة:

-قصدي هو جوزك عايش؟!

-آه يا خويا عايش.. متنيل على عين أمه متلقح في البيت وفاكرني غضبانة عند أمي.. بعيد عنك الرجالة بعد الأربعين بيشحروا.. و..

لم تستكمل ألفت جملتها ولم تصرخ ألما من هول مفاجأتها بالصفعة التي استقبلها وجهها من سعيد عبد الجليل وكاد أن يشطر رأسها نصفين، شاحنة تنطلق بسرعة ١٠٠٠ كم/الساعة اصطدمت بوجهها!، لم يمهلها الوقت لتستفيق من ذهولها وذعرها المطل من عينيها وقد قبض بكلتا يديه على عنقها معتصرا إياه في غل ولا يلقي بالا لأظافرها التي أنشبتها في لحم ذراعيه ولا لرفسات قدميها من أسفله.. أعماه الغضب وهو يملي نظره من عينيها البارزتان الموشكتان على الإفلات من محجريهما ويملي نظره من وجهها المحتقن اختناقا وهو يثأر لهذا الزوج الغافل الذي رأي فيه عبد الجليل وهدان آخر تستغفله زوجته اللعوب!

زانية أخرى لا تصون شرف زوجها وعرضه.. آثمة القلب منزوعة الكرامة ثملت من كأس الخيانة.. رأى فيها أمه التي تمنى في منامه ويقظته أن يكون هو

من انتزع روحها النجسة ليرسلها لمكانها في الدرك الأسفل من النار ليشوي فرجها بماء الحميم.. لم تمض دقائق معدودة حتى خارت قواها واستحالت جثة هامدة.. نهض سعيد عبد الجليل في رباطة جأش وسكينة تغلف روحه وكأنه عاص غُسِلَ من ذنوبه وخطاياه.. سحب جثتها إلى الحمام وأحضر سكينه الكبير وفصل رأس ألفت عن جسدها في هدوء ورضا.

* * *

أدرك علي عسكر في الأيام التالية أن الأسوأ لم يأت بعد، فقد تفنن أهل القرية جميعهم في إحالة حياته إلى جحيم مقيم مستعر!.. مقاطعة كاملة له لا هوادة فيها ولا هدنة.. انقطع الطلاب عن دروسه.. امتنع البائعين عن بيع أي شيء له.. منعوه من دخول المساجد.. سيارات الأجرة الضيقة التي تحمل أهالي القرية إلى المدينة ترفض أن تقله.. لو لم يكن مالكا لبيته لطُرِدَ منه.. كان يضطر إلى السير بضعة كيلومترات ليصل إلى الطريق العام ليركب أي سيارة ذاهبة للمدينة ليشترى الطعام وكان عليه أن يتحمل في كل مرة تلك النظرات المشبعة بالكراهية والأزدراء التي يحرقه بها أهل القرية!

تحمُّل كل هذا الظلم والاضطهاد كان فوق طاقته وفوق قوة إيمانه، ظلم تنوء بحمله الجبال حتى جاء صباح اليوم الذي اقتحم عليه الفصل جمع من المعلمين يترأسهم لطفي عثمان وكرشه وخلفه مدير المدرسة، يجره خلفه بغير لجام!

أمهلوه شهرا كي ينتقل لمدرسة أخرى خارج هذه القرية وإلا سيمنعونه بالقوة من دخول المدرسة ولتركوه لأولياء الأمور يفعلون به ما يشائون!

تركهم علي عسكر وبراكين الغضب تتأجج داخله متوجها لدار العمدة صالح

مكاوي وقد ضاق صدره بكل هذا الظلم، ماذا عساه قد فعل ليتلقى كل تلك الإهانات؟!

ماذا عساه قد فعل ليوصف بالنجس؟!

لو جائهم القرية عمرو بن هشام وجاهر بكفره ما عاملوه مثل تلك المعاملة المهينة!

لو جاورهم هندوسي عابدا لبقرته ما اضهدوه كل ذلك الاضطهاد ولأمدوه بغذائها!

لو مر عليهم يهودي حاملا شمعدانه السباعي لتسابقوا علي إشعاله في شهامة!

وجائت القشة التي فتت ظهر البعير برفض العمدة مقابلته وقد أرسل إليه رسالة مفادها " لن أقف ضد أهل قريتي في زمرة غضبهم" بل نصحه بأن من مصلحته أن يترك القرية في أقرب وقت!

كان هذا هو اليوم الأخير الذي شاهد فيه أهل القرية علي عسكر يسير في الطرقات غاضبا يجهر بدعاءه عليهم قبل أن يختفى تماما لإحدى وعشرون ليلة، إحدى وعشرون ليلة اختلى فيها بنفسه وبالصندوق الخشبي الذي نصحه به شيخه محمد الخطيب.. صندوق الشيخ متولي!

* * *

-يخرب بيت أمك.. إيه اللي هببته ده؟!

يرددها مختار البهنساوي وهو يتقافز كالبرغوث وهو يسعى حثيثا نحو هاوية

الجنون لا يكاد يصدق أن سعيد عبد الجليل ذبح العاهرة التي استدرجها إلى بيته قبل أن يقضي منها وتره وقبل أن ينقدها أجرها قبل أن يجف عرقها النجس!

-النهار هيطلع.. أرسى كده وهات العِدَّة يا ميخا خلينا نخلص.

-يا ابن المجنونة.. على الحرام من ديني لأنام معاها..

-ما تعقل يا ميخا هتنام معاها إزاي من غير راسها!

نظر مختار البهنساوي ثانية نحو الجثة ليتأكد ثانية من أنها منزوعة الرأس علها تكون أوهام أو هلاوس بصرية وكأن سعيد عبد الجليل لفت انتباهه لشيء غاب عنه!

-يا ابن المجنونة يا صعيدي.. ورحمة أبويا ليا حساب تاني معاك بعدين.. وعهد الله لنتحاسب يا صعيدي.

قالها مختار البهنساوي وانصرف وهو لا يكف عن ضرب كفه بالآخر وقد بدا بالفعل قد بدأ رحلة السقوط إلى قاع هاوية الجنون!

* * *

ما حدث في القرية في الأيام التالية لن تنساه الأجيال الحالية أو القادمة بسهولة.. لطفي عثمان تفحم على أثر حريق شب بغرفة نومه ولم يُعرَف له سببا، زوجته عندما فتحت باب الغرفة وجدت نيران عظيمة نشبت في الغرفة فلم تر إلا لهيب النيران!.. تركت الزوجة كل شيء وجرت مولولة إلى الشارع تستنجد بأهل القرية الذين جاءوا ليجدوا حريقا قد خمد من تلقاء نفسه.. وجدوا لطفي

عثمان ممددا على الأرض والنيران قد تكفلت بشواء جسده بالكامل حتى تركته جثة هامدة، لم تمس النار الغرفة على الإطلاق!

أكثر من بيت حدث به حريق بلا سبب محدد ولكن لم يخلف وراءه ضحايا، سلامة أحمد ومحمود المراكبي اللذان تزعما حركة الاضطهاد ضد علي عسكر مؤازرين لطفي عثمان سقطا بسيارة الأول في الترعة المارة بجوار القرية بعد أن صدمتهما شاحنة في نفس الليلة وتم إنقاذهما في اللحظات الأخيرة ليرقد ثانيهما في العناية المركزة أسيرا للغيبوبة التي لحقت به، أما العمدة فاحترقت حظيرة مواشيه بالكامل!

خرست الألسن جميعها، للأمر تفسيران لا ثالث لهما.. إما علي عسكر ولي تقي من أولياء الله الصالحين له كرامات وقد ظلموه، وإما أنه ساحر بالفعل لن يقدر عليه أحد.. في أي من الحالتين أدرك أهل القرية ألا قبل لهم به وبجنوده ملائكة كانوا أم من الجان، جاءه وفد من شيوخ القرية وكبارها وطرقوا بابه يعتذرون له عن إي إساءة صدرت من أحد من الجهلاء، وهو الرجل الكريم ابن الرجل الكريم، جاءوه طالبين أن يسامحهم، فخرج إليهم علي عسكر من عزلته التي طالت لثلاثة أسابيع ليرى في الأعين خوفا ورهبة وفي غيرها إجلال وتقدير.

لم يعد علي عسكر بإرادته إلى منبر الخطيب أو إلى إمامتهم في الصلاة.. فقط عاد لفتح بيته لاستقبال كل من له مسألة ولم تكن هذه المرة بالمجان مع هؤلاء القوم الذين لا يحفظون الجميل!

* * *

أنهى مختار البهنساوي وسعيد عبد الجليل مهمتهما التي صارا بارعين بها، رفض الأخير أن يحتفظ بأي قطعة من هذه الجثة التي وصفها بالنجسة، هي نجسة من أول رأسها حتى أخمص قدميها مرورا بفرجها، نتنة وهو لا يأكل من لحم نتن مختار البهنساوي وبعد أن هدأ غضبه نام في صباحه سعيدا مرتاح البال وقد وفر مخزونا إضافيا من اللحم يكفيه فترة كافية في المستقبل!

يدعو الله مخلصا كل صباح أن يبعد عنه مفتشي التموين الذين يعرفون أباه منذ كان يعمل في مجلس المدينة، ثلاجة المحل لم تعد تخلو من لحم بشري، إن اكتُشِفَ أمره لن يصدقه أحد بأن هذا اللحم من أجل التعاطي الشخصي لا الإتجار وإن صدقوه فسيسألونه من أين له هذا!

* * *

(١٥)

شهور مرت سريعا، سعيد عبد الجليل مستمر في تجارة العظام مع كريم الشرقاوي مع بداية العام الدراسي، ويسلمه جثة مقابل عشرة آلاف جنيه من وقت لآخر.

كريم الشرقاوي لم يسافر لأسرته في أجازة آخر العام ولم يأتوا هم إليه أيضا وإن اكتفوا بدعوته إلى المجيء إليهم بلا إلحاح!.. يحيا أجمل قصة حب من طرف واحد مع نصف روحه الثاني "لويزا الرفاعي".. تلك الفتاة التي أسرت قلبه وكبلت عقله منذ اللحظة الأولى وكل يوم، لم يسمع بفتاة بمثل رجاحة عقلها واتزانه، أخذ قراره أن يكون رجلا بحق ليحبها كما هي لا كما يرجوها منتظرا اليوم الذي ترحمه فيه من عذابها له وتصارحه بحبها، حواء قيل أنها خلقت من ضلع آدم الأعوج ولكن آدم لم يسع لإعادتها لصدره جبرا ولم يعتبرها من ضمن أملاكه الشخصية ولم يسع إلى إصلاح إعوجاجها بالحكمة والموعظة الحسنة، بل سكن إليها كما هي.

ما كان يؤرقه فقط هو شلبي الأولعبان الذي صار يراه في كل مكان يذهب إليه!

تلك الجمجمة الثرثارة التي صارت تظهر له في كل وقت وحين دون استئذان!

مختار البهنساوي قتل عاهرتين آخرتين بمساعدة سعيد عبد الجليل الذي رأى فيه أنه يهوى قتل العاهرات، واضطر مرة لقتل طفل بمحله كان الثانية عشر من

عمره، كل ذلك من أجل اللحم الآدمي الذي أدمنه، ولذلك لم يستأجر أحدا للعمل معه منذ طرد منصور بشلة خوفا من أن يكتشف اللحم الآدمي الذي يحفظه بالمجمد.

* * *

كانت الساعة قد اقتربت من الرابعة عصرا وكريم الشرقاوي يقف وحيدا في انتظار لويزا الرفاعي التي تركته منذ أكثر من نصف الساعة لكي تصلي العصر بمسجد كلية العلوم المجاورة، غلبه الملل من طول الانتظار الذي يخنقه فبدأ ينظر إلى ساعته كل ثانيتين، العصر وفقا لمعلوماته أربع ركعات فقط يسبقها مثلهن كسنة قبلية، عشرة دقائق كافية تماما من وجهة نظره لآداء الفريضة والسنة بخشوع كاف، فلِمَ تأخرت لويزا الرفاعي كل هذا الوقت!

أخرج هاتفه المحمول وظل يتصل بها ولا تجيب، شعر كريم الشرقاوي بالقلق وقد بدأ يتسلل إليه ليحل محل الضيق، لم يفكر كثيرا وساقته قدماه نحو مسجد الفتيات بالكلية، قرع الباب فلم يأته رد، ألقى السلام بصوت مرتفع..

-أنت مين؟!

جاءه صوت أنثوي غاضب من الداخل سائلا ثم ما لبث أن استطرد:

-خش يا دكتور تعال..

فتح الباب ببطء ملقيا السلام بصوت مرتفع مرة ثانية وإذا به تسقط عيناه على لويزا الرفاعي وقد دفنت رأسها بين فخذيها تبكي وتنتحب بصوت مرتفع وهناك

معيدتان شابتان تحاولان تهدئتها دون جدوى.

-فيه إيه يا جماعة.. مالك يا لويزا؟!

أصابه الخرس وابتلع لسانه مذهولا حين رفعت لويزا الرفاعي وجهها تجاهه ونظرت إليه بعينين تخفيهما الدموع التي تجري أنهارا.. عيناها استحالتا بلون الدم.. ولكن لم تكن عيناها هي ما أثارت فزعه ولكن وجهها الذي رُسِمَ عليه نقش واحد في أكثر من موضع.. نقش رغم تسرع راسميه وعدم دقته إلا أنه لا يمكن أن تخطئه عين.. لقد رسم الصليب أكثر من مرة على وجه لويزا الرفاعي وزراعيها!

-هو إيه اللي حصل؟؟

سألهن كريم الشرقاوي وقد بدأت الدموع تنساب رغما عنه من عينيه شفقة علي حبيبته..

-لو معاك عربية هاتها ووصل البنت لأهلها يا دكتور.

قالتها المعيدة الشابة في صرامة، ولكن كريم الشرقاوي ثارت حميته وثائرته وصاح في غضب:

-أنا لا يمكن..

-روَّحني يا كريم.. روَّحني.

قاطعته لويزا الرفاعي بكلمات تبينها بصعوبة بين بكائها.

-يا لويزا ..

-بقولك روَّحني..

صرخت لويزا الرفاعي في جنون.. هذه الفتاة على حافة الانهيار العصبي.. تركهن كريم الشرقاوي وجرى مسرعا وأحضر سيارته أمام البوابة القريبة من المسجد ليجد لويزا الرفاعي قادمة تستند على المعيدتين الشابتين والطلاب القليلون المتواجدون حتى هذا الوقت يرمقونها بنظرات دهشة وتطفل، أركباها السيارة وشكرهما كريم الشرقاوي في عجل وقاد سيارته في جنون نحو بيت لويزا الرفاعي.

-ولاد الكلب كانوا عايزين يطردوني من الجامع.

تحدثت من تلقاء نفسها لويزا الرفاعي وقد هدأ بكائها ولم تتوقف عن النشيج، لم يعقِّب كريم الشرقاوي ونظر لها نظرة جانبية سريعة ليراها تنظر إلى الطريق أمامها الذي ينهبه نهبا بسيارته، أكملت حديثها من العالم الآخر الذي تتواجد فيه الآن بعقلها لتحكي لكريم الشرقاوي ما حدث.. مجموعة من الفتيات من المنتقبات اعترضوا على تواجدها بمسجد الكلية بملابسها التي ترتديها وقد لفت طرحة على شعرها عند دخول المسجد، أخبرتهن أنها مسلمة مثلهن، فرددن عليها بأنها مسلمة سافرة ولن يسمحن بهذه الملابس في بيت من بيوت الله، أخبرتهن لويزا أنه كما قلن بيت من بيوت الله، وليتركن الأمر لله، ولكن الفتيات صممن على مغادرتها، أخبرتهن أن ملابسها تسترها بالكامل وما من رجل بالمسجد لتفتنه، ولكنهن رفضن منطقها واعتبرنهن تبجح مع الله!

أخبرنها إنها هكذا تشوه الإسلام وتحث الملتزمات على الرزيلة والسفور، أصرت

لويزا على الصلاة فانقضت الفتيات عليها يجبرنها على الخروج من المسجد ولما قاومتهن، اجتمعن عليها وشللن حركتها وجعلن يرسمن الصليب على وجهها وزراعاها، وهربن جميعهن عندما دخلت معيدتان شابتان إلى المسجد فجأة!

-هما مين علشان يعلموني الصح والغلط.. هم مين علشان يطردوني من بيت ربنا!

-إهدي بس دلوقتي يا لويزا.. وأنا أقسم بعزة وجلال الله لأجيبلك حقك.

-أنا مش عايزة حد يجيبلي حقي. ربنا قادر وعالم وعادل.. أنا عمري ما هدوَّر عليهم.. عايزين يرجعوا محاكم التفتيش تاني.. العيب على ولاد الكلب اللي غسلوا دماغهم وعلموهم أن اللي عملوه ده ليه علاقة بالدين!

أوصلها كريم الشرقاوي لمنزلها ورأي الذعر والدهشة والقلق والخوف جميعهم يختلطون ويمتزجون ويظهرون على وجه الأم التي كاد قلبها أن يتوقف وهي ترى ابنتها على تلك الهيئة، تركها كريم الشرقاوي واستأذن أمها في الانصراف على أن يطمئن عليها بالهاتف فلم يلق ردا فانصرف.

* * *

(١٦)

"لم أشرك مع الله أحدا"

هكذا كان يردد علي عسكر في عقله وهو يردد بلسانه تمتماته بالعزائم..

"بسم الله الرحمن الرحيم.. أقسمت عليك يا اشيائيل وأعوانك... وعلى الشمس والقمر وما حفت باسم الله وباسمه الشديد... وما تحت الثرى الأعظم قاهر الأعداء ودائم النعماء باسمك الأعظم الذي... "

تعلم الكثير والكثير، أهل القرية يعتقدون أنه قد اختفى عن الأعين أيام اضطهاده في العام الماضي لثلاثة أسابيع فقط وهم محقين نظريا، في حين أنه فعليا قد مرت عليه في خلوته تلك قرون طالت!

الشيخ متولى مات ميتة شنيعة وهو لن يسمح لنفسه بأن يموت ذات الميتة، أمكنه بعد تلك الخلوة التي طالت أن يعرف كيف قاد الشيخ متولى نفسه إلى هذه الهاوية، ويعرف أنه بإمكانه تجنب هذه النهاية المأساوية شديدة البشاعة.

لقد اقتص لنفسه بنفسه.. شيطانه الذي تمثل له في هيئة شيخه محمد الخطيب أوعز إليه بذلك فصدقه!

* * *

كريم الشرقاوي على المقهى يحرق أحجار المعسل ويعبيء صدره بدخان تلك

الأحجار الكريمة، عم حجازي يتعجب من شراهة كريم الشرقاوي للدخان هذا المساء ويخشى عليه من أن ينسد صدره بذرات الكربون!

-مالك يا دكتور الليلادي.

سأله حجازي في ود وكأنه يحدث ابنه أو أخاه الصغير، سؤال من يهتم لشأنك لا سؤال فضول منفر.

-أبدا والله يا عم حجازي، الامتحانات قربت والواحد قلقان حبتين.

قالها كريم الشرقاوي بابتسامة باهتة، فانحنى حجازي مقتربا منه وقال هامسا:

-يا ابني قلقان يبقى تروّح تذاكر وتستعد مش تحرق في صحتك.

تعجب كريم الشرقاوي من كلمات ناصحه الذي يقدم له نصيحة تؤثر سلبا على دخله، حتى الأطباء لم يجد من بينهم من يتمنى بأن يُشفَى جميع الناس لأن ساعتها لن يجدوا عملا، وإن بذلوا جهدهم لشفاء البعض فذلك حرصا على أن يأتيهم بعض آخرون! تبسم كريم الشرقاوي قائلا:

-وصلت يا عم حجازي.. حجر كمان بس في السريع علشان أقوم يا بركة.

-لو هتقوم بجد يبقى الأخير ده على حسابي أنا يا دكترة.

قالها ضاحكا حجازي مضحكا كريم الشرقاوي معه ومنتزعا إياه من هول ما حدث صباحا مع لويزا الرفاعي ولكن ما لبث أن بُتِرت ضحكته حين أضاءت شاشة هاتفه المحمول باسم ليلي صديقة لويزا الرفاعي التي لم يعتد تلقى اتصال منها في غير أوقات الجامعة الصباحية للسؤال فقط عن لويزا الرفاعي!

-أزيك يا كريم.. أنا آسفة لو بكلمك متأخر.

يضيق كريم الشرقاوي زرعا بحفنة الاعتذارات التي تسبق صلب الموضوع في الاتصالات الهاتفية المتأخرة وكأن المتصل اقتحم عليه غرفة نومه حيث يجلس عاريا!.. إن كان هناك أي حرج ما أجاب اتصاله!.. الأمر في قمة البساطة.. أخبرها كريم الشرقاوي ألا داعي لاعتذاراتها ولها الحق في أن تتصل في أي وقت فكررت اعتذارها ثانية قائلة:

-أنا آسفة والله لتاني مرة.. أنا كنت بس بتصل بلويزا كذا مرة على موبايلها وما بتردش عليا.. لما اتصلت على تليفون البيت مامتها بتقول أن بنات ضايقوها في الكلية وهي قافلة على نفسها الأوضة من ساعة ما واحد زميلها وصلها وقاعدة بتعيط وبتقرأ قرآن ومش عايزة ترد على حد.. كريم أنت معايا؟!

مط كريم الشرقاوي على الطرف الآخر شفتيه في تعجب من ليلي التي تتحدث بسرعة ١٠٠٠ كلمة في الدقيقة في زفير واحد ولا تعطي لمن يستمع إليها الفرصة يتمتم على الأقل بأي كلمات تدل على التجاوب معها!

-طبعا يا ليلي معاكي وبعدين؟

-وبعدين إيه يا كريم ما أنا متصلة بيك أفهم اللي حصل، مهو أكيد أنت اللي كنت معاها ووصلتها ولا إيه يا كريم؟!.. كريم أنت بتروح فين؟!

-أيوة يا ليلي معاكي.. خليكي معايا ثانية.

قالها كريم الشرقاوي في نفاذ صبر ثم تنفس في عمق محاولا تهدئة أعصابه ثم نادى على حجازي وأشار إليه أن يسرع بتغيير حجر المعسل ليحاول تنظيم

تنفسه مع دخان المعسل، لم يستكمل حديثه مع ليلى إلا بعدما سحب أول دفعة من دخان المعسل قائلا:

-هحكيلك كل حاجة بس من غير ما تقاطعيني والنبي يا ليلى.

* * *

كان علي عسكر وزملاءه في صباهم من وقت لآخر يلتف سبعة منهم حول جسد زميل ثامن.. ثلاثة في كل جانب وواحد عند الرأس.. يستلقي الثامن على ظهره على الأرض ورأسه في اتجاه القبلة.. يضع السبعة أصبعي السبابة والوسطى من كل يد أسفل جسد الثامن المسجي على الأرض ويتحدث الأول عند الرأس ليردد الستة وراءه..

" كان.. سيدنا سليمان.. عليه السلام.. يخدمه الجان.. فأقسمت عليكم.. أيها الجان.. أن تحملوا.. جسد هذا الغلام.. بأمر من الرحمن"

وما إن ينتهي وتبدأ أصابعهم ترفع الجسد حتى يرتفع معهم وكأنه ريشة لا وزن لها فتتوتر الأعصاب ويتفصد العرق من الجباه من رهبة الموقف، وما إن يبتسم أحدهم أو يضحك من فرط الإثارة حتى يثقل الجسد فجأة ويهوي إلى الأرض!

* * *

(١٧)

خلال عام واحد، ذاع صيت علي عسكر حتى وصل إلى المدينة بل وصل صيته إلى محافظات مجاورة.. أصبح قبلة للوافدين من المدينة ومن القرى المجاورة.. يكفيه أن يجندل قرينه قرين زائره حتى يعرف لم زاره من قبل أن يتحدث الزائر عن مسألته.. يتذكر جلسات الصبا حين كان يحضر الجان ليحمل جسد زميله بأمر منه بعدما يقسم عليهم.. كان قديما يشعر بتفاهته في تلك الأثناء.. الآن هو يعلم السر!

حافظ على عسكر فقط على مبدأ واحد.. ألا يؤذي أحدا مهما قيل عنه.. لن يحتمل وزرا يوضع في عنقه يوم القيامة.

* * *

ليس هناك شك أن مهنة اللحاد التي أورثها الراحل عبد الجليل وهدان لابنه سعيد عبد الجليل هي السبب الأكبر في فتور مشاعره الإنسانية، بل بصراحة يمكن القول أنها هي السبب الرئيسي في قتل تلك المشاعر الفطرية تماما!

منذ ساقته الأقدار للحياة وسط هذه المقابر وهو يرى أهالى الموتى يمزقهم ألم الفراق وهم يدفنون ذويهم حتى يكاد ليظن الباقين أن هؤلاء أمامهم ساعات معدودات في هذه الحياة قبل أن يختارهم الموت ليلحقوا بمن سبقوهم ولكن مع مضي الأيام والشهور والسنين ترجع الحياة لمسارها الطبيعي وكأن شيئا لم يكن!

هذه الزوجة الشابة العاشقة لزوجها الراحل التي استحالت دموعها دما وهي تبكي بحرقة بجسدها، يراها سعيد عبد الجليل بعقلها في عالم مواز حيث تجلس مع أحزانها وقد فقدت ساعتها اتصالها بكل ما يمت لهذا العالم بصلة فاختلط مخاطها بلعابها بدموعها.

يراها سعيد عبد الجليل تلعن في سرها ذلك الزوج النذل الذي فضَّل الموت عليها.. تركها في منتصف الطريق تفكر هل تتزوج لتجد مع آخر حياة أخرى تقضي على كابوس الحزن الذي سيطاردها كلما جاء ذِكر لزوجها الراحل، أم ترضخ لجحيم مجتمع شرقي لا يرحم يرى – ظلما – في الأرملة إن تزوجت أنها عاهرة تقتلها الشهوة على الرغم من أن ذات المجتمع الظالم لنفسه سيصفها ظلما بالصيد السهل إن لم تتزوج!.. ربما سترفض الزواج وتأتي كل مرة بعد فترة تطول عن سابقتها لتزرف بعضا من الدموع على زوج اشتاقت إليه ثم ما يلبث معين دموعها أن ينضب وتكف عن المجيء وتضن عليه بالزيارة!

يلوم سعيد عبد الجليل نفسه إن تأثر بهذا الزوج العاشق الذي جاء يودع زوجته الراحلة ويودِعها أسفل الثرى باكيا، هذا الزوج الذي لن يكون أمامه خيارا آخر سوى الزواج بأخرى مهما أخَّر هذا القرار، يفعل ذلك مجبرا من نفس المجتمع الشرقي الظالم لنفسه الذي يرى في وفاء الرجل لزوجته الراحلة رفاهية لا تليق بالرجال!

تعلم ألا يتأثر مطلقا بالابناء الذين جاءوا يودعون أبا لهم أو أما أو كلاهما إذ اكتشف مع خبرته التي اثقلتها الأيام والسنين أن الابتسامات فالضحك سرعان ما تجد طريقهم إلى وجوههم بعد مدة لن تزيد عن شهر على أفضل تقدير!

قد يتعاطف قليلا مع العجائز الذين جائوا ليدفنوا أبنائهم أو أزواجا لهم، هم حقا الوحيدون الطامعون الراجون بصدق مهما طال الزمن أن يعجل الله بلحاقهم بمن سبقوهم!.. وكثيرا منهم من يسرعون!

لم يبك سعيد عبد الجليل نفسه سوى مرة واحدة حين فقد أبيه، حتى جائت اللحظة التي كتب لمشاعره الإنسانية أن تتحرك بعد ثبات طال مع رؤية دموع كريم الشرقاوي الذي وقف يبكي بصدق وسط الحاضرين لدفن تلك الفتاة الشابة التي أغلق لتوه عليها القبر!

وقف كريم الشرقاوي يبكي ولا يبدو عليه أنه يشعر ببكاءه، عقله لا يلتفت لهذا الشجار اللفظي السخيف بين الحاضرين من جانب وشخص ملتحي سلفي الهيئة من جانب آخر يصر على ألا يخطب أحدهم في الحاضرين ولا أن يجهر بالدعاء فيأمِّن الحاضرين، مدعيا في غلظة أن ذلك ليس من السنة النبوية في شيء.

عقله لا يكاد يصدق حقيقة ما يرى، لويزا الرفاعي التي كانت تركب إلى جواره في السيارة في اليوم الماضي انتزعها ملك الموت من بينهم دون مقدمات، لم يُهوِّن عليها الأمر بكلمات الوداع، لم ينل الفرصة ليخبرها أنه لم يهدأ حبه لها يوما في قلبه.

لم يصدق في البداية ليلي التي اتصلت به في الصباح لتخبره بوفاة لويزا الرفاعي التي رفضت أن تستيقظ صباحا حين حاول أبوها المسكين المكلوم أن يوقظها..

-أنتي بتقولي إيه، ما تخرفيش.

قالها في غضب ناهرا ليلي، لابد أنها تكذب، وأغلب النساء تبرع في الكذب، ربما تكون هذه الكاميرا الخفية ويخرج صوت من الهاتف يسأله إن كان يرغب في إذاعة هذا السخف، لابد أن لويزا الرفاعي تداعبه لتعلم مدى حبه لها، ولكن بكاء ليلي كان حقيقيا صادقا نابعا من قلب جريح وعقل مصدوم وهي تقسم له أن ما قالته هو الحقيقة، وأنها لا تصدق أن أعز صديقاتها قد ماتت فجأة وفي هذا العمر وكأن الموت له حد أدنى من السنين!

لم يعقب كريم الشرقاوي حينها، سقط هاتفه المحمول من يده وشعر بانخفاض حاد في ضغط دماءه وأوشك على السقوط أرضا من هذا الدوار الذي أصاب رأسه، جلس على فراشه غير مصدق لما حدث، يسمع صوت ليلى تناديه عبر الهاتف فلا يلقي لها بالا، رحلت لويزا الرفاعي سعيدة بلا شك مع ملك الموت إلى رب ليس بظلام للعبيد، رحلت باصقة بصمتها على هذا العالم الظلامي الظالم لنفسه السطحي النظرة.

* * *

(١٨)

نهض علي عسكر واجما يودع زائره الغريب، مر عليه المئات الذين يطلبون أمورا تكاد تكون مستحيلة، ولكن تلك هي المرة الأولى التي يطلب منه أحدٌ أمرا هو المستحيل بذاته!

عندما دخل عليه تعجب من هيئته، ذلك رجل من المتعلمين الذين لا يؤمنون بأمثاله، ذلك الطراز الذي يشع الذكاء من أعينهم.

-أنت أكيد عارف أنا جايلك ليه؟

سؤال ترك بعضا من الشك والضيق في نفس علي عسكر، يكره الذين يأتون إليه في مسألة برغبتهم الشخصية ولكن لابد لهم من اختباره أولا!

-أحب أسمع منك.

صمت الزائر لبرهة من الوقت يزن كلمات علي عسكر، لا يبدو من ثباته أنه نصّاب.

-أنا دكتور مراد توفيق.. دكتور أسنان.

-كمّل.

-مريض مستني يموت في الكام شهر الجايين.

اختنق صوته وهو يقول جملته الأخيرة.

لم يكن مراد توفيق يتخيل منذ شهر مضى أن يجلس تلك الجلسة، تزوج منذ عشرين عاما من زميلته بالجامعة بعد قصة حب ملتهبة كتب الله لها النجاح، ولكن القدر حمل له مفأجأة لم تكن سارة لنفوسهما على الإطلاق إذ تأخر إنجابهما لعشر سنوات كاملة، عشر سنوات عجاف زارا فيها جميع الأطباء وجميعهم يؤكدون في ثقة تامة بأنه ما من عيب في كليهما.

تحملا تلك الأزمة سويا وسافرا إلى السعودية للعمل وللهرب من اسئلة المتطفلين الذين أحالوا حياتهما جحيما حتى رزقهما الله بابنهما أحمد الذي انتشلهما بقدومه من قاع الجحيم ليطير بهما إلى الفردوس الأعلي، وحدث أن ارتكب الزوجين أشد أخطائهما فداحة.

قرر الزوجان أن يعودا إلى مصر بعد أن أتم صغيرهما عامه الرابع، عادا ليسكنا بيتا فخما اكتمل بناءه في عام واحد.. عادا ليركبا سيارة تجذب أعين الحاسدين دفعا ثمنها من شقاء سنوات الغربة، عادا ليفتتحا عيادة تليق بقادمين من السعودية بعد ما يقرب من عقد ونصف، عادت العائلة الصغيرة السعيدة لتتلقى سهام الحسد في منتصف القلب مباشرة سرا وعلانية مصوبة من أعين الناس وألسنتهم.

في نفس اليوم الذي أخبرته مروة زوجته بأمر حملها الثاني ليطير من السعادة خسفت به أغمائته الثانية إلى سابع أرض، كان قد تجاهل الأمر عندما حدث للمرة الأولى منذ شهر ونصف ولكن مع التكرار بدأ الشك يحفر بهمّة ثقوبا في قلبه وسريعا ما تتسع.

زار الأطباء وأجرى عشرات التحاليل والآشعة المختلفة أنواعها وألوانها ليدرك أن السرطان قرر أن يختاره كضحية تالية وبلا رحمة، فهم أن حالته متأخرة ولسوف يأخذ جرعات من العلاج الكيماوي الذي لن يُجدِي نفعا مع السرطان المنتشر والمستفحل ثم سيأتي الأطباء وينفردون بزوجته الباكية ليخبروها أن أيام زوجها في الدنيا أصبحت معدودات ووفاته أكيده، سينصحونها بأنه من الأفضل أن يرحموه من عذاب العلاج الكيماوي وأن عليها أن تُحسِن معاملته وألا تحرمه من حضنها وحنانها ودفء أسرته في الأيام القادمة حتى يحين أجله القريب!

تعمق في البحث لليال طالت عن علاج فعال بنسبة ١٠٠٪ فلم يجد، آلاف الأبحاث والدراسات النظرية والكثير من المسكنات التي يتآكل معها بدنه، سخط على هذا العالم الضال الذي إن أنفق على البحث العلمي قدر إنفاقه على الحروب لحصد الموت البشر وهم بصحة جيدة.

-أنت جاي بتدور على علاج؟

-أنا دكتور.. وعارف إن مفيش علاج واعذرني لو فيه مش هيبقى عندك.

صمت الاثنان وتبادلا النظرات.

-مش هينفع.

قالها علي عسكر قاطعا الصمت.

-أكيد في طريقة.

-ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي.

-أنا قريت أن الفراعنة عملوها، والأنبيا عملوها.

-طلبك مستحيل.

-مش هفقد الأمل، وعلى العموم اسأل ودوَّر وشوف، جسم تاني.. نفس الجسم.. مش فارقة.. ما تحرمنيش بس أني أشوف ابني اللي عايش وابني اللي جاي، هديلك مليون جنيه هما كل اللي معايا.

-مش قصة فلوس.

-برضوا مش هفقد الأمل، هسيبك إسبوع وارجعلك علشان لو لقيت حل نتفق على التنفيذ هيكون إزاي، وإنت عارف إني بتكلم جد.

قالها مراد توفيق ونهض راحلا وخلفه علي عسكر يوصله في صمت حتى الباب!

* * *

كريم الشرقاوي تبكيها بغير وعيه عيناه، لا تدري عيناه أتبكي من ألم الفراق والحرمان القادم من إشراقة وجهها ببراءته، أم تبكي وقد راعها الظلم الذي لاقته تلك الفتاة ببشاعته فلم تتحمل روحها الهشة هول ما رأت!

كريم الشرقاوي كان مشتتا في انجذابه إليها بين شهوة الروح وشهوة الجسد، لو أن لويزا الرفاعي ماتت تحت أيدي تلك الغاشمات ضربا لهان الأمر عليه، لو انهلن عليها بأحذيتهن النجسة فماتت كما ماتت شجر الدر تحت قباقيب نسوة "أم علي" زوجة أيبك لهان عليه الأمر.

الشيء الذي يترك مرارة في نفسه أن لويزا الرفاعي ماتت بعد أن أُهدِرَت كرامتها ونزفت من عروق روحها بفعل سيف الظلم الذي شطرها نصفين وهي في سمو ترفض قبل وفاتها رفضا قاطعا أن تقتص ولو بالقانون من هؤلاء الفتيات قبيحات العقل اللاتي يحملن أحذية بالية في رؤوسهن بدلا من العقول!

رحلت لويزا الرفاعي حبيبته وصديقته ومستقر عقله ووجدانه وحافظة أسراره فلم يبق لك في هذا العالم يا كريم غير شلبي الأولعبان وسعيد عبد الجليل الذي همس لك بأذنك أن تمر عليه عندما يأتي المساء!

* * *

ما إن غربت الشمس وأظلمت السماء حتى كان كريم الشرقاوي الذي اثملته أحزانه يطرق باب سعيد عبد الجليل في وهن، فما لبث أن فتح له الأخير وأدخله وقد أثار دهشته بالحالة المذرية التي كان عليها!

-دي قريبتك ولا إيه يا دكتور كريم؟

سأله سعيد عبد الجليل في حذر محاولا الكشف عن سر حزنه الشديد عليها فأجابه بأسى بالغ:

-لا يا سعيد دي كانت زميلتي في الكلية.

تنهد سعيد عبد الجليل وهدأ باله وقد كان يظن أن تلك الفتاة أخته.

-أمال مالك مزعل نفسك قوي كده ليه يا دكترة بس؟!!!

نظر إليه كريم الشرقاوي وهم بإخباره عن شخصية لويزا الرفاعي النادرة وماذا

كانت تمثل له وكيف أصبحت حياته بائسة دونها ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة عن شرح كل هذا حين أدرك أن من هو مثل سعيد عبد الجليل من الصعب، بل من المستحيل عليه تفهم تلك الأمور.. بل أمثاله ينظرون إلى الصداقة في الجامعة بين أي شاب وفتاة ما هي إلا علاقة زنا أو على أحسن الظروف جماع بغير إيلاج!

هكذا روجت السينما والتليفزيون عقودا في أذهانهم!

-كنت ناوي أخطبها في الأجازة الجاية يا سعيد وكنا قاربين فاتحة.

كذب كريم الشرقاوي ليريح نفسه من عناء البحث عن إجابة أخرى تُقنِع سعيد عبد الجليل.

-كنتوا بتحبوا بعضيكم يعني؟!

لم يكن هذا أبدا الوقت المناسب لأسئلة سعيد عبد الجليل المتسمة بالغباء!.. فكَّر أن يترجم ضيق صدره بكلمات يجيب بها سائله بأنه كان ينتوي خطبتها من أجل استعادة حق له عند ابيها أو لأنه أخطأ معها ويحاول أن يصلح خطأه ولكنه تراجع في اللحظات الأخيرة معتبرا ذلك تظرفا منه لا يليق بفداحة الحدث!

-آه يا سعيد كنت بحبها جدا.

-روَّق كده يا دكترة وصلي على النبي، الأعمار بيد الله.. ربنا يعوضك بأحسن منها إن شاء الله.

رفع كريم الشرقاوي رأسه المحنية حزنا ناظرا إلى سعيد عبد الجليل وفكر في أن يبصق على وجهه.

هل يمكن عزاء ابن في ابيه بالقول "ربنا يعوضك بأحسن منه"؟!

هل رحيل أي إنسان يمكن أن يعوضه إنسان آخر؟!

هل الأب يعوض غياب الأم؟!

هل الزوجة تعوض موت الابن؟!

-طب أحمد ربنا إنك ما اتجوزتش ومصاريف وتكاليف وفرح وعفش وشقة.. أبويا الله يرحمه من كام سنة دفن عروسة بعد فرحها بيومين.. كان مكتوب في تصريح الدفن هبوط حاد في الدورة الدموية بس تقريبا كده جوزها كان تور والأهل داروا على الموضوع.. طول ما احنا بندفن جوزها كان واقف بيعيط زي الولايا.. جه لأبويا بالليل وقعد يعيطله علشان يفتحله التربة يقعد مع مراته مرة أخيرة.. أبويا الصعيدي صعب عليه الراجل وكان أول وآخر مرة يفتح تربة على واحد.. أبويا غاب ربع ساعة ورجع لما استعوق الراجل ونزل لقاه راكب على مراته!

-إيه؟!

-قسما برحمة أبويا ده اللي حصل زي ما بحكيلك.. الراجل بكل بجاحة بيقول لأبويا إنه مديون وصرف دهن كبده على الجوازة، ودي جاية تموت في الليلة اللي سلمته نفسها فيها!.. أبويا تف في وشه وطرده وما كنش في إيده غير كده لأنه الغلطان م الأول.

ابتسم كريم الشرقاوي رغما عنه وهو يتخيل الموقف..

-وجاله قلب يا سعيد يعمل كده والميتين كلهم بيتفرجوا عليه؟!

-يا دكترة تلاقي الميتين هم اللي بيشجعوه.. بقالهم زمن ما شافوش حاجات حلوة..

-طب ما تفتحلي التربة أنا كمان يا سعيد.

قالها في سخرية كريم الشرقاوي فعاجله سعيد عبد الجليل قائلا في تخابث:

-أهو ترجع تمن الدباديب.

رمقه كريم الشرقاوي بنظره غاضبه لائما نفسه أولا على ما قاله، فاستطرد سعيد عبد الجليل قائلا:

-لا مؤخذة يا دكترة خليك أنت هنا وأنا خمسة وراجع.

وتركه لينفرد بأحزانه مرة ثانية لتبدأ دموعه تتجمع في مقلتيه، خرج سعيد عبد الجليل وهو يفكر في طريقة للتسلية هذه الليلة ولإخراج كريم الشرقاوي من حزنه المسيطر عليه.

* * *

ما يطلبه هذا الرجل مستحيل الحدوث ولا جدال في ذلك، انتظر علي عسكر حتى أتي المساء وتوضأ ثم استدعاهم، اجمعوا جميعهم على أن الأمر مستحيل، كيف يطلب هذا المخبول أن يحيا ثانية بعد موته، طالبا إعادة روحه لجسده أو لجسد آخر!

العالم يعج بالمخابيل ولكن هذا الرجل لا يبدو مخبولا!

ليس للأمر علاقة بالمال، علي عسكر ليس في حاجة لمال، الأمر يتلخص في التحدي، هذا الرجل الذي أتى ليضعه في غرفة مظلمة حدودها جميعها من الغيبيات ويطالبه بأن يُخرِج نفسه منها!

فكر علي عسكر أن يتجاهل تلك الزيارة وكأنها ما كانت، ولكن الفضول بداخله كان يُلِح عليه، يطمع في المعرفة، فكر ثم قرر أن يسير بإرادته إلى هذه الغرفة المظلمة ليعود سالما قدر الإمكان بالحقيقة أو لا يعود على الإطلاق، ليست تلك المرة الأولى كما قال، حمار العزير عاد إلى الحياة بعد موته وتحلله بعدما أصبح حفنة من العظام، نبي الله إبراهيم خليل الرحمن جمع الطير وذبحه وجعل كل جزء منه على جبل ثم نادى فيهم فأعادهم الله إلى الحياة، رجل بني إسرائيل الذي قُتِلَ وضُرِبَ بالبقرة المذبوحة عاد إلى الحياة وأخبرهم بقاتله!

ليس الصعوبة إذا في استحالة حدوث الأمر وإنما الصعوبة تكمن في الكيفية.

* * *

عندما قام الخلاف بعد موت رمسيس الثالث الذي كان قد أوصى مجلس الحكماء أن يتولى ابنه الأصغر رمسيس الرابع الحكم بدلا من ابنه الأكبر قائد الجيش، استدعى الكاهن الأعظم الذي قام بأحياء الملك الذي سُئِلَ عن وصيته في حضور أولاده ومجلس الحكماء فنطق برغبته وأشار إلى ابنه رمسيس الرابع الذي نودي به ملكا.

إحدى برديات تورين.

* * *

وقف الكاهن (جدي) أحد سحرة معبد هوليوبوليس أمام الملك خوفو، فصل رؤوس الطير عن أجسامها ووضعها في أركان القاعة الأربع ثم تلا عليها تعازيمه السحرية فالتحمت الرؤوس بالأجساد وعادت الطيور للتحليق وهي تصيح وتغرد، كما قام الساحر (جدي) في حضور الملك وابناءه وحكماء القصر بإحضار ثور كبير فضرب رأسه فسقط على الأرض بعيدا عن جسده ثم تلا عليه عزائمه السحرية فقام الثور وراءه وخرج الساحر من القاعة يتبعه الثور وهو يخور!

بردية وستكار

* * *

قال يسوع: ارفعوا الحجر. قالت له مرثا، أخت الميت: يا سيد، قد أنتن لأن له أربعة أيام × قال لها يسوع: ألم أقل لك: إن آمنت ترين مجد الله × فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعا، ورفع يسوع عينيه إلى فوق، وقال: أيها الآب، أشكرك لأنك سمعت لي × وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا أنك أرسلتني × ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم: لعازر، هلم خارجا × فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة، ووجهه ملفوف بمنديل. فقال لهم يسوع: حلوه ودعوه يذهب × فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم، ونظروا ما فعل يسوع، آمنوا به.

إنجيل يوحنا الإصحاح الحادي عشر

* * *

فلما اقترب إلى باب المدينة، إذا ميت محمول، ابن وحيد لأمه، وهي أرملة ومعها

جمع كثير من المدينة × فلما رآها الرب تحنن عليها، وقال لها: لا تبكي × ثم تقدم ولمس النعش ، فوقف الحاملون. فقال: أيها الشاب، لك أقول: قم × فجلس الميت وابتدأ يتكلم، فدفعه إلى أمه × فأخذ الجميع خوف، ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم، وافتقد الله شعبه.

إنجيل لوقا الاصحاح السابع

* * *

فَغَضِبَ عَلَيْهِ رَجُلُ اللهِ وَقَالَ: "لَوْ ضَرَبْتَ خَمْسَ أَوْ سِتَّ مَرَّاتٍ، حِينَئِذٍ ضَرَبْتَ أَرَامَ إِلَى الْفَنَاءِ. وَأَمَّا الآنَ فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَضْرِبُ أَرَامَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ". × وَمَاتَ أَلِيشَعُ فَدَفَنُوهُ. وَكَانَ غُزَاةٌ مُوآبَ تَدْخُلُ عَلَى الأَرْضِ عِنْدَ دُخُولِ السَّنَةِ. × وَفِيمَا كَانُوا يَدْفِنُونَ رَجُلاً إِذَا بِهِمْ قَدْ رَأَوُا الْغُزَاةَ، فَطَرَحُوا الرَّجُلَ فِي قَبْرِ أَلِيشَعَ، فَلَمَّا نَزَلَ الرَّجُلُ وَمَسَّ عِظَامَ أَلِيشَعَ عَاشَ وَقَامَ عَلَى رِجْلَيْهِ.

سفر الملوك الثاني الإصحاح الثالث عشر

× × ×

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

سورة البقرة

* * *

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

سورة البقرة

* * *

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ × فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ×.

سورة البقرة

* * *

كريم الشرقاوي بفرائص ترتعد يسير خلف سعيد عبد الجليل في الممرات غير الممهدة بين القبور، يتذكر كل تلك الليالي الكاحلة التي حملا فيها الجثث سويا نحو سيارته، يتبع سعيد عبد الجليل دون أن يدري وجهتهما وبخاصة في هذا الظلام حتى توقفا أمام بوابة حوش يحوي أربعة أعين لقبور.

-هو ده آآ..

هز سعيد عبد الجليل رأسه أن نعم، فدخل كريم الشرقاوي من بوابة الحوش وخطا ببطء نحو العين الأخيرة التي دفنت بها لويزا الرفاعي منذ بضعة ساعات

وهم برفع يديه بالدعاء ولكن سعيد عبد الجليل أمسك يديه وهز رأسه آمرا ألا يفعل فبدت تساؤلات عدة على وجه كريم الشرقاوي.

-ما هي دي المفاجأة يا دكترة، ده واجب معمول ليك أنت بس علشان أنت غالي.

وقبل أن يستفسر كريم الشرقاوي عن كلماته المبهمة انحنى سعيد عبد الجليل وأزال القفل الصديء الخاص بمزلاج باب العين الحديدي الذي كان مفتوحا لينفتح الباب!

-أنت بتعمل ايه يا سعيد؟!

-الصبر يا دكترة.. الصبر.

قالها والتفت لكريم الشرقاوي مشيرا بأصابع يده على هيئة قمع طالبا منه أن يصبر ثم عاد ليزيح قوالب الطوب المتراصة بغير جبس لتسد فتحة العين وراء الباب الحديدي حتى رأي كريم الشرقاوي الظلمة المميزة لمدخل القبر.

-أنزل أدعي فوق راسها ولو مرة أخيرة.

-أنزل فين أنت بتهرج!

تسارعت أنفاس كريم الشرقاوي ونبضات قلبه من الفكرة في حد ذاتها، بينما سعيد عبد الجليل يبتسم في تخابث سائلا:

-أنت خايف من إيه؟!

-يا عم جني ولا عفريت يركب الواحد.

-جن إيه وعفريت إيه بس يا دكتور.. القبر ما فيهوش غير الدكتورة حبيبتك اللي مش هتأذيك والملايكة وقت الحساب و..

-أقوم أنا أقطع حسابهم وأضايقهم؟!

-الحساب زمانه خلص.. هي دلوقتي يا في جنة يا في نار.. أنت خايف ولا إيه؟!

لعنه كريم الشرقاوي في سره ولعن الطريقة التي سأله بها ساخرا منه إن كان يستشعر خوفا، تلك الطريقة التي تصيب كرامتك في مقتل وكأن من العار أن يشعر قلبك بخوف!.. سوف تُخصَى رجولتك إن حاولت أن تفصح عن مخاوفك!

-يا عم سعيد روَّق كده.. أنا مش خايف يا باشا أنا بقرف من الدود..

-دود إيه يا دكترة.. آخر جثة اندفنت هنا من تلات سنين والدود لما بيخلّص على جثة بياكل بعضه لحد ما التربة تبقى سيراميك.. خليك راجل كده زي ما عرفتك دايما يا دكترة وجمِّد قلبك..

أعطاه الكشاف بإضاءته الساطعة قائلا:

-يا للا يا دكترة لو فيه حاجة نادي بعلو صوتك هتلاقيني.. وجمد قلبك الرجولة مش ببلاش.

بدا التردد جليا على وجه كريم الشرقاوي الشاب الذي لم يبلغ العشرين من عمره ولكن إيماءة تشجيع من سعيد عبد الجليل دفعته إلى التقدم بقدمين لا تقويان على حمله.

هبط كريم الشرقاوي الدرجات المعدودات التي تفضي إلى جوف القبر حيث

حجرة الدفن ولم يفلح الكشاف في أن يبدد ظلامها بالكامل، أبصرها داخل كفنها، اقترب زاحفا حتى وصل إلى وجهها الملائكي الذي اختفت من عليه آثار الحبر الذي كان يغطيه بالأمس، ارتجفت أوصاله حين لمح الابتسامة التي تزين ثغرها، ابتسامة هادئة واثقة!

هل الموتى يبتسمون؟

هل دفنت هكذا أم هي سعيدة بمقدمه؟

تلاعبت بعقله الظنون وبقلبه الآمال فمد سبابته ووسطاه يتحسس نبضا في عنقها فلم يجده، نظر مرة ثانية لوجهها ثم بكى، بكى كأنه لم يبك طوال حياته الماضية، بدا أنه لن يتوقف عن بكاءه طوال حياته القادمة.

وسط الرؤية الضبابية وسط دموعه لمح ابتسامتها تتسع فلم يستشعر خوفا، لقد نسى أنه بجوف القبر، لقد تناسى أن لويزا الرفاعي أصبحت جثة هامدة لا روح فيها، وليمة يتم تجهيزها لديدان شرهة، أمسكت يد بكتفه فلم يعرها انتباها، الخوف لا يهزم الحزن، لتكن أيدي الموت تتشبث به أو لتكن يد الغول نفسه لم يعد يعنيه الأمر في شيء، ليقتلونه لتفر روحه إلى أحضان روحها ويخلد جسده إلى جوارها ليبقيا معا حتى قيام الساعة!

-أكتر من كده غلط يا دكترة، استهدى بالله.

كان هذا سعيد عبد الجليل الذي أعاده بصوته إلى الأرض مرة ثانية، لم يكن به قوة لمقاومته، سحب نفسه وصعد معه.

انشغل سعيد عبد الجليل بإعادة الطوب إلى مكانه مؤقتا إلى أن يقوم بتثبيته

obeikan.com

بالجبس في وقت لاحق، وأغلق الباب الحديدي ثانية وعندما بحث عن كريم الشرقاوي الذي كان يقف خلفه لم يجده، رحل هائما على وجهه دون انتظار لسعيد عبد الجليل الذي ولأول مرة في حياته يتعاطف مع أحد!

* * *

"سهير أختي حلال فيها الدبح"

هكذا كان يتردد الصوت دائما في أذني مختارالبهنساوي.. أصبح يرى أن الفائدة الوحيدة والمرجوة منها هي ذبحها والاستفادة بقليل لحمها مع بضعة جرامات من الشحم الذي تمتلكه.

كان الفأر قد بدأ هوايته بأن يلهو ويلعب ويرتع في صدر مختار البهنساوي، تراوده الشكوك أن أخته لم تعي الدرس وعادت مرة ثانية للعب بذيلها، تلك الأرض اليابسة قد عادت للبحث عن ماء يروي ظمئها.

أمه المتحيزة دائما وأبدا إلى صف أخته أعربت له عن قلقها إذ أمست سهير المريبة تتأخر ليلا بعد مواعيد عملها المعتادة وكل يوم تستهلك حجة جديدة حتى بليت حججها تماما.

الديوث الذي يحيا داخل مختار البهنساوي غلبه الكسل ولم يشأ التحرك لتقويم هذا الضلع الأعوج أو كسره، اقتنعه أن يغض الطرف عن تلك الشكوك التي تتجمهر برأسه متظاهرة لتؤكد له أنها حقيقة.

الديوث الذي يحيا داخله شاءت له الأقدار أن يمرض لتثور حميته ويرتدي خوذة النخوة ويستل سيف الشرف من غمده حين أبصر أخته تنزل من توك توك بأول

الشارع ليودّعها رجل كان يجلس إلى جوارها بصفعة على مؤخرتها ضاحكا!

توقع مختار البهنساوي أن تلتفت إليه أخته وتهوى فوق رأسه بحذائها منتصرة لشرفها ولكن الأخيرة ضحكت في غنج وأشارت له أن "هذا عيب" بدلال!

تسمر مكانه والأفكار تتسارع في رأسه، هل يلحق بالتوك توك ويجعل من راكبيه طعاما له في الأيام القادمة؟؟ أم يزيد الطرقات المتسخة اتساخا بدمائهم القذرة؟!

بالتأكيد تراجع مختار البهنساوي في النهاية حين أدرك أن الغلبة لا شك من نصيبهما.. فكر في أن يجعل من أخته مكنسة ينظف بها أرض الشارع ولكنه أدرك أن في ذلك فضيحة له وتشهير بنفسه بأنه من أصحاب القرون الطويلة لكي يعلم من لم يعلم بعد باستغفاله.. ثم فكر في أن ينتصر الديوث بداخله ويصمت وكأنه لم ير شيئا ولكن عقله لم يتقبل هذا القرار الأخير.

انتظر على مقهى بالقرب من بيته ليمعن التفكير في رد الفعل المناسب، فلاحظ في أعين الجالسين فيه نظرات ازدراء منعته من التفكير، صعد لشقته تاركا اتخاذ رد الفعل المناسب قيد الارتجال.

-هو مين اللي كنتي راكبه معاه وموصلك لأول الشارع؟

-لم لسانك يا ميخا.. راكبة مع مين أنا يا خويا؟!

كانت أخته سهير البهنساوي تجيد الردح!

-اللي ضربك على (كلمة عامية دارجة تعني مؤخرتها).

نظرت له سهير البهنساوي في تحد ووقاحة من لا تخشى شيئا ولم تطل نظراتها إذ هوت صفعته على صدغها مدوية واستل حزامه من بنطاله قبل أن تهجم هي عليه وانقض على جسدها يجلده بغير رحمة وقد تكورت حول نفسها على الفراش وحنجرتها لا تكف عن الصراخ مستغيثة بأمها.. هرعت الأم العجوز لنجدة ابنتها فاصلة بينها وبين ابنها وضاربة إياه في صدره..

-بنتك السهلة الرخيصة كل يوم مع واحد.

ابعدته الأم غير مصدقة لاتهاماته التي تعلم جيدا أنها صحيحة، فاستغلت سهير البهنساوي الفرصة وانقضت على وجه أخيها تنشب فيه أظافرها.

-أنا أشرف منك.. أنت فاكر كل الناس زيك!

دفع مختار البهنساوي أمه جانبا لتسقط على الأرض وانقض ثانية على أخته بحزامه الجلدي السميك صائحا بجنون، معددا مجموعة من الأوصاف التي تطعن في شرفها.

-لحقتي نسيتي شعبان توك توك اللي خلصتك منه.. فاكراني نايم على وداني يا بنت الكلب.

سمعت كلماته فلم تقاومه وقد أخرستها المفاجأة، تركت جسدها المتكوم أمامه يمزقه ضربا وركلا وجلدا وعقلها في مكان آخر يبكي شعبانها الدسوقي الذي كتب أخوها نهايته بيديه.

كاد الجسد يلفظ روحها ألما لولا الجيران الذين منعوا أخاها عنها بعدما فتحت لهم أمه الباب.. سحبوه سحبا حتى أخرجوه من الشقة ليتركهم ويذهب لمكان

مجهول مغاضبا.

سيقتلها.. كذلك أقسم وأغلظ القسم.

* * *

شلبي الأولعبان اللعين لا يكف عن ثرثرته.. ثرثار لعين ينظر إلى كريم الشرقاوي من فوق نظارته الشمسية بعينيه المصنوعتين من كرات تنس الطاولة وابتسامته الساخرة الأبدية تزين فكيه الذين خليا من الأسنان!.. اللعين لا يفتأ يحثه على دعوة لويزا الرفاعي للإقامة معهما!

-يا شلبي يا زفت أخرس بقى.. بقولك ماتت..

يقولها غاضبا كريم الشرقاوي وسط دموعه ولكن شلبي الأولعبان اللعين يرد عليه ببجاحة لا مثيل لها:

-طيب ما أنا ميت من زمان وعايش معاك وراضي أهو.. ده علشان أنت بتحبني، لكن تلاقيك عمرك ما حبيتها!

-أنت ميت من زماااااان.. حتة جمجمة مش هتعفن في يوم من الأيام.

-يا سلاااااااام!

يقولها شلبي الأولعبان متعجبا ثم يستطرد معددا الحلول المتاحة أمامهما.. يخبره بأن بإمكانه إحضارها إلى بيته ويراها تتحلل أمامه.. يمكنه أن يدفنها في مرآب البيت ثم يستخرج عظامها بعد فترة ليحتفظ بها.. يمكنه أن يحنطها كما فعل قدماء المصريين.. يمكنه أن يحرقها مثل الهندوس ويحتفظ برمادها

في قنينة تظل بحضنه أمد الدهر.. يمكنه أن يحفظها في الثلاجة أو المجمد.. يمكنه أن يحفظها لأطول فترة في الفورمالين.. نعم الفورمالين هو الفكرة الأصوب!

حمل كريم الشرقاوي شلبي الأولعبان اللعين وألقاه في غضب في خزينة ثيابه غير ملتفت لتوسلاته ثم ترك البيت وقاد سيارته إلى وجهة لا تحتاج إلى إعلان!

* * *

إسبوع قد مر على زيارة مراد توفيق الغريبة لعلي عسكر، فوجيء الأخير بالرجل يأتي إليه في موعده ولكن بجسد تدهورت صحته إلى أسوأ حال، نظر مراد توفيق في عيني علي عسكر الزائغة وتمعن في الكثير من الشعيرات البيضاء التي غزت لحيته.

-وصلت لحاجة؟!

-إن شاء الله خير.

-أنا مش عايز أعرف تفاصيل، لما هموت وده قريب جدا.. هيجيلك تليفون من واحد هيسلمك جثتي وأنت عليك الباقي.. هتديله بس المبلغ ده.

وضع أمامه كيسا بلاستيكيا أسودا انتفخت به النقود.

-وهنقلك لهنا أزاي؟!

-أي عربية ممكن تأجرها من المكاتب ليلة واحدة.. أما حسابك..

-أنا مش عايز حاجة.. اعتبرها صدقة.

لم يندهش مراد توفيق فلا وقت لديه يضيعه في الاندهاش، كل حواسه تتركز مع الألم الذي يمزقه من الداخل، الاندهاش رفاهية لا يسمح بها الألم القاتل الذي يتملكه.

* * *

obeikan.com

(١٩)

لو يعلم محمد الشرقاوي وزوجته ما يفعله ابنهما كريم لعادا من الكويت فورا وجزّا عنقه!

مغطسهما الكبير الأثير الذي كلفهما الكثير لو شاهدا ما به الآن لن يقرباه مرة ثانية بعد أن يستفيقا من إغمائهما الأكيد من هول ما سيريا!

جثة مكفنة تستلقي في المغطس بأريحية وكريم الشرقاوي يقف أمامها تائها لا يدري ما الخطوة القادمة!

-متأكد من اللي بتطلبه مني يا دكترة؟!

لم يندهش ولم يتعجب سعيد عبد الجليل بعدما عاد إليه كريم الشرقاوي في الثانية صباحا بعد منتصف ذات الليلة ليطلب منه مطلبه الغريب.

-اللي أنت تطلبه يا سعيد أنا تحت أمرك.

-عيب يا دكترة.. ورحمة أبويا ولا مليم.. أنا خايف تحتاس بيها.

عاد إليه كريم الشرقاوي ثانية ليخبره عن رغبته في استعادة جثة لويزا الرفاعي ثانية!

سيدفنها في جراج منزله الخالي بالكامل من السكان باستثناءه لتظل دائما

بقربه عارضا عليه الثمن الذي يحدده، ولكن سعيد عبد الجليل هذا الشاب الصعيدي الشهم أبى أن يتلق ثمنا لخدمة يسديها لصديقه، بنفس الشهامة حمل عنه الجثة الخفيفة حتى أوصلها إلى سيارته.

لم يجد كريم الشرقاوي ومنكباه العريضان أي صعوبة في حمل لويزا الرفاعي إلى الدور الأول العلوي، حتى بعدما ثقلت الجثة بفقدانها روح صاحبتها لم تكن مرهقة لكريم الشرقاوي الذي كان عليه بعد ذلك أن يخلع عنها الكفن الكئيب الذي ترتديه!

يقف كريم الشرقاوي حاملا بين يديه جلبابا يخص أمه الغافلة النائمة قريرة العين بين أحضان ابيه لا تدري شيئا عن الكوارث التي يرتكبها ابنها في هذه اللحظات، تائها لا يدري ما هي الخطوة القادمة.

وقف محملقا في جثة لويزا الرفاعي، إن كان عليه أن يلبس حبيبته جلباب أمه فعليه أن يعري جسدها المستسلم أولا.. هذا شيء بالطبع لم تكن لترغب به لويزا الرفاعي ولم يكن هو ليرغب به.. لقد جاء بها ليبقيها إلى جواره بعدما استخسرها في الديدان الحقيرة لا لكي يدنث طهارة جسدها، استبقاها إلى جواره من أجل سعادتهما لا من أجل إيلام روحها!

-يا ابني انجز بقى وشيل الأفكار الواطية دي من دماغك.

صاح به شلبي الأولعبان معنفا كريم الشرقاوي بفكين يلوكان العلكة بغير أسنان أو ضروس.

-بقولك شيل الأفكار القذرة دي من دماغك وغيرلها اللبس الكئيب ده احنا مش

رايحين نعزي ولا هنقلب بيت الحاج محمد أبوك ربنا يديله الصحة لبيت أشباح!.

استطرد شلبي الأولعبان بنفس أسلوبه المصر على تقريع كريم الشرقاوي.. لم يتعجب كريم الشرقاوي من كيفية هرب تلك الجمجمة المستفزة من خزينه ثيابه ولا عن كيفية وصولها إلى الحمام وجلوسها فوق قاعدة الحمام ولا عن كيفية مضغها للعلكة.. كان قديما تفاجئه تلك الأمور المريبة أما الآن فلم تعد تشغل باله!

اللعنة على شلبي الأولعبان!

اللعنة على التصلب الرمي!

عانى كثيرا كريم الشرقاوي وهو ينزع عن لويزا الرفاعي كفنها.. كان الأمر شاقا بحق واستنزف مجهوده حتى أصبحت كيوم ولدتها أمها.

-استريحلك شوية بقى وخد نفسك؟

قالها شلبي الأولعبان في برود من فوق الحوض، أقنع كريم الشرقاوي نفسه بصحة وجهه نظر صديقه، جلس على قاعدة الحمام وأشعل سيجارة لتعذب رئتيه وسط أنفاسه اللاهثة وهو يختلس النظر إلى جثة لويزا الرفاعي العارية محاولا إقناع نفسه أنها لا تختلف الآن عن المجسمات الصماء الموجودة في نافذات العرض بمحلات الملابس.. هي لن تثيره في شيء الآن.

-على فكرة يا كيمو لويزا كانت بتحبك بجد.. كانت بتحلم باليوم اللي هتتخرَّج فيه من الكلية الكئيبة بتاعتكم دي وتبقى مراتك.. اسألني أنا.

نظر له كريم الشرقاوي في ازدراء.. هذا الثرثار يحاول استفزازه لينهض ويطفأ

obeikan.com

سيجارته داخل كرات تنس الطاولة الموضوعة بدلا من عينيه.

-طب هات سيجارة.

قالها شلبي الأولعبان محاولا تهدئة أعصاب صديقه.

-طيب تعرف أن الشرع بيسمح للراجل اللي بتموت مراته بحاجة اسمها جماع الوداع!

قالها شلبي الأولعبان نافثا دخان سيجارته التي لم يعطه كريم الشرقاوي إياها، لم يعد كريم الشرقاوي يحتمل كلمة أخرى منه ونهض ليهشم رأسه.

-خلاص يا عم دي مراتك وأنت حر معاها.. إيه ده.. صدرها بيتنفس!

التفت إليها في لهفة كريم الشرقاوي، وثبت عينيه على صدرها يترقب حركة ينتظرها.. سبحت عيناه في محيط جسدها متظاهرا بالبحث عن حركة.. بهره روعة جسدها بلونه الشاحب الذي زاده روعة.. اللعنة على جهازه البارا سيمباثاوي وما يحدثه بنصفه السفلي بغير إرادته.. اللعنة على غرائزه الجنسية التي استفاقت جميعها دفعة واحدة.. شلبي الأولعبان اللعين هذا أحيانا ينصحه بالصواب!

القبول هو أهم شروط الزواج وهي كانت تقبله زوجا في مستقبل لم يأت كما أخبره شلبي الأولعبان.. وثاني أهم شروط الزواج هو الإشهار وها هو شلبي الأولعبان حاضرا يترقب ليحتفل.. اقترب منها تاركا خلفه عقله ودينه وملابسه!

ارتكب كريم الشرقاوي فعلا دنيئا طاب لعقله وفرجه في حينها.. فعلا دنيئا يسميه الغرب بالنيكروفيليا و نسميه نحن بمضاجعة الموتى ويسميه كريم

الشرقاوي وشلبي الأولعبان بجماع الوداع!

* * *

سار سعيد عبد الجليل إلى جوار الزائر الذي جاءه يسأله عن مدافن عائلته متأفغا، هل ضاق به الوقت لهذه الدرجة في هذا الجو العاصف!

-هي دي يا باشا مدافن عيلة توفيق.

-طيب استناني لحظة من فضلك.

قالها الزائر وأخرج من كيس بلاستيكي أسود مزهرية من الفخار بها نبتتة من الصبار ووضعها فوق القبر الواقفين أمامه.

-أنا قريب قوي هندفن هنا.. افتكرني بالصبار ده.

قالها مراد توفيق في حيادية تامة تخلو من حزن مثلما تخلو من سعادة وكأنه يتحدث عن موت شخص آخر غيره!

-ما تقولش كده يا باشا ربنا يديك طولة العمر.. دي الأعمار بيد الله.

قالها سعيد عبد الجليل ناظرا إلى هيئة هذا الرجل الذي يبدو بالفعل كجثة ميتة مع إيقاف التنفيذ!

-أنت اسمك إيه؟!

سأله مراد توفيق في تودد محيطا كتفه بزراعه.

-سعيد يا باشا.

-تعرف يا سعيد أن عمي هو آخر واحد اندفن هنا.. العيلة كلها كانت عارفة إنه شاذ وبيعمل زي قوم لوط..

-استغفر الله العظيم، اذكروا محاسن موتاكم يا باشا..

قالها سعيد عبد الجليل في ضيق وأزاح بتأدب زراع مراد توفيق بعدما خالطه شعور بعدم الراحة تجاهه.

-المشكلة يا سعيد إنه من ساعة ما عرفت بمرضي وإن نهايتي قربت كل يوم بيجيلي في المنام وأشوفه بيناديلي يعمل معايا عمايله الوسخة ونتحرق احنا الاتنين وسط القبر اللي بيتحول لحتة من جهنم!

-ربنا يلطف بيه يا باشا.

قالها سعيد عبد الجليل لاعنا مراد توفيق وعمه في سره.

-امسك يا سعيد.

تناول سعيد عبد الجليل الكيس البلاستيكي الأسود ناظرا لما بداخله فوجد ربطة من النقود من فئة المائتي جنيه وهاتفا رخيص الثمن بشاحنه!

-إيه دول يا باشا؟!

قالها سعيد عبد الجليل وقد قطَّب جبينه وشعر بأن هناك شيئا ما مريب في هذا الرجل غريب الأطوار.

-بص يا سعيد.. دول ١٠ تلاف جنيه.. هتاخد أربعين زيهم لما أموت.

-بتوع إيه يا باشا؟!

-مقابل مكالمة.

-مكالمة إيه؟!.. ما توضح يا باشا لامؤخذة كلامك.

-لما اندفن هنا.. بالليل هتتصل بالرقم الوحيد اللي متسجل في التليفون اللي في الكيس مع الفلوس.. هيرد عليك الشيخ علي.. راجل صالح بتاع ربنا.. هياخد جثتي يدفنها في مكان تاني.

-أنت بتخرف يا باشا لا مؤخذة يعني ولا إيه؟!

تركه سعيد عبد الجليل واضعا النقود فوق القبر وانصرف، لابد أن كريم الشرقاوي تم القبض عليه وقد انكشف أمر الجثة التي أخذها بالليلة الماضية ووشى به.

-دي وصيتي والوصية واجبة، أنا مش بطلب حاجة حرام.

توقف سعيد عبد الجليل والتفت إليه، تحدث بلهجة غاضبة بعروق نافرة ووجه محتقن ولم يعد يعبأ إن كان هذا الرجل مجنونا أو فردا من الشرطة.

-يا بيه ما توصّي من الأول تندفن في المكان الأصلي اللي على شوقك.

-ما ينفعش يا سعيد.. عمي ده يبقى حمايا في نفس الوقت.. ما ينفعش أقول لمراتي أبوكي شاذ وبيتعذب ليل نهار وهي فاكراه شيخ!

قالها مراد توفيق بنفاذ صبر ثم تقدم من سعيد عبد الجليل وقد أغرورقت عيناه بدموع صدقه، هدئت نبرته قائلا:

-الشيخ اللي هيستلم منك جثتي هيدفني في مدافن عيلته بمعرفته.. نسل طاهر

من الأشراف بينتهي بسيدك النبي، مش هلقى أطهر من المكان ده اندفن فيه وفي نفس الوقت مراتي الأصيلة المتربية اللي عمرها ما قصرت معايا مش هتتلوث صورة أبوها في عينيها، عشر تلاف دلوقتي في أيدك أو خمسين ألف مقابل المكالمة.. أنت اللي هتختار ساعتها.. سلام.

وضع مراد توفيق النقود والهاتف في يد سعيد عبد الجليل عنوة وتركه دون أن ينتظر منه ردا وقد فاضت الدموع من عينيه، يخشى سعيد عبد الجليل أن يكون هذا ليس سوى فخ يُنصَب له شراكه!

* * *

فعلها كريم الشرقاوي عدة مرات محاولا أن يطفيء شهوته الشابة الفتية العتية التي ترفض أن تنطفيء.. ظل يواطئها حتى خارت قواه وارتعشت زراعه اليسرى على أثر أعصاب انهكت فالتهبت!

قام عنها ولم ينفض عن جسده خطيئته.. لم يعد يشغل باله بخطاياه.. اعتبر الأمر وزرا لن يختلف كثيرا عن وزر استمناءه الذي يواظب عليه منذ البلوغ!.. أقنع نفسه بمساعدة شلبي الأولعبان أن الأمر لا يمكن توصيفه بالزنا.. الزنا بين الأحياء فقط.. لم يسمع يوما عن حدٍ في الإسلام لمواقعة الموتى، والأصل في إسلامه الإباحة المطلقة ما لم يحرم الأمر بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة.. لقد سمع وجهات نظر مماثلة من شاب تبدو عليه إمارات البلاهة يرتدي زيا أزهريا ويحدث الناس ويبشرهم بدين جديد غير الإسلام الذي تربوا عليه.. شلبي الأولعبان أقنعه أن هذا المعتوه من الفقهاء والعلماء، بل ربما يكون من

العشرة المبشرين بالجنة.. أخبره بأن في اختلاف العلماء رحمة!

هل يعقل أن يكون في زمننا هذا عالم دين يفترض فيه الوقار يدعوه الناس بالشيخ زيزو أو شيء من هذا القبيل ونصدق الهراء الذي يتفوه به؟!

عندما انبلج صباحه لم ينم، خرج بسيارته بعين تفتقد لتركيزها نحو القاهرة، دب النشاط بأوصاله قليلا بعدما شرب عبوتين من مشروب الطاقة فاحش الغني بالكافيين المفضل لديه، ابتاع الفورمالدهيد والجلسرين وعاد إلى داره بالكاد يرى كل شيء أمامه وقد أصبح اثنين على الأقل!

* * *

استيقظ كريم الشرقاوي بعد منتصف الليل.. تجنب الدخول إلى جثة محبوبته.. بدأ يشعر بخطيئته وببعض تأنيب الضمير.. تناول طعاما طلبه بالهاتف وأُوصِلَ إلى منزله، شرب عبوة من مشروب الطاقة فاحش الغنى بالكافيين المفضل لديه ثم جلس يفكر في حل يصحح به خطيئاته.. أنهكه التفكير فدخل الحمام وانقض على لويزا الرفاعي غير عابيء بالشياطين والجن الساكنين بالحمام.. ماذا قد يطلبونه منه في الظروف الطبيعية أكثر مما يفعله بنفسه طواعية!

مع نسمات الصباح الأولى أصبح قربة جوفاء.. بالون أفرغ من هواءه وارتخى.. استراح حتى استجمع قواه وهبط إلى جراج منزلهم وشرع في حفر لحد عميق يودع فيه جسد محبوبته إن طرأ عليه طاريء بزيارة من أهل قرروا فجأة أن يتذكرونه، أو ديدان قررت أن تنبت من العدم في جسد محبوبته متغلبة على سحر الفورمالين.. سيدفنها بيديه في هذا اللحد ويهيل عليها التراب ورماد

عشقه الذي احرقته شهواته ثم يحرق الكثير من البخور كل يوم محاولا إخفاء الرائحة التي ستنبعث بعد أيام لن تطول مثلما تعلم من كل الأعمال الفنية التي تناولت الزميلتين ريا وسكينة!

ثلاث ساعات كانت كافية لإنهاء تلك المهمة الضرورية والشاقة.. صعد إلى لويزا الرفاعي ليحملها عارية إلى فراش أبويه كي يخلي المغطس.. دخل الحمام ليستحم ويغسل عنه الأتربة التي علقت بجسده.. مع هذه الأتربة التي تحولت إلى طين لن تجدي معه غير المياه الساخنة.. خرج من بين أبخره المياه الساخنة ليفرغ الفورمالدهيد بالمغطس.. بدأ يخففه بالماء مستخدما قارورة مياه معدنية فارغة من سعة الستة لترات لقياس حجم الماء اللازم لتخفيف الفورمالدهيد حتى تركيز ٣٧٪.. ساعتين كاملتين مرتا حتى أذاب الفورمالدهيد وامتلأ المغطس بمحلول الفورمالين.. أغلق باب الحمام وعاد إلى لويزا الرفاعي يمارس خطاياه الآثمة حتى غلبه الإنهاك وسقط إلى جوارها لا يقو على النهوض!

* * *

لا يدري مختار البهنساوي ماذا حدث بالضبط ولا من هم هؤلاء ولم جاءوا!

كان يواقع فتاة ليل في محله على الأريكة الخشبية الموضوعة خصيصا لهذا الغرض، كان يواقعها بوجه ملئته الخدوش التي لم تلتئم تماما من أظافر أخته بالأمس، يحاول أن يأخذ بثأره من هذه الفتاة العاهرة التي لا بد أن لها أخا وأهلا تستغفلهم هي الأخرى.

كان في قمة نشوته عندما سمع صخبا بالخارج، ارتدى من ملابسه ما يواري به

عورته وما كاد يخرج ليرى ما يحدث حتى فوجيء بالباب المصنوع من الصاج الخاص بالمحل يُرفَع بعنف، فاجئه عشرات من الأشخاص لا يرى ملامحهم في الظلام تلمع نصال أسلحتهم البيضاء مع قليل الضوء الآتي من الخارج.. سحبوه إلى الخارج وأعملوا فيه نصالهم وركلاتهم محاولين إحالته إلى عجين من لحم ودم وعظام.. هول المفاجأة وكثرة العدد لم تعطه الفرصة للمقاومة.. ظل يتلقى الطعنات والركلات حتى أظلمت الدنيا تماما أمام عينيه!

* * *

obeikan.com

(٢٠)

ورقة بيضاء وقلم حبر أزرق يُعرَف وسط العامة بالـ (فرنساوي) رخيص الثمن مع بعض الدموع التي لا تحتاج لمجهود لانسكابها من أنثى هي كل ما احتاجته سهير البهنساوي لكي تقنع أسرة شعبانها الدسوقي بزواج الأخير منها زواجا عرفيا وأن أخيها الحيوان السائر على قدميه الخلفيتين قد قتل أخوه وصديقه انتقاما!

أسرة شعبان الدسوقي ضحلة التعليم لم تكن في حاجة للتأكد من ورقة الزواج العرفي ما داموا لن يستطيعوا قراءة ما بها والذي خطته سهير البهنساوي بنفسها.. الوقت لا يسمح بذلك.. التدقيق ومقارنة صحة التوقيع رفاهية لا يملكها من تملكه الغضب وتأججت بصدره نيران الثأر.

عار عليهم وبخاصة على الأخ الأصغر أن يعرف قاتل أخيه ويتأخر عن الأخذ بثأره أكثر من ساعتين.. شعبان الدسوقي لم ينقصه يوما أبناء العمومة وأبناء الأخوال القادرين على التجمع في غضون ساعة مدججين بالسلاح الأبيض للأخذ بثأره.

وشت لهم سهير البهنساوي عن مكان أخيها الذي لا بد يعربد في المحل الخاص به ويدنث طهارته التي دُنّئت مرارا.. تحركت قطعان الثيران بهمجيتها المعهودة تبحث عن فريستها.

بدئوا ما بدئوه دون معرفة لخط نهاية يتوقفون عنده، هل ينتهي الدرس بتأديبه أم عسى الأمر لا تكتب له نهاية إلا بموته.. الغالبية اختارت الخيار الثاني وبخاصة

مع الحماسة التي أججها الأدرينالين مع رؤية ينابيع الدماء المتفجرة من جسده.

أغمض مختار البهنساوي عينيه ولا يدري هل تكون نهايته بعد ساعات أم دقائق أم هي حلت بالفعل ولكن أعمته ذنوبه ومعاصيه عن معالم رحلة صعود روحه إلى بارئها!

أغمض عينيه دون أن يدري أن روحه لم يقدر لها أن تخرج من جسده إذ شاءت الأقدار أن تقترب سيارة شرطة لتبصر ذلك التجمهر من بعيد، تجمهر ما لبث أن تفرق في ثانية حين سمع صوت سارينة الشرطة!

لم يكتب لمختار البهنساوي عمرا جديدا.. لكن الحقيقة أنه لم يكن قد استكمل عمره المقدّر له بعد!

* * *

عندما استيقظ كريم الشرقاوي من غفوته القصيرة غارقا في بحار عرقه الذي تصبب منه بفعل تكييف الغرفة الذي أخفى برودة الشتاء، اضجع على الفراش مفكرا في هذه الكوابيس التي طاردته في منامه.. كوابيس كادت أن تمزق قلبه ما بين انقباضات وانبساطات لعضلته من فرط الذعر، يعشق هذا النوع من الكوابيس الذي لا يختلف عن الواقع في شيء.. هو حاضر متفاعل مع مشاهد فيلم الرعب هذا ولا يكتفي بمقعد المتفرج.. جعل يعبث بيسراه في جسد لويزا الرفاعي ويمناه تشعل سيجارته لائما إياها في عقله على هذا الانتقام البشع مختلف الوسائل الذي عاقبته فيه بكوابيسه!

-يا كيمو.. دي أضغاث أحلام.. هي مبسوطة أنك بتحبها وهتخليها جنبك على

طول.

فزع كريم الشرقاوي من صوت شلبي الأولعبان وسقطت سيجارته من يده وهو يحاول مداراة عورته بالملائة خجلا، ثم سبه سبابا فاحشا ونهض ملتفا بالملائة قاطعا الردهة الواسعة متجها إلى الحمام حاملا علبة سجائره وقداحته، فاستطرد شلبي الأولعبان ضاحكا دون أن يتبعه:

-بتتكسف مني يا كيمو؟!.. اللي بيتكسف من شلبي ما يجيبش من لوزة عيال.

تجاهله كريم الشرقاوي واستمر في طريقه نحو الحمام مستجيبا لنداء مثانته المُلِح!

* * *

فتح كريم الشرقاوي باب الحمام لتلطمه أبخرة الفورمالين المميزة المتصاعدة والتي عبئت الحمام في الساعات القليلة الماضية متداخلة مع أبخرة المياه الساخنة لتلتهب مقلتيه من تأثيرها، تأكد من أن شلبي الأولعبان المتحرش لا يراه وترك الملائة تسقط على الأرض وضغط على قداحته مرتين مستجلبا لهيبها لإشعال سيجارة ترافقه في تبوله وتخفف من رائحة الفورمالين.. ويا ليته ما فعل!

كل ما تلى ذلك لم يكن عقله بالكفاءة اللازمة لفهمه حينها، كان الأمر في البداية أشبه بفرقعة تردد صداها حتى كاد أن يثقب أذنيه مصاحبة لصدمة قذفته إلى الوراء بضعة أمتار حتى التصق بالجدار خلفه، لو أن شاحنة تسير على طريق سريع بسرعة ١٠٠٠ كم/الساعة فصدمته، ما صدمته بهذه القوة!

الصدمة التي تلقتها رأسه أخرت إداراكه لبداية اشتعال النيران في حمامه حتى رأي ألسنة اللهب تتسارع كالثيران الأسبانية محاولة التسابق للخروج من باب الحمام لتنتشر بسرعة في الجدران والسجاجيد.. أبخرة الفورمالين قابلة للاشتعال وهو لم يعرف تلك المعلومة من سوء حظه، الشرارة التي انبعثت من قداحته أعطت إشارة البدء لهذه الكارثة التي يراها تتضخم أمامه.

شلته الصدمة لثوان كانت كافية ليدرك أن الشقة تحترق، لن يفلح مع حريق كهذا مطفأة الحريق الموجودة بالسيارة وبخاصة أنها منتهية الصلاحية، ألتقط بنطلون من بين ملابسه المبعثرة بالردهة وجرى إلى الشارع يصرخ ويستنجد بالجيران.

* * *

كريم الشرقاوي يبكي وينتحب كالأطفال، الجيران يمنعونه بالقوة من الصعود إلى البيت ويظنون بكاءه خوفا من بطش أهله إن عرفوا بأمر الحريق والدمار الذي خلفه، الأهل الذين يتركون ابنهم وحيدا ويبقوا بغربتهم يكنزون الذهب والفضة لن يعنيهم نجاة ابنهم في شيء بقدر مصيبتهم وفجيعتهم في ضياع شقاء عمرهما الذي صرفاه على هذا البيت!

كريم الشرقاوي لم يكن يعنيه أباه وأمه في شيء، فليذهبا إلى قاع الجحيم غير مأسوف عليهما.. كان يدرك أن رجال الإطفاء الذين حضروا بعد ربع الساعة لن يلبثوا أن يكتشفوا جثة لويزا الرفاعي الراقدة فوق فراش أبويه في الغرفة التي يبدو أن النار لم تمسها بضرر كبير للأسف، كان يأمل أن يخفيها أو يحرقها مع بقية الشقة، يسمع صوت سارينة الشرطة أو سيارة الإسعاف قادمة من بعيد،

ولكن الشرطة والإسعاف وصلا في وقت واحد!

جف حلقه وهربت الدماء من عروقه ونضبت عيناه فجفت دموعه، يرتجف بعنف وهو يرى الجيران يلتفون حول فرد من قوة الشرطة لا يحتاج لذكاء ليعرف أنه الضابط المسئول ها هنا، لابد أنهم يشرحون له ما حدث ويخبرونه عن طالب الطب الشاب غريب الأطوار الذي يسكن بمفرده في العمارة بأكملها ويخبرونه عن أهله المغتربين بالديار الكويتية!

-أنت اللي ساكن في العمارة دي؟

سأله الضابط في صرامة واضعا يده على كتفه، هز كريم الشرقاوي رأسه أن نعم بجسد يرتعش لا روح فيه.

-كان فيه حد غيرك في البيت؟

لم يتلق ردا وقد عجز كريم الشرقاوي عن إعطاءه أي رد.

-خدوه ع البوكس.

سحبه أمين شرطة إلى السيارة وكريم الشرقاوي يفتقد أعصابا تمكنه من المقاومة، ساعتين قضاهما في سيارة الشرطة حتى سيطرت قوات الإطفاء على الحريق، لمح كريم الشرقاوي مع تحرك السيارة المسعفين وهم يحملون محفة لا يظهر ما عليها وسط زحام المتجمهرين وإن كان هو الوحيد الذي يعلم ماذا يحملون.

* * *

obeikan.com

في الصباح عرف سعيد عبد الجليل ما حدث مع مختار البهنساوي في الليلة السابقة، يقولون أنه في انتظار الموت في المستشفى الجامعي، تحدث الجميع عن محاولة قتله والتمثيل به على يد أهل وعشيرة شعبان الدسوقي المتمرسون في مهنة البلطجة بعدما علموا بمقتل فقيدهم الحقير على يد مختار البهنساوي الأكثر حقارة!

ظل سعيد عبد الجليل خائفا يترقب منتظرا مختار البهنساوي أن يتحدث، هذا الوغد اللعين لن يبقى فمه مغلقا لفترة طويلة، يعرف سعيد عبد الجليل هذه الفئران المذعورة جيدا، أول كلماته التي سينطقها "سعيد عبد الجليل الشاب الصعيدي مجهول الأصل هو الجاني.. وليس شعبان الدسوقي آخر ضحاياه، لقد قتل الشيخ حسن عبد التواب الإخواني وقتل ألفت العاهرة وغيرهم الكثيرين".. سترفع الشرطة شعار المواطنة الكاملة وتسعى لأخذ الثأر منه للقصاص لبلطجي وعاهرات وأيضا لإخواني تناصبه الدولة وتناصب جماعته العداء!

سيتحدث ذو الشعر الأشعث وذو الحظاظة وذو الحمالات المميزة أن هؤلاء الملاعين كان من حقهم محاكمة عادلة أمام قاضيهم الطبيعي!

الأولى بهذا المجتمع أن يمنحه أوسمة ونياشين الشرف وينصبوا تمثالا باسمه أمام مجلس المدينة أو أمام قصر الثقافة إلى جوار النافورة الصدئة تخليدا لصنيع هذا الرجل الذي خلص المجتمع من شروره دون السقوط في دوامة إجراءات التقاضي التي تنتهي في أغلب الأوقات بإدانة الضحية وتبرأة الجاني وإلزام الضحية بأتعاب المحاماة!

هل يهرب؟!

لن يهرب سعيد عبد الجليل ثانية، هكذا قرر وعقد العزم، لن يفعل مثل ابيه، كان على ابيه أن يقف وسط القرية ليعلن للجميع أنه فعل الصواب وعلي سعيد عبد الجليل أن يفعل المثل، سيقف وسط المحكمة ويطلب الترافع عن نفسه ويلقي خطبة عصماء سيصفق لها الحضور وستسري قشعريرة في جسد القاضي من فرط تأثره ويمنحه براءته!

ما يخشاه في الحقيقة ليس هو الإعدام، هو يخشى فقط الحبس، أن يقيد هذا الحصان الجامح الذي أعتاد عيشة الحرية ليوضع في زنزانة لا ماء فيها ولا هواء ليقتلوا حريته دون اقتراف جريمة حقيقية في ظنه!

ولم يكن ما جرى مع مختار البهنساوي هو النبأ العجيب الوحيد في هذا الصباح، ولكن كانت هناك مفاجأة أخرى في انتظاره حملها الرجلان الذين أتيا ليخبراه بضرورة تجهيز قبر لقريبهما الذي مات في فجر هذا اليوم وسيدفن بعد صلاة الظهر.

عندما تحركا نحو للقبر المنشود فوجيء سعيد عبد الجليل بمزهرية من الفخار بها نبتة من الصبار جاء بها رجل لهذا القبر منذ يومين!

* * *

(٢١)

بعد أذان العصر جاءت المكالمة المنتظرة لعلي عسكر، شخص أخبره بوفاة مراد توفيق ويخبره بأن هناك وصية طلب المرحوم تنفيذها ولابد من الإسراع بتنفيذ هذه الوصية الليلة.

-هجيلك على نص الليل.

وقف علي عسكر مضطربا أمام الجثة المسجية أمامه على الأرض بمنزله، أنفاس متلاحقه تخرج من صدره لتسمع دون عناء شهيقه وزفيره، ضربات قلبه متسارعة الوتيرة متلاحقة تتوسل إلى عقله أن يكف عن التفكير، يفكر في التراجع الآن قبل فوات الآوان، ليلق بالجثة في أي ترعة بعيدة وينتهي الأمر، يخشى إن تراجع أن يقتله حينها الفضول، هو قاب قوسين أو أدني من الوصول إلى نبع المعرفة.. لأجل هذه اللحظة صام كل يوم من بعد آخر لقاءه له مع مراد توفيق تواقا لتلبية نداء نداهة المعرفة.

"أعوذ بالله وباسمه الأعظم من الشيطان الرجيم"

وقف يرددها سبعين مرة، للمرة الأولى يجد صعوبة بالغة في ابتلاع ريقه، حلقه صحراء يابسة، لم تبتعد الأصوات ولم تخرس ولازالت تتردد في عقله تطالبه بالمضي قدما فيما انتواه.

لم تكن تلك الأصوات لشياطين تتسلى بالبصق في عقله موسوسة إياه ليستعيذ بالله منها، كان الأولى به أن يستعيذ بالله من نفسه، نفسه التي يراها الآن أمارة بالسوء وليس بيده عصيانها، توضأ من الإناء الذي أعد ما به بنفسه وبمساعدتهم، ثم جلس إلى رأس الجثة الموضوعة تجاه القبلة قائلا:

"بسم الله الرحمن الرحيم، باسم الله القدوس الطاهر العلي،..... رب الدهور الداهرة والأزمان مدبر الأوقات والزمان.... دعوتكم يا ذوي الأروح الروحانية المقسمين..... ألوحا ألوحا عجلوا الساعة بحق ما أتلوه عليكم..... .وبحق ما تلوته عليكم"

يتمتم فيسمع صوت الرياح العاصفة بالخارج، ليست رياح الشتاء العتية الطبيعية، الكلب بالطابق السفلي لا يكف عن نباحه يعلن ضيقه من وجودهم ويتوسل لعلي عسكر صديقه أن يتوقف فلا يلقي الأخير له بالا.. انقطع التيار الكهربائي. . استمر علي عسكر في تمتمته.. خيل إليه أن الغرفة يتبدد ظلامها تلقائيا.. استمر علي عسكر وقد فقد الإحساس بالزمان والمكان وهو يحدق في وجه جثة مراد توفيق ماسكا قلمه الحبر الذي مداده دمٌ يخط به على الرقعة الجلدية التي أمامه دون أن ينظر لها.. الكلب لا يكف عن نباحه بالطابق السفلي يرجوه أن يتراجع وقد أبصر مصيره المنتظر.. شيء ما مختلف يحدث في تلك اللحظة.. شيء يشيب له الولدان وتضع لهوله كل ذات حمل حملها.. اتسعت عينا علي عسكر وتجمدت الدماء بعروقه من هول ما يرى!

* * *

يقولون بأن الضرب في الميت حرام، ولكن من قال أن سهير البهنساوي تؤمن بهذه المقولة!

ورقة من فئة المائتي جنيه كانت كافية لاقناع الممرضة البدينة بإدخال سهير البهنساوي لدقائق معدودات لكي تلقي نظرة على أخيها الراقد على فراش الموت المستغرق في غيبوبته بالعناية المركزة، أدخلتها الممرضة البدينة وأولتها ظهرها لتطمئن على مريض آخر في الفراش المجاور والذي لا يفصله عن مختار البهنساوي وسائر المرضى غير ستارة من القماش.

أخرجت سهير البهنساوي سكينا من عباءتها لتلمحها الممرضة البدينة في اللحظات الأخيرة فتندفع نحوها بأقصى سرعة سمحت بها أرطال الدهون المتكدسة ببدنها لتسقط فوق سهير البهنساوي وتشل حركتها مانعة عنها الهواء النقي، كادت سهير البهنساوي تلفظ أنفاسها الأخيرة اختناقا من رائحة العرق التي تفوح من إبطي الممرضة لتسبق أخاها إلى الحياة الآخرة حتى جائتها النجدة من أفراد التمريض بالوردية الليلية الذين وإن أمسكوها وشلوا حركتها إلا أنهم لهم كل الشكر بإنقاذها من الموت اختناقا.

جعلت سهير البهنساوي تبكي وتنتحب صارخة فيهم أن يتركوها لتقتله، رجتهم أن يتركوها لتثلج صدرها.. لابد أن ترسله للموت قتلا على يديها لتطفيء بدماءه نارا تستعر في قلبها، جروها جرا إلى مكتب الأمن بالمستشفى الجامعي الذي أسرع في إرسالها إلى قسم الشرطة كي يكملوا نومهم.

-كنتي عايزة تقتليه ليه؟

سألها الضابط في صرامة لم تُحدث أثرا في نفس سهير البهنساوي التي بدت وكأنها قد فقدت عقلها بالفعل، لا تعلم ما الذي دفعها إلى الإجهاز على أخيها والتعجيل بنهايته، لم تطل غيبوبته لتستعجل موته، لكنها لا تستطيع على رؤيته يتنفس صبرا حتى وإن كان بجسد ميت، لابد من أخذ ثأر شعبانها الدسوقي بيديها، لم تُبلِغ الشرطة بالمعتدين على أخيها ليلتها، أرادت سهير البهنساوي أن تشي بهم للشرطة فقط لفشلهم في قتل أخيها ولكنها تراجعت عن ذلك!

-أخويا اللي قتل شعبان الدسوقي اللي بيقولوله يا توكتوك.. كان متجوزني عرفي ولما أخويا عرف قتله ولازم آخد بتار جوزي.

هكذا اعترفت لهم، وهكذا تحول مختار البهنساوي من مجني عليه إلى جاني وبخاصة بعد توقيع الكشف الطبي على سهير البهنساوي واكتشاف عدم عذريتها بالفعل كما أكدت التحريات اختفاء شعبان الدسوقي بالفعل منذ شهور طالت.. يا لك من بائس يا مختار يا بهنساوي، إن هربت من موت وعدت من غيبوبتك أرسلوك إلى الموت ثانية عبر حبل المشنقة!

* * *

استراح في مقعده الوثير ينفث دخان سيجارته محاولا الغوص داخل عقل هذا الفأر المذعور الواقف أمامه، عينان غائرتان تائهتان بنظرات تطلع نحو اللا شيء ووجه شاحب هربت منه دمائه فبدى كوجوه الموتى وإن كانت وجوههم أكثر نضارة من وجهه.

-مش ناوي تتكلم ولا ناوي تعمل أخرس ولا مجنون؟

سأله في صرامة الرائد صلاح الديباوي، فنظر كريم الشرقاوي تجاه شلبي الأولعبان الغارق في ضحكاته الساخرة فوق المكتب ثم نظر إلى الأرض ولم يعقب.

-طب إيه؟!.. إخوان؟!.. بيت المقدس ولا داعش ولا ملة أمك إيه؟!

انتشلت كلمات الضابط الأخيرة كريم الشرقاوي من دوامات ذعره لتلقيه في دوامات أكثر عمقا ورعبا!.. كلمات الضابط تشي بمستقبل لا يقل في بشاعة مصيره عن مستقبله الذي ينتظره إن اعترف بما يسره في نفسه.

-أنا.. أنا دكتور حضرتك..

-وإيه المشكلة يا أهطل ما إيمن زفت الظواهري دكتور.. ولا أقولك، اجيلك دوغري.. إيه السائل اللي انفجر ده..

-ده.. ده..

رمقه الضابط بنظرة قاسية يستحسه على الحديث.

-ده فورمالين كنت جايبه أحفظ بيه عينات الإمتحانات أقسم بالله.

-الجيران قالوا أنك المفروض عايش لوحدك.. أمال مين اللي ماتت في الحريق وكانت عريانة دي بقى.. جهاد نكاح؟!

ابتلع كريم الشرقاوي ريقه بصعوبة، على عقله أن يعمل بسرعة أفضل من هذه.

-دي واحدة كنت عرفتها من على النت ونمت معاها..

-اسمها إيه؟

-والله العظيم ما أعرف.

-ع العموم الجيران اتصلوا بالمواكيس أمك وأبوك.. هتشرفنا هنا لحد لما يبانلك صاحب..

بكى كريم الشرقاوي ولم يفلح بكاءه، توسل إلى الضابط فلم يعره اهتماما، الأسوأ لم يأت بعد.. هذا ما بات مؤكدا!

* * *

كان صباحا يتصف بالهدوء في المستشفى الجامعي وقد اقتربت عقارب الساعة من الثانية ظهرا، آلاف المرضى يترددون على المستشفى المزدحم، وبالخارج يروح الطلاب ويجيئون كأي يوم عادي آخر، ولكن كان هذا هدوء يسبق العاصفة.

عاصفة عارمة من الرجال تخرج من مبنى العناية المركزة نحو بوابات الخروج، ما لا يقل عن الثلاثين من الرجال أولي بأس شديد، بدأ صوت صريخ لنسوة يتعالى فيُسمع بالكاد وسط ضوضاء النهار، كان الرجال الفارين يعرفون جيدا طريقهم دخولا وخروجا، كل رجل منهم يفر من اتجاه مختلف، حتى أفراد الشرطة ذوي التسليح البدائي لم يحاول أحد فيهم محاولة يتيمة للإمساك أو ملاحقة الفارين بل اكتفوا بالصعود إلى مصدر الصراخ الأول القادم من العناية المركزة..

كان المشهد مروعا حتى على طاقم التمريض والأطباء الذين رأوا كل أنواع الحوادث ببشاعتها التي صارت مألوفة!

مختار البهنساوي ليس في جسده سنتيمترا واحدا يخلوا من طعنة أو جرح طولي إن تناسينا رقبته المذبوحة، لم يحاول أحدٌ إسعافه، من السخف المحاولة ونبضات قلبه لا يتجاوز عددها الصفر، خط مستقيم يظهر على الشاشة لا اضطراب فيه، من الحماقة محاولة إسعاف جثة مذبوحة، مات مختار البهنساوي بعدما بخل عليه قاتليه بانتظار موتة طبيعية أو عودة من غيبوبة عاد إليها سريعا لتكن آخر محطات حياته قبل الموت!

* * *

ارتمى كريم الشرقاوي باكيا في حضن أمه الغارقة في بكائها ولم يكن ليفعل، في السابق كان يكره أبويه أما بعد هذه الليلة التي قضاها في الحبس مع أباطرة الإجرام وزعماء البلطجة أصبح يكرههما بشدة، أقد آن لأمه أن تكتشف في هذه اللحظة أن ابنها يضيع منها!.. هذا الأب الغاضب العبوس أقد جاء ليطمئن على ابنه أم جاء ليعنفه فقط على العمارة المتفحمة آتيا بأحد المحامين ليتأكد من حبسه!

مسحت أمه دموعه متسائلة وسط بكائها:

-إيه يا كريم اللي الظابط بيقوله ده، تفجير وبنت عريانة ماتت!!

-حريم يا ابن الكلب؟!

قالها الأب وهوى بصفعة لا ينقصها العنف على وجه ابنه المتكور في حضن أمه فتجمدت الدموع في عينيه وارتسم الشيطان على وجهه:

-أنت إيه اللي جابك؟!.. أنت جاي تطمن ع البيت مش عليا.. مش كده؟!

-بس يا كريم..

-سيبيه يبرطم الوسخ..

-اتفضل استريح بره يا أستاذ محمد بس..

تدخل المحامي مهدئا الأب وساحبا إياه بلطف إلى الخارج وعاد ثانية لكريم الشرقاوي..

-يا دكتور كريم لو الحريق حريق عادي مكنش يبقى فيه مشكلة، المشكلة في البنت اللي كانت معاك في الشقة، مش هينفع أخرجك بكفالة من غير ما تقول مين دي بالظبط.

لم يكن كريم الشرقاوي في حاجة للتفكير في نصيحة المحامي، لن يمكنه البوح عن هوية الجثة التي وجدوها لديه، ولتفعل الشرطة ما تريد ولتُدفَن الحقيقة معه!

* * *

رائحة التعفن ونباح كلب انقطع دون مقدمات منذ يومين هما ما دفعا أهالي القرية لاقتحام بيت علي عسكر، هو لم يظهر منذ يومين فظنوه قد خرج من قريتهم ولكن رائحة التعفن أقلقتهم.

عندما اقتحم بعض من أهالي القرية البيت عنوة بعدما شحنوا أنفسهم بالكثير من الشجاعة، صدمهم الكلب الميت على أعتاب باب غرفة مغلقة، ذلك الكلب الذي ترك في الباب علامات من مخالبه تدل على محاولاته قبل موته لاقتحام الغرفة.. أجمعوا أمرهم واقتحموا تلك الغرفة المغلقة، لم يندهشوا لرؤية جثة

obeikan.com

علي عسكر ممددة أمامهم على الأرض وقد شاب شعرها بالكامل وأعتى علامات الرعب حفرت في وجهه الذي تكدس بالتجاعيد. ولكن ما صدمهم هو تلك الجثة الأخرى التي كانت تتمدد أمامه وقد تفحمت بالكامل!

لم يُبلِغ الحاج صالح مكاوي عمدة القرية الشرطة، الشرطة مهما بلغت قوتها واقتدارها فلن تقدر على الشياطين!

اتفق أهالي القرية أن يدفنوا الجثتين في الخفاء وكأن شيئا لم يكن، بحث العمدة عن صندوق خشبي يعرفه خير المعرفة، وجده وتكفل بحفظ الصندوق الخشبي بداره، ذلك الصندوق الخشبي الذي كان يضم الكتب التي كانت تخص الشيخ متولي.

* * *

قابضا على ملابسه أسفل قفاه يدفعه أمامه أمين الشرطة في إهانة واضحة ومتعمدة ليقوده لمكتب الرائد صلاح الديباوي.. ما إن دخل كريم الشرقاوي مكتب الضابط حتى ألقى الأخير بغضب بالغ الملف الذي كان يطالع محتواه على المكتب أمامه ثم نهض والغضب فارس ماهر يسيطر بقسوة على ملامحه:

-مين البت اللي كانت معاك دي؟!

ارتعدت فرائص كريم الشرقاوي من لهجة الضابط الجديدة الغاضبة..

-ما أنا قولت لحضرتك دي..

لم يمهله الضابط الفرصة لاستكمال أكاذيبه وانقض عليه يكيل له الصفعات بكلتا يديه على صدغيه دون توقف وأمين الشرطة يقيد يديه للخلف ليتلقى

الصفعات دون مقاومة وكريم الشرقاوي يتوسل إليه كي يتوقف فلا يستجيب الضابط لتوسلاته..

-بتنام مع جثة يا ابن الـ(مجموعة من السباب لأبوي كريم الشرقاوي بكل الأوصاف القبيحة المعروفة).. انطق قول جبتها منين..

-يا باشا والله..

-والله إيه؟.. هو اللي زيك يا ابن الـ(وصف لأم كريم الشرقاوي بالعاهرة) يعرفوا ربنا.. عبد الدايم.. أرميهولي في الحجز بلبوص..

-خلاص يا باشا.. خلاص والله هتكلم..

-مش هسمع كلمة منك غير لما تدوق اللي بتعمله في بنات الناس يا ابن الـ(سباب لأم كريم الشرقاوي يصفها بالفجور).

سحبه الأمين عبد الدايم وزميله وخلعوا عنه ملابسه وأدخلوه الحبس لا يستره شيء إلا قطعة ملابس داخلية ضيقة بالكاد تداري عورته، أما المساجين فكانوا يعرفون حينها ما عليهم فعله، تحرشات فقط بلا اعتداء يكتشفه الطب الشرعي، ستة ساعات قضاها في الجحيم معانيا من تحرشات المساجين الخشنة والفظة، حتى وصل به الحال للتعلق بنافذة الباب مستغيثا بالضابط أن ينقذه حتى أحضروه ثانية لمكتب الضابط.

-البنت دي ما اعرفهاش، دي جثة كنت شاريها أدرس عليها.

-من مين وبكام؟

-من تربي عامل صفحة ع الفيس بوك.. خد مني ١٠ تلاف جنيه.

-اسمه إيه وعرفته منين؟

-اسمه محمد.. مش فاكر والله محمد إيه.. وعرفته من الفيس بوك.. كان عامل صفحة بيبيع عليها طلبات اللي بيدرسوا في طب.

-اسمها إيه الصفحة؟

-جثث لطلبة طب.

رمقه الضابط بتشكك وأخرج هاتفه المحمول وبحث عن تلك الصفحة فلم يجدها.

-شكلك انبسطت من المرة الأولانية وعايز تنزل الحجز تاني.

-يا باشا ممكن تكون الصفحة اتقفلت والله.

-جرى إيه يا عبد الدايم؟!.. المساجين اللي تحت صحتهم مش جاية ع الحبس ولا إيه؟.. ابقى نزل معاه الحبس المرادي عصايتين تلاتة، مفيش عندك أكتر من المقشات.

* * *

سارينة سيارة الشرطة تدوي بصوتها الأقرب للعواء الذي يحطم الأعصاب، قوات الشرطة تبحث عن سعيد عبد الجليل في بيته لتجرجره خلفها بإهانة متعمدة دون احترام لحقوق الإنسان التي كفلها دستور بعد ثورتين، بضعة رجال من الشرطة يبحثون بهمة ويعبثون في محتويات بيت ليس فيه الكثير

obeikan.com

من التفاصيل، لم يتلقوا تدريبا كافيا يخبرهم أن من الخطأ الجسيم العبث بمحتويات مسرح الجريمة.

ظل سعيد عبد الجليل مختبئا في واحد من الأحواش البعيدة بالمقابر حتى رحلت قوات الشرطة متأكدا أن الشرطة ستخشى البحث عنه وسط القبور ليلا خوفا على أنفسهم، وإن فعلوا ما وجدوه وسط متاهاتها التي يعرفها وحده جيدا.

مختار البهنساوي فاق من غيبوبته لساعات حكى خلالها كل ما حدث للأطباء والتمريض قبل ساعات من مقتله على يد أهل وعشيرة شعبان الدسوقي.. أخبرهم عن سعيد عبد الجليل وضحاياهما وعن أكله للحوم ضحاياه وكأنه يحاول أن يتطهر من ذنوبه قبل موته باعترافاته تلك، وما لبث أن قُتِل قبل أن توثق الشرطة اعترافاته رسميا، ولكن كان ورائهم طرف خيط متمثل في اسم لشخص يدلهم على الحقائق.. شخص واحد هو المتهم الثاني.. شخص واحد أراد مختار البهنساوي أن يزيد مستقبله ظلاما كي يلحق به ولكن عبر حبل المشنقة.. شخص كُتِبَ عليه الشقاء طوال حياته وأراد قدره أن يسخر منه فسماه أبواه (سعيد) عبد الجليل!

فكر أن يفعل مثلما فعل شمشون بن ملوح الدني وليهدم المعبد على رأس الجميع، هؤلاء الأوغاد شديدي القذارة الذين دنسوا حياته منذ مولده حتى هذه اللحظة، ينظر لهم من أعلى ويبصق عليهم، ثم يدرك أن بصقته ليس بالقدر الكافي الذي يكافئ قذارتهم فيقرر أن يتبول عليهم مثلما فعل مع جميع ضحاياه!

فكَّر سعيد عبد الجليل ألا يهرب، ويسلم نفسه في تلك اللحظات للشرطة طواعية،

سيقف أمام القاضي ويخبره بكل شيء بكل شجاعة قبل أن يحكم عليه بالموت وتموت الحقائق لتدفن معه.

سيخبر القاضي عن أمه التي خانت أباه ولوثت شرفه.

سيخبره عن أبيه الرجل الذي ثأر لشرفه ودفن أمه بحظيرة ماشيتهم الدفنة التي تليق بها.

سيخبره عن زملاءه بالمدرسة الابتدائية الذين كانوا يسخرون من لونه وأصله ومن مهنة أبيه فكانوا سببا في تركه التعليم.

سيخبره عن شعبان الدسوقي الذي أراح المسالمين من أذاه.

سيخبره عن حسن عبد التواب الذي كان يغش قطع الغيار أحيانا ليخدع من اسماهم بعبدة الطاغوت مؤكدا أن ذلك خدمة لدين الحق.

سيخبره عن كل الإخوان المسلمين المتوارين المختفين المتبرئين الآن من إخوانيتهم ويعلمهم هو جيدا ولطالما شاهدهم ببيت حسن عبد التواب أو في ورشته يتبادلون الأسرار.

سيخبره عن أطباء الطب الشرعي الذين أجبروه على التوقيع على سبب وفاة وهمي لأبيه بأنه مات منتحرا.

سيخبره عن مختار البهنساوي وأكله للحوم ضحاياه.

سيخبره عن ألفت العاهرة التي تركت زوجها ينام في بيته وخرجت لتطفيء شوهتها بماء الخيانة.

سيخبره عن كريم الشرقاوي الذي تاجر في العظام وفي جثث الموتى وهو الذي لا يحتاج لمال ولا يشتكي من ضيق اليد.

سيخبره عن كل شيء!

* * *

حملة من مباحث التموين والصحة تهاجم محلا لبيع اللحوم المشوية لتكتشف بداخله كميات من اللحوم البشرية داخل الثلاجة الخاصة بالمحل.

* * *

في داخل محبسه لم يكن كريم الشرقاوي يخاف على نفسه من موت قادم كعقوبة على جريمته، وإنما خاف كريم الشرقاوي من فضيحة أكبر إن عَرِفَت الشرطة أن من أعطاه الجثة هو سعيد عبد الجليل الذي سيرشدهم إلى صاحبة الجثة.

سيلفظه القاصي والداني وينظمون مسيرات للبصق على وجهه إن عرفوا أن الجثة التي كان يضاجعها تخص لويزا الرفاعي صديقته المقربة وحبيبته التي ضنت عليه بحبها.

إن كان قد افتضح أمره فقد يتقبل المجتمع المحيط به شذوذه الجنسي وانحرافه ولكن لن يتقبلوا أن يفعل ذلك مع أقرب المقربين إليه!

رجى الله أن تأخذ سعيد عبد الجليل صاعقة من السماء فلا تُبقي منه شيئا، تدمره فيصبح كذرات الرماد مبعثرا في أنحاء الكون الشاسع، لارتاح بال كريم الشرقاوي إن هبط على رأس سعيد عبد الجليل شهاب ثاقب أو نيزك ضخم يدفنه في أعماق الأرض.

وسوس إليه شيطانه أن يسعى لابتزاز ماجد أبو الخير لينتشله من تلك المصيبة بكل ما له ولعائلته من نفوذ ولكنه تراجع إذ توصل بما بقي لديه من عقل أن ماجد أبو الخير لن ينظر إليه إلا كصرصار يدهسه بحذائه متى شاء وكيف شاء، هؤلاء الكبار لن يقبلوا أن تمس سمعتهم بشيء ولابد من أن تبقى دائما وأبدا ناصعة البياض لا تلوسها الشكوك.

أدرك أن عليه أن يتحلى بقدر من الشجاعة ليواجه مصيره الذي ينتظره ولا يبكي كالأطفال ولا يبول في ثيابه ذعرا، ليدفن السر في قلبه وليتقدم بثبات نحو مقصلة العدالة حتى يلاقي عقابه الذي ترتضيه العدالة له.

ما من شيء يبتغيه من الحياة بعد موت لويزا الرفاعي حبه وحياته، سيرجو القاضي أن يحكم عليه بإعدام ليريحه من حياته تلك ومن شلبي الأولعبان اللعين!

* * *

يؤمن الحاج صالح مكاوي أن البط البلدي قادر على فعل المعجزات في فراش الزوجية وعلى أن يحيي العظام وإن كانت رميما، بعد تناول البط البلدي لن يحتاج أي مساعدة من الأقراص الزرقاء وسينعم بسعادة غامرة وذهن صاف لا يعكر صفوه الصداع المصاحب لتلك الأقراص الرائعة اللعينة.

ولكن من سوء حظه أن تفاجأ وهو في شدة اندماجه مع الحاجة زينب زوجته بأن البط البلدي لم يعد يؤتي ثماره وبخاصة من ذهن ينشغل مؤخرا بما حدث لعلي عسكر.

-تعالى بس يا حاج اتدفى ونام والصباح رباح، دي حتى الدنيا ساقعة يا خويا.

قالتها زوجته محاولة أن تطيب خاطره وتعفيه من الحرج ولكن هيهات هيهات، فالحاج صالح مكاوي لا تتقبل نفسه مثل لحظات الضعف والعجز تلك وبخاصة حين تناديه زوجته الحاجة زينب بـ(أخويا)!

تمنى أن يكون من أصحاب الكرامات فيهبط عليه قرص أزرق من السماء يعيده إلى مضمار السباق، ولكن لم يحدث ذلك!

نهض من فراشه مقيدا بضيق نفسه فتوضأ وأسبغ الوضوء على المكاره وخرج إلى الغرفة الضيقة التي اتخذها منذ بلوغه الخمسين من عمره كمحراب للتعبُّد، صلى ركعتي قضاء حاجة بغير تركيز أو خشوع وذهنه معلق بذلك الصندوق الخشبي، إرث الشيخ متولي الذي احتفظ به بعد مقتل علي عسكر.

استعاذ بالله من شيطانه الرجيم سبعين مرة ولكن لم يتمكن من قتل الفضول الموشك على قتله.

جلس الشيخ صالح مكاوي القرفصاء وفتح الصندوق الخشبي وجعل يتسلى بمطالعة محتوياته غير ملتفت لأصوات الكلاب التي جعلت تنبح منذرة أياه أسفل نافذة الغرفة!

* * *

مرض كورو النادر هل يضرب مصر؟

في أعقاب الكشف عن عصابة آكلي لحوم البشر، المسئولون بوزارة الصحة

يصرون على التكتم على انتشار مرض نادر يسمي مرض كورو، وقد صرح مصدر مسئول بوزارة الصحة رفض ذكر اسمه أن مرض كورو هو مرض تدريجي في الجهاز العصبي المركزي، وهو نوع من التهاب الدماغ الإسفنجي المُعدي موجود في البشر يتسم بتزايد انعدام التناسق الحركي ويصل إلى حد الشلل والوفاة في غضون سنة من ظهور الأعراض.

* * *

المحكمة تؤجل النطق بالحكم في قضية مضاجعة الموتى

المحكمة تؤجل النطق بالحكم في القضية المعروفة إعلاميا بقضية "مضاجعة الموتى" للنطق بالحكم حتى نهاية العام، يذكر أن محامي المتهم "ك.ش" قد طالب في دفاعه بضرورة إحالة المتهم الى مستشفى الطب النفسي وندب لجنة من الأطباء للكشف على قواه العقلية وإعادة التحقيق معه مرة أخرى.

* * *

بدا على المذيع الجدية وارتدى ثوب العالم ببواطن الأمور وهو يتحدث في برنامجه قائلا:

-ومعانا الأستاذ الدكتور ماهر بركات على التليفون للتعقيب على الإشاعات المنتشرة بشأن انتشار المرض القاتل في مصر، اتفضل يا دكتور ماهر.

-والله حضرتك فيه ناس عايزة تخرب البلد مش عارف لمصلحة مين، يا فندم أنا بحب أطمن السادة المشاهدين وحضرتك بيتفرج على برنامجك ملايين أن المرض المزعوم اللي اسمه كورو هو مرض ما ظهرش غير في بابوا غينيا

الجديدة بس، دي منطقة كده في آخر الدنيا جنب استراليا حضرتك والكلام ده كان من حوالي ستين سنة، أنا مش عايز أخش في تفاصيل بس المرض ده في الأغلب أعراضه ما بتظهرش غير بعد عشرين سنة، الحالة اللي ماتت وكانت متهمه بالكانابيليزم دي عمرها كله على بعضه تلاتين ولا حاجة وتلاتين سنة.

-يعني الناس ما تقلقش على ضمانتك يا دكتور ماهر؟

-تقلق ليه أصلا، اللي أكلوه ده لحم زي أي لحم تاني مفيش ضرر منه، وأكيد الراجل كان بيطبخه مش بياكله كده يعني.

ضحكة مصطنعة من مذيع البرنامج كانت كتعقيب على ما قاله ماهر بركات ثم استطرد:

-حضرتك كده يا دكتور ماهر بتشجع الناس تاكل بعضها.

-يا فندم لأ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه.

قالها ضاحكا ماهر بركات!

غابت عنهما الجدية وأنهيا الحوار لينتقل ماهر بركات لعمل مداخلة هاتفية أخرى مع برنامج آخر في قناة أخرى!

* * *

تعجب الطفل ذو العشر سنوات من هذا الرجل غريب الأطوار الذي استوقفه في الشارع أمام المدرسة واحتضنه في حنان جارف قائلا:

-أزيك يا أحمد.. بابا بيقولك أنت واحشني جدا أنت ومريم أختك يا حبيبي.

obeikan.com

أبعده الطفل في خوف وقد حذرته أمه مرارا من الغرباء الذين يخطفون الأطفال ليطهونهم في آنية كبيرة ليتناولوهم على العشاء وقال خائفا:

-أنت مين يا عم.. أنت تعرف بابا منين؟!

تبسم الرجل في ألم وأطلق تنهيدة تنم عن عذاب نفسه الداخلي قائلا:

-أعرفه؟!.. آه طبعا يا أحمد أعرفه، أنا أكتر واحد يعرف مراد توفيق باباك الله يرحمه.. اعتبرني أنا وهو واحد.

-ابعد إيدك عني يا عم أنت.. يا ميس نهاد.. يا ميس نهاااااد..

اختفى الرجل الغامض في لحظة مستغلا الزحام أمام المدرسة عندما جعل الطفل ينادي على معلمته، اختفى وهو يحاول عبثا السيطرة على دموعه التي انسكبت من عينيه حزنا.

* * *

-هي كده محتاجة يتغير لها ديسك واسطوانة وتيلة دبرياش وهتسحب معاك عنب يا حاج.

قالها سعيد عبد الجليل بعدما أنهى فحص سيارة الحاج محمد صعوان، جلس بعدها على كرسي خشبي متهالك ليستريح ويكمل كوب السحلب ناظرا في سعادة إلى اللافتة التي تعلو الورشة "الصعيدي لصيانة السيارات".. ورشته الجديدة بتلك المدينة التي عاد إليها بقلب الصعيد، مدينته الأم حيث توجد قريته على أطرافها.

الأموال التي ادخرها من تجارته الرابحة مع كريم الشرقاوي حققت له حلمه الأول بامتلاك ورشته الخاصة ويبقى حلمه الثاني قيد التنفيذ.

لن تهدأ روحه المعذبة ويثلج صدره سوى القصاص من كل من دنس شرف أمه، يتذكرهم فردا فردا، يتذكر اساميهم وملامحهم وكأن ذلك كان بالأمس، عاد إليهم ليحقق حلمه الثاني وينعم أخيرا بشهوة الانتقام!

-هو موجف البلد دي منين يا أبو عمه؟

* * *

تمت بحمد الله

obeikan.com

شكر واجب

أ.د. أشرف صابر حجاب

أ. أحمد عيسى الشافعي

د. أحمد سعيد يوسف

د. محمد جمال عبد الصادق

الصديق/ محمود الديباوي

أ. أحمد الديب

أ. محمد علي حسن

مهندس/ محمد مجدي

أ. محمد صيام

obeikan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com